

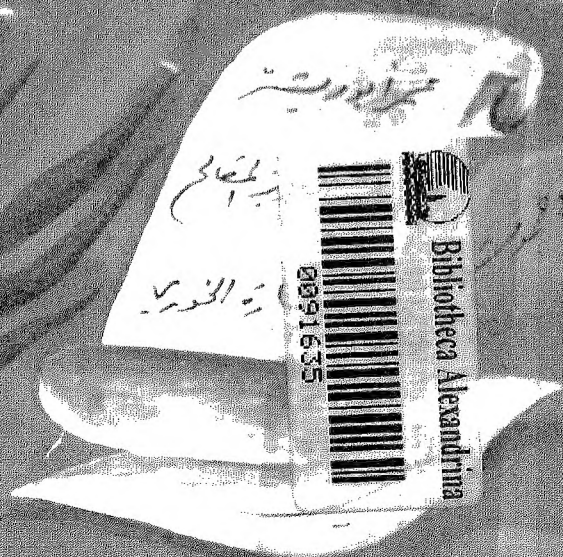
# كائنات وتربية

## قراءات إبداعية في الشعر العربي

أحمد عنتر مصطفى



الهيئة المصرية العامة للكتاب



إن الآلة الإلكترونية التي  
يمكن أن تحل محل ذاكرة الحساب  
لا يجوز أن يمتد سلطانها إلى  
الشعر والفنون الأخرى.. وطبيعة  
الفن تأبى ذلك وتعصى عليه،  
والفن ذوق ووجدان قبل كل  
شيء.. وإذا ما تم تحييد أو  
تغيب أو تدجين الذوق بحيث  
يسهل إحتواؤه ضمن معادلات  
الآلة الحاسبة، فإنه يتحول إلى  
جثة هامدة لا تنبض فيها الحياة،  
ولا يتدفق في شرايينها ألق  
الحضور الكوني الخالد: الشعر..!!  
(النشء في ذاكرة الشعراء)







---

أحمد عنتز مصطفى

# كائنات وترية

## قراءات إبداعية في الشعر العربي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

---

الإخراج الفنى والتنفيذ :

---

صبره عبد الواحد

إهداء..

إلى أبي ..  
في سنيّ عمره الأخيرة ..  
والى ناديه وأروى ..  
زمن الحب الباقي ..

أحمد



## مقدمة

### آسف .. إنه زمن الشعر .. أيضاً .. !!

يزعم المولعون بالتقسيم التضاريسى الحاد بين الأجناس الأدبية أنه  
زمن الرواية وتصدر كتاباتهم فى اتجاه تلك الريح!!  
وينصب آخرون ؛ من الفصيل نفسه ؛ أشرعتهم زاعمين أنه زمن القصة  
القصيرة.

وأظن هؤلاء جميعاً قاتلين فى ضمائرهم المبدعة أرق صفاتها النبيلة؛  
بمحاولتهم تجريد أنفسهم من براءة الشعر!!

إنهم بمحدودية النظرة الضيقة؛ وفى صخب سعيهم الدعوى لتمجيد  
وتأكيد ذواتهم الجديدة؛ إذ ظل الشعر؛ وما زال؛ طوال أكثر من خمسة عشر  
قرناً هو فن العربية الأول؛ يحاولون؛ فيما لا داعٍ له؛ الفصل بقسوة بين  
الشمس وأشعتها؛ وعزل القمر - بتعسفٍ غير لازم - عن ضوءه المشع.

من العجيب والمؤلم معاً؛ أن بين هؤلاء نقاداً وروائيين وقصاصين؛ لو

سألتهم أو جلست إليهم تجدهم يعترفون. وأحياناً على الصفحات الأدبية والإذاعات؛ التي أصبحت نهباً مشاعاً لادعاءات الكثير؛ تجدهم يكتنون للشعر عداءً مغلفاً ببناء ظاهر متكلف. مردُّ ذلك - فى رأى، وكما يتبين فى أقوالهم عن النشأة الملهمة والسيرة الذاتية العصامية - أنهم بدأوا بكتابة الشعر؛ ثم تركوه حين أدركهم الوعى وحددوا مسارهم المختار.. هكذا يزعمون!!

والحقيقة التى لا تُقال ولا يُعترف بها أنهم أحسوا أن للشعر أعباءً وتكاليف برموا بها فلم يمنحهم الشعر جوهر انتقاده. اكتشفوا وعورة الطريق على أقدامهم وعقولهم الحافية المرفهة وعانوا من صعوبة سلمه الطويل. فاثروا السلامة. والشعر - كما هو معروف - فن لا يعطيك بعضه حتى تُعطيه كلك.. وهم ضاقوا بإعداد أنفسهم شعرياً. وهربوا من تلك المهمة الصعبة.

فثقافة الشاعر متعددة المناحي عميقة ينبوع متشعبة الأصول والجذور؛ وذلك موضوع يجدر أن نفرّد له بحثاً مطولاً، ولكن يكفى هنا أن نذكر من مكونات تلك الثقافة: ضرورة حفظ التراث الشعري العربى أو الغوص فى جمالياته، كخطوة أولى لمن يتطلع أن يصير شاعراً. ثم الولع الشديد والنهم فى فض أسرار اللغة العربية واكتشاف صفائها فى جذورها الأولى والمعاصرة أيضاً، وما طرأ عليها من تحولات وتطور. كذا الاهتمام بالتراث النقدى العربى. وجُلُّه يتعرض للشعر فى عصوره الأدبية المختلفة؛ ثم الإلمام - إن لم نقل دراسة - عروض الشعر وأسرار البلاغة فيه. قبل ذلك كله وبعده المعرفة الدقيقة بقواعد اللغة والنحو والصرف. وتلك وحدها كارثة على رعوس هؤلاء فكثير من روائيينا وقصاصينا تفشت فى نتاجهم منذ الستينيات أخطاء اللغة والنحو.. وليسأل من يشاء مصححى اللغة فى صحفهم ومجلاتهم ومصوبيها فى الهيئات الثقافية، علماً بأن بعضهم بلغ شأواً

مرموقاً؛ وإحفاقاً للحق يحاول هذا البعض جاهداً أن يستكمل أدواته وأن ينقى عباراته من هذه الأعجمية وينقذ أسلوبه من صيغ التراجم البيروتية طوراً والمغربية أحياناً.

لذا انصرف هؤلاء عن الشعر إلى سواه من الأجناس الأدبية التي تستوعب بمرونتها جهدهم المترنح؛ وأنا هنا لا أقلل من قيمة هذه الأجناس أو أحط من قدرها. ولكن الشعر بتراث قوانينه الصارمة لم يسمح لهم بفوضى الإدعاء. ذلك أنه فن شفيف كاشف يفصح أبعاد الموهبة الضحلة. وهو بتلك القيم والقوانين التي ترسخت على مدى عمره الطويل يلفظ أنصاف المواهب ويطردهم من فردوسه المقدس. أما الأجناس الأدبية الأخرى فأصلها غير عربى وحديثة، وعمرها – عربياً – لن يصل إلى مائة عام، وميدان الاجتهاد فيها أوسع وأرحب. وقد ظنوها – وهماً – بسيطة الأعباء سهلة الأداء فانخرطوا في سلكها؛ على أن أشياء في نفوسهم قد بقيت تجاه هذا الفن الجامع.. الشعر الذي يأبى أن يدين إلا للمبدع الموهوب والمتمكن.

سيقولون: تطور الزمان؛ وتقدمت الفنون.. والأجناس الأدبية المركبة التي تستجيب للعقل والصنعة أكثر استيعاباً لهموم هذا الزمان وقضاياها. ويحاولون تمجيد الشعر بقولهم: إنه ابن الفطرة الإنسانية.. وهم إذ يسبغون عليه هذا الشرف يسلبون دوره؛ أو يقللون منه باللقب نفسه. أى أنه لا يستطيع مواجهة تعقيد العصر..

ونقول: أو نزعم؛ إنه أشد العصور احتياجاً إلى الشعر.. ولا يوجد ما يقهر تلك المادية المقيتة المتغلغلة في هذا العصر سوى الروح المتوهج في الكلمة الشاعرة. ولا يبعث الحرارة في هذا الجسد المتبلد المسجى سوى الحس الرهيف المتدفق في حروف نحيلة صادقة منبعثة من قيثارة شاعر



مبدع. ولسنا وحدنا ندعى ذلك أو نقول به، ولكن أقوال الغربيين سادة الحضارة المادية تؤكد على الشعر خلاصاً إبداعياً سامياً بالروح البشرية التي أزهقتها ماديّات العصر.. إن دورينمات - المسرحى السويسرى - نتاج ثقافة الغرب وأحد المحدثين؛ يصيح : [الشعر ضرورة .. وآه لو كنت أدرى لماذا؟..]

إذن فهو زمن الشعر أيضاً..

لا يتأخر ولا يتراجع دوره طالما بقى الإنسان..

ولا يتأثر بفيتو صادر من ناقد احتبى على شاشة التلفاز وانبثقت فى ذهنه العبقرى ينباع الكلمات وانزلقت إلى حنجرتة المبدعة فقال وأفتى.. لا قُضُ فوه..

فهو - أى الشعر - أعمق إنهماكات الإنسان؛ وأكثرها أصالة؛ بما أنه أكثرها براعة وفطرية وغوصاً فى دخائل النفس.. ولأن الزيف هو السائد.. وقد انتشر الزائفون فى الأرض؛ وفى الإبداع أيضاً!! فإن أكثر ما يزعجهم ويعريهم أن يغوصوا.. أو يغوص أحد فى دخائل النفس.

هذا ليس دفاعاً عن الشعر ولا تزكية له؛ فتاريخه فى سياق الأدب العربى؛ بل فى الآداب العالمية يؤكد على جدارته ودوره. وليس معنى غلبة شيوع جنس أدبى فى وقت ما تحت تأثير ظروف ما أن يحكم الناعقون بموت الشعر.. كان أولى بمن يطلق ذلك من النقد. أن يبحث فى ظاهرة انحسار الشعر - لا قدر الله إن رأى ذلك - وأن يطلعنا على أسبابها. وأن يهتم بالرمق الباقي فيه ويسلط الضوء عليه. لا أن يستسهل فيعمم ويطلق الحكم والرصاص..

لقد كان؛ وما زال؛ حلم المبدع القاص أن يرقى بقصته وأسلوبه إلى جوهر الشعر وغموض سحره وسحر غموضه وشفافية التكثيف والإيجاز؛ وهذه كلها من خواص القصيدة الجيدة. ألم نسمع رأياً فى قصة جيدة .. ما.. أنها قصيدة؟ يقولها الناقد أو المبدع أو القارئ سُمُوءاً بالقصة وتشريفاً لها بمقاربتها أو مقارنتها بالقصيدة؟!

بل إن فنناً حضارياً محدثاً ومؤثراً كالسينما، اعتمد الصورة والكلمة والموسيقى والتشكيل اللوني واختزل الفنون كلها والمؤثرات الطبيعية وعكسها أفلاماً.. عندما يحاول الناقد السينمائي أن يضيف على فيلم ما صفة نبيلة لا يجد إلا كلمة (الشاعرية) وصفاً للصورة أو الموسيقى أو أسلوب الإخراج ليعبر عن رقى هذا العنصر من عناصر الفن السابع وقوة تأثيره على المتلقى المشاهد.

لا أزعج هنا أنى أنتصر لقضية الشعر؛ وإن يسوقنى الحماس لأن أكون الطرف أو الحد الثانى لمقص التطرف فى الرأي.. ولكن هى خواطر عنت لى بين يدى هذه المقالات المتواضعة التى أتركها بين يدى محبى الشعر وهى تعكس إلى حد كبير رؤيتى البسيطة لهذا الفن النبيل.

وهى محاولة لقراءة إبداعية فى نصوص كائنات وترية، هم الشعراء؛ الذين تغنوا بعفوية وأسهموا فى إثراء هذا الجنس الأدبى المفترى عليه والذى صفح عنه النقاد فى زماننا الأخير؛ مما اضطر الشعراء لأن يقوموا بالدورين معاً: الشاعر المبدع والناقد المتابع. وتلك آفة من آفات الساحة الثقافية لدينا. وظاهرة استشرت لأسباب كثيرة لا مجال لاستقصائها الآن. ولكن يحق أن نوجه التحية والشكر للناقد الأديب رجاء النقاش الوحيد الذى لم يقطع خيوط الدأب والمتابعة لهذا الفن؛ والوحيد - فيما أعلم - الذى صدر له فى الفترة

الأخيرة كتاب عن الشعر والشعراء بعنوان : «ثلاثون عاماً مع الشعر  
والشعراء»..

ويعد ..

فهذه القراءات بعض مما نشر في الدوريات من مقالات ودراسات،  
خلال السنوات العشرين الماضية، أتركها بين يدي القراء، معترفاً لهم نيابة  
عن نقاد الشعر الذين غابوا أو انطمسوا.. أو انقرضوا.. ولعلها تحفزهم لأن  
يتصدوا لها بالنقد وإبداء الرأي.. ولهم نقول:

إنه زمن الشعر .. أيضاً..

أحمد عنتر مصطفى

الجيزة

٤ يونيه ١٩٩٤م.

القسم الأول

نشر في المكتبة

القسم الثاني



---

# طه حسين .. والانتحال في الشعر

---





فى العشرينات من هذا القرن، أصدر الدكتور طه حسين كتابه: (فى الشعر الجاهلى) أو (فى الأدب الجاهلى) كما جاء فى طبعاته التالية بعد المصادرة والعاصفة التى ووجه بها الكتاب والكاتب، وشهدت فصولها قاعات القضاء وشغلت بها الصحافة الأدبية والساحة الثقافية. ناقش الدكتور طه حسين فى كتابه المذكور فكرة (الانتحال) فى الشعر الجاهلى. وشكك فى صحة الكثير من النصوص والروايات فيه وحوله. ويعيداً عن تأكيد ذلك الزعم أو نفيه، حيث شهدت المعركة كتباً وبحوثاً ودراسات تجاوزت العشرين، بعيداً عن ذلك، رأى كثير من النقاد أن الدكتور كان متأثراً فى رأيه هذا بعدد من المستشرقين درس عليهم وبهر بأرائهم. وعزا آخرون رأى الدكتور هذا إلى ولعه الشديد بالمنهج (الديكارتي) الذى يتخذ (الشك) مدخلاً ليقين ما. ونحن لا ننفى هنا إعجاب الدكتور بأراء هؤلاء المستشرقين، ولا معرفته بمنهج ديكرت، فكل ذلك منصوب عليه فى عبارات الدكتور نفسه، ولكن أحداً من نقاد الدكتور لم يلتفت أو يشير، خلال تلك المعركة المحتدمة، ولا بعدها، التى أثرت المكتبة العربية، كما أسلفنا، بما يربو على العشرين كتاباً صدرت كلها تتصدى لفكرة (الانتحال فى الشعر الجاهلى) جاهدة أن تدحض محاولة التشكيك فى أصالته، حريصة على إثبات نقاء دمه الأزرق...!! لم ينظر أحد خلال تلك المعركة، واتهام الدكتور فيها بانقياده لأراء المستشرقين وخروجه من «معطف ديكرت» إلى أبعد من ذلك قليلاً. حيث كانت البداية نابعة من

الدكتور طه حسين نفسه، أو كما يقال، البذرة كانت كامنة فيه.. ولم يكن بحاجة إلى البحث عن جذورها خارج حياته الشخصية.

فالم تأمل - حتى بلا عمق - لحياة د. طه حسين، يجد أن تلك العاهة التي لحقت به صبيًا، وهي فقدانه لبصره، نفخت في روحه الصبية، ثم بعد ذلك أمدته فتياً .. وشاباً .. وشيخاً ببراكين الرفض للمألوف وتحدي السائد - الذي لا يراه يقينا وعيناً - والمحاولة الدائبة على دحض المبصرين !!.. ودعاواهم!! والنيل من عقولهم وأفكارهم.

إن دراسة متأنية لسيكولوجية (الضرير) تهدينا إلى مفتاح (منظور نقدي لكتابات طه حسين الأولى). إن الأعمى بما جبلته العاهة فيه من طبع، يكتسب القدرة على التحدي والذهاب بها إلى مدى بعيد ... ولنأخذ شاعرين شاركا الدكتور المحنة نفسها والظروف ذاتها، أحدهما أعجب به الدكتور أيما إعجاب ولم يعدل به أحداً، وفضله حتى على المتنبي، وتندر بثانيهما تندرًا شديدًا ولم يكن له احتراماً .. بل لعله كان يراه نقمة على مثله من فاقدى البصر .. هذان هما: أبو العلاء المعري .. ويشار بن برد.

### التحدى بالعلم:

فقد روى عن أبي العلاء أنه أخذ نفسه بشدة، فلم يأكل (الدبس) طيلة حياته، لأنه أكله مرة وسال على فمه وملابسه بشكل أزرى بهيئته أمام الناس. ومثل هذا حدث للدكتور طه حسين، في صباه، كما روى في (الأيام). وقد أخذ كلاهما نفسه بشدة وارتياح في مثل هذه الأطعمة والتشكك والحذر منها، وربما اشتهاها أحدهما فصفع عنها صرامةً وعناداً

الشك والتحدى مفتاحان لشخصية الضرير .. ولقد تنكب أبو العلاء طريقاً وعراً حين قرر الخروج من معرة النعمان ٣٩٨ هـ قاصداً بغداد لينازل علماءها ويقارع شعراءها مقتنصاً منهم اعترافاً بفضلته وعلمه. ويروى لنا مؤرخو أبي العلاء ويحددون ليوم وصوله إلى بغداد ظرفاً كنيباً لطم قلبه الشفاف لطمه قاسية .. [ .. واتفق يوم وصوله إلى بغداد موت الشريف

الطاهر والد الشريفيين: الرضى والمرضى. فدخل أبو العلاء إلى عزائه والناس مجتمعون والمجلس غاص بأهله، فتخطى بعض الناس فقال له - ولم يعرفه - إلى أين يا كلب؟ قال: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .. ثم جلس في أخريات المجلس إلى أن قام الشعراء وأنشدوا مرثيتهم، فوقف أبو العلاء وأنشد - مرتجلاً - قصيدته في رثاء الفقيد:

### أودى قليت الحادثات كفاف

فلما سمعه ولداه قاما إليه ورفعاه مجلسه وقالاه: لعلك أبو العلاء المعري قال: نعم .. فأكرماه واحترماه].

الإدلال بالعلم والتحدى بقيمته هو ما يملكه هذا الأعمى في مواجهة قسوة العالم.. فالكلب عنده من لا يعرف للكلب سبعين اسماً.. إذن ما أكثر الكلاب.. ووحده العالم.. من البشر .. بل سيدهم .. ولعل المقام لا يتسع لذكر تحديات أبي العلاء لمعاصريه ومجاراته لهم، بل التفوق عليهم، حساً وذكاء وعلماً.. فكل هذا حفلت به كتب الأدب العربي حتى تجاوز المعقول إلى جعله أسطورة في ذلك المجال.

ولعل فيما يرويه صاحب الأغاني عن بشار بن برد، وهو النموذج الآخر، الذي شارك الدكتور محنة عاهته، ما يؤكد قيمة (التحدى) لدى الضريب. فقد روى صاحب الأغاني في أخبار بشار - الجزء الثالث - هذه الرواية.

[.. كان بالبصرة رجل يقال له حمدان الخراط، فاتتْه جاماً لإنسان كان بشار عنده. فسأله بشار أن يتخذ له جاماً فيه صور تطير .. فاتخذ له وجاء به، فقال له: ما في هذا الجام؟ فقال: صور طير تطير.. قال له: كان ينبغي أن تتخذ فوق هذه الطيور طائراً من الجوارح كأنه يريد صيدها.. فإنه كان أحسن.. قال: لم أعلم.. قال: بلى لقد علمت، ولكن قلت إنى أعمى.. ولا أبصر شيئاً..] .. وتمضى الرواية إلى سبيل آخر.. ولكن حسبنا منها هذا العناد الجامح والتحدى لظروف العاهة، ومحاولة الفكاهة من قيدها بقهر الناجين منها.. والنيل من قدراتهم.

ولو قد قرأنا نواذر الجاحظ عن العميان، أو ما جاء فى كتاب: (نكت الهميان فى نكت العميان) لوجدنا الكثير مما يثبت تمكن هاتين الصفتين: (التشكك) و(محاولة التصدى للعاهة وأثارها بالتحدى).. من نفسية فاقدى معمة البصر.. بل إن محاولات (التحدى) عند الضرير تتخذ أبعاداً منها أحياناً تندر، هو نفسه، بعاهته، كما عند بشار، أو اعتداده بها كما عند أبى العلاء ومحاولة التقليل من قيمة الرؤية البصرية، (فبالقلب، لا بالعين، يبصر ذو الثلب).. (والأذن تعشق قبل العين أحياناً).. حيث الارتقاء بقيمة الحواس الأخرى المتوافرة.. وفى ظل هذا كله تشيع مقولة مثل (العمى عمى القلب).. وهكذا.

### البواعث النفسية:

ولماذا نذهب بعيداً.. لنعد إلى مخزون تجاربنا اليومية.. هل أخذ أحدكم بيد ضرير ليعبر به الطريق العام..؟ ماذا حدث؟ وبِمَ تكلم..؟ أعترف أنى كررتها لأكثر من مرة، لا لأجل الثواب المحض وإن كان وارداً، بل محاولة منى لدخول عالمه والاقتراب منه للغوص فى أعماقه.. وظلماتها.. أذكر خلال حطواتنا القصار المعدادات، لأكثر من مرة يأمرنى بالتلفت يسرة ويمنة.. الأسئلة تتقاذف عن السيارات المسرعة التى قد (لا ترانا).. هى التى لن ترانا.. انه الوحيد الذى يرى.. ويشك فى قدرات من حوله.. وأولها القدرة على الرؤية والابصار..!! انه الشك حيث ضاع (اليقين الرؤيوى) ونفسية مثل هذه ليست بحاجة إلى (ديكارت) ولا (جب) ولا (بروكلمان) أو (مرجليوث) أو (بلاشير).. نعم.. كل هؤلاء وجدوا أرضاً خصبة على استعداد للتعامل معها.. لكن البذرة - كما قلنا - كانت كامنة فيها.

وفى حالة الدكتور طه حسين الذى رفض محبسه الأول.. والوحيد، محنة فقد البصر.. وما يمكن أن يؤول إليه مصيره فى قرية مغمورة من قرى صعيد مصر. وفى القرن التاسع عشر، نستطيع أن نضع أيدينا على الصفة الثانية: (التحدى) تجتاح الفتى فيخرج عن نواميس الأزهر ودروس اللغة، بعد

رفضه الركون للمصير الذى ينتظره فى قريته، الذى سلم به ذووه بعد إصابته بهذه المحنة، ها هو ينحى العمامة جانباً ليستبدلها بالقبعة تحت سماء باريس.. وفى مونمارتر .. وما إلى ذلك من (تحديات) أوسعت سرداً وتفصيلاً.. وسطحت كتباً.. وأفلاماً.. ومسلسلات.

من هنا تأتى فكرة (الانتحال فى الشعر) متسقة و(نفسية) واستعداد الدكتور طه حسين أكثر من اتساقها مع (ثقافة) الرجل وتأثره بآراء غيره. حيث كان المناخ النفسى مهياً لديه للغوص وراء الفكرة وتبنيها.

ولا يمكننا أن ننهى هذه الكلمة دون أن نعود إلى فكرة (الانتحال فى الشعر الجاهلى) فلنا فيها رأى نود لو أثبتناه، لقد صدر - كما قلنا - ما يربو على عشرين كتاباً إبان المعركة، وبعدها، كلها تؤكد نسب الشعر الجاهلى وأصالته.. ومن منظور أخلاقى بحثت القضية وتمت إدانة المنتحلين. ولم يحاول ناقد ما، آنذاك وحتى الآن فيما نعلم، أن ينظر إلى قضية (الانتحال) من منظور فنى وإبداعى.. باستثناء بعض المحاولات التى ترد هنا أو هناك للفصل بين لفظ ولفظ.. ولتأكيد أن هذا اللفظ ليس من ألفاظ زهير بن أبى سلمى.. ولا هذه التركيبية للبيت تركيبته.. وهكذا.

والسؤال، الآن، هل يحاول نقادنا المحدثون، أو أحد هؤلاء الذين ملأوا الدنيا صخباً وضجيجاً بالمناهج الحديثة وأخذوا بتلابيب الألسنة.. ونحروا للبنوية قرابين المديح ونشروا الأشرعة فى اتجاه رياحها المقدسة، هل يبدأ أحدهم - على ضوء مناهجها المعاصرة - أن يدرس هذه القضية على وجهها (الفنى) وليس (الأخلاقي) كما ساد؟

### تنويع على النص:

إننا نرى أن محاولة (حماد) الراوية أو (خلف الأحمر) أو أى (مُنْتَحِل) لوضع الحافر على الحافز، وتقصى أسلوب أمرئ القيس أو زهير أو النابغة. ومحاولة (المُنْتَحِل) لتثبيت قناع هذا الشاعر أو ذك على وجهه، وتقمص حالته النفسية والفنية وقدراته الإبداعية ليأتى بخيوط النسيج نفسها، مهما دقت،

فى محاولة مستميتة ألا يبدو الثوب مرقعاً.. إن مثل هذه المحاولة لجديرة بتقصيها.. واستقصائها فنياً.

إنها حالة إبداعية جديدة لها شروطها ومواصفاتها الفنية، ولبدعها - نعم لبدعها - يجب أن تتوافر قدرات خاصة، بل ربما كانت أشد تعقيداً من حالة الإبداع الأولى.. الحرية المطلقة.. فالمنتحل مقيدٌ إلى نموذج له خصائصه ونسيجه المفروض عليه، هو يتحرك من حيث انتهى النموذج، تتحداه التجربة الأولى التي تركها (المنتحل) ومن هنا تتجلى ثقافة ورهافة وحس (المنتحل) الذى لا بد له - حتى تنجح اللعبة - من وعيه التام بخصائص (المنتحل) وقدراته وحيله الفنية ودقائق ألفاظه ومخارجها وإلمامه التام بمناحى الإبداع فى النموذج (المنتحل).. بل ومناخ الإبداع الذى تحقق فيه (الإبداع الأول) للنص.

لماذا لا نعتبرها تنويعاً آخر على النص..؟ (وقد كثر فى شعرنا المعاصر المنوعون على نص واحد.. أدونيسى أو درويشى.. أو غير ذلك.. وقالوا إنه إبداع جديد!!).. لماذا يُنظر إلى (المنتحل) شعره على أنه مظلوم.. ولا ينظر إلى (المنتحل) على أنه مبدع ومضيف..؟؟

أتساءل.. وأدعو.. ولست مسؤولاً عن أى انتحال غير مشروع فى شعرنا الحديث.. حيث يسهل السطو والإغارة.. بحكم تحول الأبيات إلى سطور مما قد يسهل على الشعارير المحدثين كثيراً من الأمور!!!



---

# **دراسة الأديب العربي والهرم المقلوب !!**

---





... فى حوار أجراه الأستاذ جهاد فاضل مع الدكتور عبد القادر القط  
حول الأدب العربى والنقد الأدبى، وهموم ثقافية متباينة ومتنوعة، تناول الناقد  
العربى الكبير مشكلة تدريس الأدب العربى، ضمن مراحل ومناهج التعليم  
المختلفة. ويرى د. القط أن تدريس الأدب العربى بالطريقة المتبعة حالياً، والتي  
تعتمد التسلسل الزمنى والتاريخى لعصور الأدب العربى منهجاً لتعليمه  
للمدارسين من الطلاب، يرى - علي حد قوله أن: «فى ذلك خطأ لأن التلميذ  
ينبغى ابتداء أن يتعلم أدب عصره، لأنه الأدب الذى يقرأه خارج المدرسة، فى  
كتب الأطفال، وفى الروايات، وفى الشعر.. ولأن لغته أيضاً لا تسمح له بأن  
يدرك طبيعة التراث...».

.... ويرى الأستاذ الدكتور القط، أن الحاجز الحضارى والحاجز  
اللغوى يحولان دون استيعاب التلميذ، والأمر كذلك، للتراث. فـ «الشاعر  
الجاهلى يكتب عن أشياء حضارية - آنذاك - لم تعد قائمة فى عصر التلميذ،  
وبلغة عربية غير التى يعرفها التلميذ...».

.... ويخلص الناقد إلى أنه: «حبذا لو قلب الترتيب فى تعليم الأدب  
العربى، فأرجىء تعليم التراث، سنياً حتى ينضج الطالب، وتزيد حصيلته  
اللغوية، ويدرك معنى التراث...».

.... والاقتراح كما طرحه، الدكتور القط، وجيه ولا يخلو من فائدة، ولكنه قد يخرجنا من مأزق ليوقعنا فى ورطة...!!!، فعلى الرغم من عقم طرق التدريس التى أنهكت أدبنا العربى، وقدمته ممسوخاً، وهى آفة تعرّض لها الكثيرون وعلى رأسهم الدكتور طه حسين الذى تناولها فى الفصل الأول من كتابه (فى الأدب الجاهلى) وفاضل بين طريقتين من طرق تدريس الأدب العربى: الأولى طريقة المعممين فى رواق الأزهر، والثانية منهج الأوربيين فى الجامعة المصرية الوليدة.. إلا أن للتدريس وفق التسلسل التاريخى لعصور الأدب العربى فائدة قد يذهب بها التغيير الذى اقترحه الدكتور القط .

### طفرة فجائية:

من المسلم به، وكما جاء على لسان الدكتور القط فى حوارهِ، أن الأدب العربى مر طوال خمسة عشر قرناً بتحولات وتطورات جعلت منه حلقات وسلاسل متصلة، ومن الطبيعى أن تدرس هذه التطورات فى سياقها، بحيث لا تقدم للطالب على أنها طفرة فجائية ، ولزيادة الصورة وضوحاً ، نأخذ الشعر العربى مثلاً ، وهو ما يعنى الدكتور فى حديثه ، وهو أيضاً أقدم الأجناس الأدبية العربية عمراً ، الشعر العربى - هذا - نبداً دراسته فى صورته الجاهلية ، التى ينفر منها التلاميذ، لبعد الموضوع المعاش وغرابة البيئة ووحشى اللفظ وجزالة التراكيب وفخامة الموسيقى ..، ثم جاء العصر الإسلامى فرقت الطباع وظهر الغزلون مع العصر الأموى ، وفى العصر العباسى جاء مسلم بن الوليد وأبو تمام وأبو نواس بالجدد المتطور فكرةً وبناءً ، ساعدهم على ذلك تطور المجتمع العربى واندماج مجتمعات جديدة فيه وانصهار ثقافاتِها وخواصها فى بوتقته ، كذا شيوخ الغناء والموسيقى وتأثيرهما فى بناء الشعر وموسيقاه ، العصر الأندلسى، أو الرافد الأندلسى - أيضاً - فى شعرنا العربى ، كانت له يد طولى فى تطوره بظهور الموشحات والخمسات .. الخ .. وفى العصر الحديث ظهور مدرسة الإحيائيين والرومانسيين ومدرسة (أبوللو) والرافد المهجرى .. ذلك كله أدى منطقياً ،

وكل ظاهرة من هذه الظواهر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتطورات اجتماعية وسياسية وثقافية ، أدت إلى ظهور الشعر الحديث والشعر الحر وقصيدة النثر . إذن فالإضافة تراكمية ، وربما توالد بعضها من بعض . من الطبيعي ، رغم الصعوبة في مرحلة تلقى الشعر الجاهلي ، وهي صعوبة ستظل قائمة لطبيعة هذا الشعر ، سواء قلب الترتيب أو ظل على ما هو عليه ، نقول من الطبيعي أن يعي ذهن الطالب ، مع تطور عقله وتراكم معرفته ودراسته لتاريخ أمته هذه الانتقالات أو التطورات التي تلم بالفن الشعري ضمن سياقاتها ، ويواكب هذا نموه العقلي والوجداني ، خاصة وهو في تلك المراحل يدرس في دروس التاريخ ما مرّ والمّ به (جسد) هذه الأمة مرتباً في سياق زمني متسلسل ومتصل الحلقات . فلماذا نفصل عن هذا السياق ما مرّ والمّ به (عقلها) و (وجدانها) وندرسه له ، أو نلقنه آياه مقلوباً؟؟ وهل يجوز لنا – أو نقدر – على تدريس التاريخ مقلوباً؟ وهل سنتمكن من الفصل التعسفي بين (تاريخ الأدب) و(تاريخ الأمة) أو ليس التاريخ وعاء لكل نشاطات وإبداعات البشر والحياة ، والأدب فرع معبر ونابع منها !!٩٠

.. وجهة نظر الدكتور القط في أن إرجاء تدريس التراث للتلميذ حتى يبلغ أشده وتزيد حصيلته اللغوية ، مردود عليها بأن هذا التلميذ ، في حالة الترتيب المقترح ، سيكون قد تشبع وجدانه بالشكل الأدبي الذي درس له ... بمعنى أنه إذا درس الشعر الحديث والحر – مثلاً – في بداية حياته ، ويتوالى الترتيب المقترح بعد ذلك ، سيعمق هذا المنهج (الهوة الزمنية) بينه وبين الشعر الجاهلي عندما نصل به إليه ، وفق التسلسل المقترح .. وهي الهوة التي أشار إليها الدكتور زمنيا ونادى بالتحايل على ردمها بذلك الاقتراح ، الذي لو أخذنا به نكون أسهمنا في تعميق (الهوة) لا ردمها ...، فيما ندرسه للطلاب من نماذج جديدة تستقر في عقولهم ونفوسهم وتترسب في أعماقهم ، نكون قد رسخنا هذه الهوة وجدانياً ، حيث يتم تشكيل هذا الوجدان في السنوات الأولى . والدكتور القط يعرف تلك المقولة التي ردّناها خلف آبائنا

: (التعليم فى الصغر .. كالنقش على الحجر ...) أى أنه لا يزول وإنما يزداد رسوخاً . وما يرسخ من الصعب إزالته .

### الذوق والوجدان:

ويكفى ان أذكر الدكتور القط ، انه حتى الآن ، وعلى الرغم من نجاح حركة الشعر الحديث ، وقد كان للدكتور باع طويل فى الدفاع عنها وتكريسها ، أقول : حتى الآن ويعد أكثر من أربعين عاما على سيادتها الحركة الثقافية ، لن يعدم الدكتور ، فى مجالسه وندواته وقاعات الدرس أو فى مكتبه باحدى المجالات الكثيرة التى رأس تحريرها .. أو فى أعمدة الصحف ، لن يعدم ناعقاً يصيح بملء عقيرته : (انه لا شعر غير التقليدى العمودى) ، حيث لا تزال لهذا الشعر سطوة برفقته للوجدان طويلا .. وألقتها له ، هذا الوجدان الذى اختزن ورد : (ما الحب الا للحبيب الأول ..) وما هذا الا بسبب (الفة الوجدان وتنميط الذوق على المنشأ الأول) وسيادة (أحادية) النظرة والمواقف التى تجعلنا نعلم عن جماليات كثيرة وأبعاد أخرى فى (بانوراما) هذا الفن الجميل !!..

.. نعود إلى طرق تدريس الأدب والتراث ، ونحن نسلم مع الدكتور - كما قلنا - بداية بعقمها .. ويبدو أن شكوانا من ذلك ستتوالى واقتراحاتنا ستترى .. وفى معرض الاقتراحات ، والمشكلة متعددة الجوانب متشابكة الأطراف ، نلقي بحجر أو حصاة متواضعة : لماذا لا تبدأ اللجان المسؤولة عن تأليف ووضع الكتب المدرسية بتحكيم ذوقها فى الاختيار والرقى بالنماذج الشعرية المختارة؟؟ لماذا هذا الاصرار على هذه النماذج المنفرة؟؟... فى العصر الجاهلى - مثلاً - تأتى المقدمة الرتيبة التى تعتبر تمهيداً للدراسة نصوص من هذا العصر لنقول أن البيئة كيت.. وكيت.. والألفاظ كذا.. وكذا.. ثم تتفتق عبقرية الاختيار عن ترشيح نص مثقل بـ (شاورٍ مثل شلول شلشل شول...) أو دون معلقة امرئ القيس جميعها يتم اختيار: (ترائبها مصقولة كالسجنجل..!!) وما إلى ذلك مما يئن تحته قلب التلميذ وعقله ووجدانه.. لماذا

لا تختار نماذج أخرى... وما أكثرها... لماذا لا تُنتقى بعناية نماذج أكثر رحابة وعمقاً وشمولاً في بعدها الإنساني؟ نماذج تجتذب الطالب وتحترم تجربته الناشئة فيحفظها ويحترمها.. نماذج ليست مكتظة بالغريب الذي يفزع منه (حماد) و(خلف الأحمر).. نماذج متصلة بتجربة الإنسانية في شتى مراحل حياتها، وليست محدودة في إطار ضيق أو هامش مفتعل. بعد ذلك كله لا بأس من اختيار نموذج أو نموذجين غريبين للتدليل على ظاهرة أو لشرح أبعاد خاصية من الخواص.. على أن تشرح وتفسر.. لا أن تملأ وتحفظ..

... قلنا إن الموضوع شائك ومتشعب.. وما دمنا تناولناه بالاقتراعات، اعتقد أن علينا أن نبدأ بتوعية تلك اللجان.. المتخصصة!!.. أن الدكتور القط ينادى بـ (قلب الترتيب).. إذن عليه، وهذا قدره، أن يخوض معركة ضروساً وضارية ليبدأ بالشعر الحديث دروساً للطلاب وأنى له ذلك؟ فحتى الآن لا تدرج أسماء الشعراء الرواد ولا تذكر في كتب الأدب إلا لماماً.. لا لشيء إلا لأنهم (صباؤا) وكتبوا الشعر الحديث.. ويروى لنا الدكتور عز الدين إسماعيل، وكان مسؤولاً ضمن لجنة وضع أحد الكتب المقررة على طلبة الثانوية.. كيف خاض حرباً بأسلة، لينتزع الموافقة على وضع قصيدة للشاعر صلاح عبد الصبور ضمن المختارات المقررة في هذا الكتاب. وليته ما فعل.. فقد كانت قصيدة (رسالة إلى أول جندي رفع العلم في سيناء).. وهي على نبل موضوعها وشرف هدفها، من أكثر قصائد عبد الصبور هبوطاً فنياً.. وربما لكونها بهذا المستوى أذعن الدهاقنة - بخبث - ووافقوا عليها.. فضلاً عن رضوخهم اضطراراً لكونها - أي القصيدة - تتعرض لمعركة تحرير التراب الوطني.

### دور المعلم:

.. هذا عن اللجان.. والقضية أعقد من ذلك.. والمشكل متعدد الأطراف. فمثلاً هناك المعلم النموذج الذي يحتك على خط تماس مباشر مع الطالب،

..الدكتور القط نفسه رأس عمادة كلية الآداب، وهى من الكليات التى تفرز وتفرخ معلمين.. أحياناً... وهو بذلك قد درس للكثيرين ممن أصبحوا معلمين.. ما رأيهم بمستواهم؟ ألم يحصلوا على (شهادة الرزق)؟ ألم يلحظ بلادة هذه الأجيال فى التدوق.. وانصرافهم عن الجميل الممتع إلى النافع المادى.. وعزوفهم عن التحلى بملكات الإبداع وتنمية قدراتها، واللهاث، وهم معذورون، خلف أسباب الحياة المتاحة... ثم تخرجوا وأصبحوا قدوة ومعلمين.. ومدرسين.. كيف، والحال هذه ينمون فضيلة التدوق لدى الأجيال؟؟ (وكيف يداوى القلب.. من لا له قلب..؟؟) على حد تعبير شوقى على لسان المجنون..!!!!

... ان مستوى المعلمين يتدهور من مرحلة إلى أخرى.. مطرداً مع زيادة رقعة التندر بهم من (غزل البنات) إلى (مدرسة المشاغبين) مروراً بـ (السكرتير الفنى)!! حتى المتميز منهم لا يفهم أبعد من حقله.. المعرفة العامة والثقافة خارج (رسالة الماجستير) أو (موضوع الدكتوراة) غير موجودة.. سيقال انه عصر التخصص.. ونقول إنه عصر المعرفة بأبعادها المختلفة.. وعلى كل فإننا لا نطلب عالماً موسوعياً!!

... لقد اختلفى، حتى كاد أن ينقرض، ذلك المعلم الذى كان يؤمن برسائله ويتفانى فى أدائها.. ولقد كانت الأجيال الماضية أسعد حظاً، وأشهد أنى عاصرت أنموذجاً لهذه القدوة، وقد تغيم الملامح أو تتكاسل الذاكرة.. ولكنى أذكر معلماً اسمه (على رشوان) نحى جانباً نصاً لـ (الناطقة الزبيانية) فى العتاب، بعد أن شرحه بجهد متقن. ليقرأ لنا من ديوان أنيق كان يضمه فى حقيبته قصيدة «لوليتا» لنزار قبانى وكنا صبية.. ومراهقين آنذاك.. وشرع فى إلقائها.. وأخذ ينقر نافذة القلب.. والروح..(.. ربما لو اقتحم غرفة الدرس آنذاك أحد مفتشى أو دهاقنة وزارة التربية والتعليم.. لقف به إلى خارج المدرسة.. وفردوس التربية.. منبوذاً رجياً..).

.. أذكر أيضاً فى المرحلة الثانوية، اسم (محمد عبد المطلب) وهو غير الشاعر المصرى الراحل المعروف، وأيضاً غير (محمد عبد المطلب) الأستاذ



الأكاديمي المعاصر، إنما كان مدرساً للصف الثالث الثانوي، رفض، أو شرح على مضض نصاً ركيكاً مقررراً لشوقي عن (الربيع) وأخذ يعدد لنا نماذج قيمة للشاعر نفسه أخطأها الاختيار.. ليأخذ بأولى خطواتنا على طريق التذوق.

... هكذا كان دور المعلم، وهو ليس بعيداً إنما في القلب من قضيتنا.. ولماذا نذهب بعيداً.. وهذه الكلمات وتلك السطور فضل من غرس الدكتور عبد القادر القط في أحد تلاميذه المدينين لعلمه وأدبه.. وإن لم يحظ بشرف الجلوس في مقاعد درسه الجامعي...





---

# شعرنا العربى الحديث ودعوة إلى الدراسة والنقد



لا شك أنه قد مر من الزمن وقت كاف على شعرنا الحديث وتراكم لدينا من قرائه ما يبرر الوقوف عنده طويلاً ويدعو النقاد إلى التأمل فيه ودراسته. فقد خلف لدينا من الدواوين والمسرحيات الشعرية طوال العشرين أو الثلاثين سنة الماضية ما يمكن أن نسميه - تجاوزاً - تراث القصيدة العربية الحديثة. تلك القصيدة التي قوبلت حين عانقت عيناها الحياة بظلام كثيف من التجاهل المطبق ثم جوبهت بعنف شرس ومحاولة عاتية للوادة تمثلت فى مذكرة لجنة الشعر الشهيرة بمصر فى الستينيات. هذه القصيدة سارت رغم ذلك لتؤكد أن التجديد الذى رفت على ضفاف ينبوعه ليس قشرة براقية ولا بدعة مستوردة. وإنما كان ضرورة ملحة واستجابة لواقع بدأ يتفاعل مع الحياة. كان مظهراً من مظاهر التمرد لفكر هذه الأمة وتعبيراً عن ممارستها للإنطلاق وانعكاساً حضارياً للبعث الذى أصاب أطراف جسدها المسجى.. وكان للفن أن يصبح روحاً تنبض لا مواتاً تعطنت فيه الحياة.

ولقد واكبت بعض الدراسات الرائدة حركة الشعر الحديث وصدرت كتب قيمة لباحثين ونقاد أسهموا بحماس وصدق وجهد مشكور فى إرساء وتثبيت قدمى القصيدة النحيلة - آنذاك - فى مستنقع النار والدم.. نذكر من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر كتب: نازك الملائكة - فى عهدها الأول بالشعر الحديث - والدكتور عز الدين إسماعيل وغالى شكرى والدكتور محمد النويهى التى تناولت الشعر الحديث بالدراسة والتحليل ومحاولة

الوقوف على دواعيه وأصوله في أدبنا وظواهر ومظاهر التجديد في القصيدة ومحاولة استشراف طريقها ومستقبلها.. وقد ظلت هذه الدراسات هي العمدة الأولى والمراجع الوحيدة رغم مرور أكثر من عشر سنوات قطعت فيها القصيدة العربية شوطاً طويلاً ومرت بدروب جديدة غازلها فيها فرسان شعراء.. لم تصدر دراسات حديثة تحاول أن تأخذ بيديها وقد وصلت إلى مفترق طرق عديدة متفرعة، علا فيها الرهج وتصاعد الغبار وغامت بها الرؤية أحياناً كثيرة.. نقول لم يخرج علينا نقادنا بكتب أو دراسات تبحث في نتائج الشعر الحديث وتقييمه بعد أن وطد أقدامه في الميدان واستطاع أن يثبت وجوده وينتزع حق الحياة من ناكريه.

باستثناء هذه الدراسات الأولى وبعض المقالات والدراسات القصيرة في الدوريات والصحف تعليقاً على ديوان أو مسرحية أو قصيدة. أو بعض الدراسات المتخصصة عن شعراء؛ ككتاب إحسان عباس عن بدر شاكر السياب وكتاب رجاء النقاش عن محمود درويش ودراسة أدونيس عن السياب أيضاً في مقدمة مختاراته التي جمعها له.. نقول باستثناء هذا - وهو نزر يسير - لم تستقبل المكتبة العربية وليدأً جديداً من الكتب التي تتعرض لشعرنا الحديث.

يحدث هذا في الوقت الذي يتنامى فيه شعرنا الحديث ويتفاعل - أحياناً - مع حياتنا وصراعاتنا المستمرة سياسياً واجتماعياً.. وتنبعث فيه ومنه ظواهر جديدة وتخبو فيه وتذبل ملامح فنية قديمة فقدت قدرتها على النمو.. كل هذا - مما سنشير إليه - يحدث في الشعر تراثنا العربي الأول.. والدارسون في أودية أخرى. إن الظاهرة - ظاهرة الشعر الحديث - التي أقضت المضاجع في الستينيات قد استوى عودها ويجب أن تقيم.. أم ترى كانت المعركة الضارية الساخنة التي أثار غبارها السلفيون في مواجهة حركة التجديد كانت الباعث الأول لنشاط الدارسين والنقاد لإخراج كتبهم في وجوه الردة الفكرية؟؟ إذا كان ذلك هو الباعث فما هي الرجعية الفكرية تطل

برأسها وتزحف من جحورها مرة أخرى وهى تحاول، فى السياسة والأدب والشعر، أن تعيد العجلة إلى الوراء..

ويقودنا غياب الدراسات حول شعرنا الحديث إلى ملاحظة أخرى هى أنه كما حفلت الساحة الأدبية بالدراسات التى قيمت الشعر الحديث فى مهده.. واختفت. ازدحمت الساحة الشعرية آنذاك بالكثير من الشعراء وأثرت ثراء عددياً بشعراء توقفوا الآن ولم يستكموا المسيرة وقد رحب بهم وأشاد نقاد (الوهج الأول) لشعرنا الحديث - إن جاز هذا التعبير - خاصة من تحمس منهم للواقعية الاشتراكية.. وربما كانت هذه الإشادة لتدعيم الحركة وتعضيدها ومحاولة توسيع رقعتها فى مواجهة التقليديين وجمودهم. ولعل هذه الملاحظة مدعاة لمراجعة الكتابات النقدية الأولى وتقييم شعرنا الحديث على ضوء ما قطعه بعد ذلك فى مساراته الخلاقة.



لماذا غاب النقد عن حركة الشعر الحديث.. وأعنى بالنقد هنا تقييم حركة الشعر.. لا نقد قصيدة أو التعليق على ديوان..؟

نرى - ولا نظننا مخطئين - أن هذا الحقل أصبح شائكاً.. وأنه أصبح بعيداً عن متناوليهِ الجادين الذين لا زالوا يتصفون بالأمانة.. إن كثيراً من نقادنا يهملون فى متابعة المنشور من الشعر سواء فى الدوريات أو الدواوين.. حتى أن شاعراً صديقاً رائداً ذهب إلى مكتبة ذات مساء ليشتري ما أخرجته المطابع من الدواوين خلال سبع سنوات خلت!! هكذا دفعة واحدة!! ونحن نعذرهم - وإن كان هذا لا يعفيهم من مسؤوليتهم - فى متابعة الدوريات فالمجلات الأدبية متعددة وقد اتسعت المساحة التى يركض فيها جواد الشعر الجامح.. وكثيراً ما تحجب هذه المجلات ولا تدخل الأسواق بانتظام مما يصيبهم بتكاسل وملل من المتابعة.. كما أن الدوريات بقصائدها المنشورة لا تعطى صورة واضحة عن شاعر ما وعالمه إنما تترك انطباعاً عارضاً.



يقول جبرا إبراهيم جبرا (أدينا اليوم مضطر إلى الخلق من ناحية وإلى الدفاع عما يخلق من ناحية أخرى - ولن يسعفه النقاد الأكاديميون الا فيما ندر لانهم على الاكثر متخلفون عن آرائه أو غير متعاطفين مع محاولاته..)<sup>(١)</sup>.

كما أن الناقد الجيد - على حد تعبير جبرا - (مازال نادرا وإذا وجدنا ناقدا منقطعا إلى النقد دون كتابة الشعر أو القصة فلنا أن نهنيء أنفسنا عليه ..)<sup>(٢)</sup>.

وهذا يسلمنا بالتالى إلى اتهام آخر هو انصراف الشعراء الرواد أنفسهم - والذين يملكون اقلاماً ورؤى نقدية ويمارسون كتابات تنظيرية - إلى مشاكل الريادة وتأكيد وتثبيت المقاعد فوق القمم .. التى ستكون حتما قمما تلجية فى عراء موحش ما لم يعودوا إلى حقول الابداع الفنى والنقدى فى مشاركة فعالة ودائبة لإثراء ادبنا الحديث<sup>(٣)</sup>.

كان من الطبيعى أن تقطع القصيدة العربية الحديثة هذا الشوط وكان لابد لها أن تتحرك وتتفاعل مع المناخ والطبيعة حولها لا أن تظل كالنباتات الزجاجية فيبعد أن حبت فى أول عهدها متأثرة بإزرا باوند واليوت وجارسيا لوركا الذين نجد اصداً لهم فى اشعار الرواد الاولى خرجت لتلتقى بمدارس أخرى عديدة وترددت على مختلف مراحل مسيرتها اصداً جديدة لرامبو وريلكه وبريخت وسان جون بيرس وأراجون ونيرودا. لقد تجاوزت الثقافة الانسانية الحدود القومية وتعددت الراوفاً التى تصب فى التيار القومى الكبير تعددت المدارس والنوافذ التى أطلت منها القصيدة. وخلال ذلك تأصلت فيها ملامح وغامت فيها أخرى ، وقد كانت بعض هذه التأثيرات بدعاً ما لبثت أن خبا وهجها. وقد تركت محاولات تقليدها الفجة غباراً كثيفاً حجب وجه الاصاله فى القصيدة العربية احياناً حتى أننا لنسمع مثل هذا الصوت :

(١) الرحلة الثامنة ص ١٣٩ .

(٢) الرحلة الثامنة ص ١٣٩

(٣) المعركة بين صلاح عبد الصبور وأدونيس من جهة؛ وعبد الصبور والبياتى من جهة أخرى



(لا أكتّم أحداً أنى ما زلت أعتقد أننا على أبواب عهد شعري وفني لا هوية له حتى الساعة . الآثار الشعرية تخرج عن كل تحديد لسبب اساسى هو انها لا تطرح اى مفهوم حقيقى .. واذا كانت حياتنا كلها ما تزال دون هوية فأجدر بالفن والشعر وخاصة ان يكون دون هوية ..<sup>(١)</sup>).

ولقد كان للإغراق فى التجريب والجري وراء الجديد البراق دون النبش عن الاصيل النابع من همومنا ومعاناتنا أثر عكسى ، اذ ترك القصيدة فى العراء تعاني صقيعا موحشا لا تحضنها الجماهير التى أحست بانفصال هذا النوع من التعبير عنها .. ولعل ذلك يفسر قيام الشعر الشعبى - اعنى شعر اللهجة العامة - بالالتحام مع احساس الجماهير فى فترات غياب الشعر الفصيح وامعان فرسانه فى التجريب.

وحيث نطالع البحث المشار اليه (هل واكب النقد الادبى الشعر الجديد أو الحديث - انعام الجندي) نجد فيه عرضا سريعا لمثل هذه التيارات والمحاولات التى تركت بصمات واضحة على شعرنا العربى الحديث وهى تدعونا ايضا إلى ضرورة تقييم ودراسة هذا الشعر.



قلنا إن هناك ملامح انبثقت واخرى توارت فى شعرنا الحديث . ونحن هنا فى محاولة للوقوف عندها والاشارة اليها ، ولسنا بصدد النقد وانما ندعو نقادنا إلى دراسة هذه الظواهر .. كما اسلفنا.

كانت تطالعنا فى المحاولات الاولى أصوات تتغنى بسذاجة وسطحية تسمى إلى مفهوم الواقعية فى الادب .. وكان بعض النقاد يشد على يد هذه المحاولات وان عيس لها آخرون .. كنا نقراً

اسمى محمود

لكنى أدعى بين الأصحاب أبا حنفي

(١) هل واكب النقد الادبى الشعر الجديد أو الحديث - انعام الجندي - الشعر والمجتمع مختارات من الابحاث المقدمة لمهرجان المريد الثالث ١٩٧٤ . منشورات وزارة الاعلام العراقية ٧٤.

وانا صياد ... الخ (١)

أو مثل :

وعدت مع الصيف للقريه

للقى رفاق الصبا كلهم

وتسأل امى (ماذا رأيت هنالك فى طرق القاهرة ؟؟)

فقلت لها (قد رأيت الجنود من الانكليز)

ف قالت : (نعم !!)

فقلت : (وكيف ؟؟) فقالت (كذا) وفى عينها دمهعة تضطرم ..

الخ (٢)

أو مثل

امس كانت فى انتظار

تعصف الذكرى بها قبل الرحيل

لرتيبه

وترد النوم عن جفن ثقيل

تتناعب

ثم تخطو بوعاء من خشب

وفتاة من رغيف

وبقايا من أدام

وزكييه .. (٣)

اختفت مثل هذه النغمة البسيطة والمباشرة فى الأداء واصبحت  
القصيدة تفترس مجاهل الابداع فى محاولات تركيبية . كذلك اختفت ايضا  
شفافية الغناء العذبة التى كنا نطالعها فى الدواوين الاولى للشعراء والرواد .  
لم تعد تطالعنا ..

---

(١) مجاهد عبد المنعم مجاهد - اغنيات مصرية.

(٢) عبد الرحمن الشرقاوى.

(٣) أحمد كمال زكى قصيدة أم صابر

وحين تقولين لى إرو شعرا  
فأرويه لا اتلفت خوف لقاء العيون  
فأن لقاء العيون على الشعر يفتح بابا لطير سجين  
اخاف عليه اذا صار حرا  
اخاف عليه اذا حط فوق يديك  
فأقصيته عنهما ... (١)

أو مثل :

جارتى مدت من الشرفة حبلا من نغم  
نغم قاس رتيب الضرب منزوف القرار  
نغم كالنار  
نغم يقلع من قلبى السكينه  
نغم يورق فى روى أدغالا حزينه  
بيننا يا جارتى بحر عميق ... الخ (٢).

ابتعدت القصيدة عن الذاتية واختفت الغربة الساذجة التى تطالعا فى  
النتاج الشعري الاول وملامح صدامهم مع المدينة (٣) وحلّت محلها غربة ذات  
ابعاد اعماق وجذور أرسخ .. خرجت القصيدة من اسر الوجدان الضيق  
والتجربة المحدودة الى شمول إنسانى وفنى . وتخلصت من بعض عيوبها  
الفنية التى ترددت أمامها ووقعت فيها فى خطواتها الاولى ، كمحاولة  
استلهاهم التراث بطريقة سطحية . وعرض الاسطورة شكلا دون التعرض  
لروحها .. واختفى أو كاد يختفى حرص الشعراء على حضور القافية (٤)  
ذلك الحرص الذى كنا نراه حتى عند أدونيس :

(١) مدينة بلا قلب - أحمد حجازى.

(٢) لحن - الناس فى بلادى - صلاح عبد الصبور

(٣) مدينة بلا قلب ولم يبق الا الاعتراف لحجازى

(٤) لا زال شعراء كعبد الصبور وحجازى وأمل دنقل حريصين على القافية وحضورها .

مرة ضعت فى يديك وكانت  
 شفتى قلعة تحن إلى فتح غريب وتعشق التطويقا  
 وتقدمت ، كان خصرك سلطانا  
 وكانت يداك فاتحة الجيش ، وعينك مخبا وصديقا  
 والتحمنا ، ضعنا معا ، ودخلنا  
 غابة النار - ارسم الخطوة الاولى اليها وتفتحين الطريقا (١)  
 هذه القافية وذلك الحرص الذى كان يجبر الشعراء المحدثين احيانا إلى  
 الاتكاء على انفسهم كشعراء العرب التقليديين :  
 أكان يدق صليب الحديد ؟؟  
 على رأسه

يوم كان قويا تضج الحياة بشريانه ويفوح العرق  
 لو الأرض لم تزدرده اليها أكان الحديد عليه (يدق) ؟؟ (٢)

وقد كان اصرار الشعراء على القافية له ما يبرره فى النتاج الاول اذ  
 كان هؤلاء الفرسان يواجهون مدرسة تقليدية سلفية طويلا ما اتهمتهم  
 بالقصور والعجز عن النظم فى الشعر الملقى مما جعل هؤلاء يحاولون اثبات  
 مقدرتهم وقدراتهم بل شحذ بعضهم اظافره .. فنيا .. كأحمد عبد المعطى  
 حجازى مثلا (٣) .



فى مقابل ذلك استطاعت القصيدة التركيبية أن تخرج إلى الساحة .  
 والمرحلة الاخيرة فى شعر عبد الوهاب البياتى نموذج حى لازدهارها

(١) مرآة لخالد - المسرح والمرايا - أدونيس.

(٢) الملك لك . الناس فى بلادى - صلاح عبد الصبور

(٣) راجع قصيدة أحمد عبد المعطى حجازى (إلى الاستاذ العقاد) ومطلعها

من أى بحر عصى الريح تطلبه ... أن كنت تبكى عليه نحن نكتبه . أوراس ص ٥٠ .

واكتمالها وتفوق الشاعر نفسه<sup>(١)</sup> .. ومن حيث الشكل أيضا استطاع شكل (البيت المدور) أن يتربع على صفحاتنا الأدبية في الفترة الأخيرة .. وهذا الشكل ظل مختلفيا منذ طالعنا به سعدى يوسف عام ١٩٦٤ في قصيدته (مرثية الألوكة الأربعة عشر)<sup>(٢)</sup> ثم انطلق حسب الشيخ جعفر في رباعياته الأولى والثانية والثالثة<sup>(٣)</sup> .. محاولا الخروج به وتطويره .. وقد ساد هذا الشكل الذي تسرب في القصيدة كلها كبناء إلى الساحة الشعرية حتى قرأنا لأغلب الشعراء نموذجا في الأقل منه<sup>(٤)</sup>.

كذلك اتجه بعض الشعراء إلى إدخال النثر الفني في قصائدهم .. فطالعنا نماذج من قصائد بها الكثير من الفقرات النثرية التي لا تعتمد على الإيقاع الوزني وإنما على موسيقى الاستجابة لإيقاع التجارب والحياة اليومية . وقد كانت قصيدة النثر مثار جدل احتدم من قبل واستطاعت أن تقطع شوطا عظيما على يد الماغوط في دواوينه (الفرح ليس مهنتي) و(غرفة بملايين الجدران) و(حزن في ضوء القمر) وقد كتب الماغوط أيضا مسرحيات شعرية نثرية (العصفور الأحذب) و(المهرج ..) .. ولعل هذا يدخل في نطاق التقييم لحركة الشعر.

ومن الظواهر التي انبثقت في حقل شعرنا الحديث ظاهرة الشعر الحزيراني ولعل هذا الشعر بالذات مفتاح الوصول إلى أعماق النفسية العربية وتشخيصها منذ النكسة حتى الآن .. هذا النتاج الشعري .. المزيف .. في حاجة إلى تقييم ودراسة واعية كظاهرة مستقلة وكرافد من روافد الحركة ككل .. لقد انعكست في هذا الشعر الآمال المجهضة التي تحاول أن تشرئب في أعياء. وظهرت فيه أيضا النفسية العربية بأبعادها المشروخة التي جرفها

(١) راجع دواوين (قصائد حب على بوابات العالم السبع) و(سيرة ذاتية لسارق النار) و(قمر شيران) للبياتي.

(٢) ديوان (قصائد مرثية) لسعدى يوسف. المكتبة العصرية ببيروت ١٩٦٥.

(٣) ديوان (المائر الخشبي) و(زيارة السيدة السومرية) لحسب الشيخ جعفر. وزارة الإعلام العراقية.

(٤) قصيدة (توافقات) لصالح عبد الصبور (شجر الليل) على سبيل المثال ..

الطوفان. والتي تحاول أن تثبت بالضوء الضئيل رغم الظلام الدامس في حياتها السياسية والاجتماعية والفكرية.

على أن ذلك - وإن استمر - إلا أن ظاهرة أخرى انبثقت أيضاً من أرض المساء.. وربما كانت الوجه الآخر للعملة. ففي بطولة وشجاعة أطل علينا الوجه الأخضر للمقاومة الفلسطينية بعد صمت المدافع على الجبهات العربية في حزيران ١٩٦٧. أطل علينا يرسم بالدم وجهاً جديداً من أوجه النضال العربي ممزقاً رتبة الصمت مبدداً الذهول السائد الذي اعترانا بصدمة النكسة. خرج علينا ذلك الوجه الأخضر الدامي ليؤكد إصرار المقاومة الفلسطينية على أداء رسالتها وحمل مشعل الكفاح المسلح - ريثما تلتقط الجبهات العربية أنفاسها - ليؤكد أيضاً تصميم هذا الشعب الذي تحول في مصنع الدم من لاجئ ينتظر حنان وكالة الغوث إلى مقاتل يحفر بوجهه الجديد لوحة الصمود على جدار الغد.

اضطلعت المقاومة - بجدارة - بهذا الدور البطولي طوال سنوات مريرة قاسية.. وكما كان النضال المسلح للشعب الفلسطيني رافداً من روافد النضال العربي بوجه عام، انبثق شعر المقاومة الفلسطينية يواكب هذا التاريخ الدموي لهذا الشعب فكان أيضاً رافداً ثرا معطاء من روافد أدبنا العربي الحديث وخرج إلى الساحة محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران.. ليفاجئوا العالم.. والشعر بحقيقة جديدة.

ألا يستحق هذا الشعر - في الإطار العام لحركة الشعر الحديث وضمنها - تقدماً جديداً - نحن نعرف أن هذا الشعر بالذات - شعر المقاومة - حظى بالكثير من الالتفات والنقد. ولكن نحن ندعو إلى الدراسات الجديدة لشعرنا الحديث التي تقيمه بعد أن اتسعت رقعة وتشعبت روافده.



نصل إلى أقوى هذه الملامح رسوخاً وأشدّها صلابة وأصالة.. ازدهار وانطلاق المسرح الشعري بعد محاولات عبد الرحمن الشرقاوى.. وهذا الملمح

فارسه الأول ويكاد يصبح رائده.. صلاح عبد الصبور الذى قدم لنا (مأساة الحلاج) (الأميرة تنتظر)، (مسافر ليل)، (ليلى والمجنون)، (بعد أن يموت الملك) يطلق صلاح عبد الصبور كلمته (إن الشعر هو صاحب الحق الوحيد فى المسرح)<sup>(١)</sup> وقد رأى صلاح عبد الصبور أن خلاص الشعر من الجمود شكلاً ومضموناً فى اتجاهه إلى المسرح.. نبعه الأصلي .. والخروج من الغنائية إلى الدراما خاصة بعد أن كادت براءة الشعر الحديث تستهلك وسقط فى التكرار وتشابه القواميس... وبذلك يأتى المسرح وكأنه (المخرج الوحيد) وذلك ليتجاوز هؤلاء الشعراء ذواتهم إلى خلق ذوات أخرى تتميز بأبعادها وغناها وثراء وشخصياتها<sup>(٢)</sup>.

وخرج الحلاج عند صلاح عبد الصبور (مأساة الحلاج) والحسين عند الشرقاوى (ثأر الله) وعلى بن محمد عند معين بسيسو (ثورة الزنج) و(حمزة العرب) عند أبى سنة، و(الفلاح الفصيح) عند محمد مهران السيد (حكاية من وادى الملح) خرج هؤلاء جميعاً فى إطار المسرح الشعرى يعبرون عن قضايا إنسانية واجتماعية معاصرة.. وكانت خطوة واسعة للشعر الحديث.. بل لم يعد التراث أو الأسطورة هو الزاد الأول للمسرح الشعرى.. إن صلاح عبد الصبور يخرج إلى الواقع الحياتى المعاصر ويطالعنا به فى (مسافر ليل) و(ليلى والمجنون).. دون الرجوع إلى التراث من حيث الاعتماد عليه كلية كهيكل للنسيج المسرحى تنبثق منه الموازنة والإسقاط.



يقول أدونيس (الشكل الشعرى حركة وتغير. ولادة مستمرة. الشكل الشعرى الحى هو الذى يظل فى تشكل دائم)<sup>(٣)</sup>.

وتعج الساحة الشعرية الآن بالكثير من القصائد التى تندرج تحت قول المعرى (أسمع جعجعة ولا أرى طحناً).. قصائد نقرأها فنجدها (علاوة على

(١) حياتى فى الشعر.

(٢) وتبقى الكلمة ص ٧. دار الآداب.

(٣) مقدمة للشعر العربى ص ١١٠، دار العودة.

الملاحم الأدونيسية) لا تترك فينا أثراً كلياً (وأنا لا أطلب أن يكون الشعر كالطحين يُغل ربحاً مادياً) ولكن حتى الإحساس الجمالى نفقده... ولا يعلق بأذهاننا منها إلا بعض السطور أو التعبيرات. أما القصيدة نفسها غائمة الملاحم لا تجد لها رأساً ولا ذيلاً (القصيدة عند أدونيس، أو عفيفى مطر غير ذلك تماماً ولكن هؤلاء الشعراء الجدد لا يملكون رؤية أدونيس ولا ثقافته ولا وعيه الحضارى ولا أدواته الفنية..) وهم أثناء الخلق الفنى لا يصدرون عن أنفسهم إنما تسيطر عليهم الرغبة الملحة فى الكشف (والكشف مطلوب وعظيم ولكن ليست كل قصيدة كشفاً. أو ليس من الضرورى أن تحمل كل قصيدة اكتشافاً جديداً - على حد قول أدونيس نفسه -) وإلا كثر العباقرة وتعدّدوا بعدد سطورهم الشعرية واحتكرنا (نوبل) للشعر!!.

نقول هذا ونحن ننظر إلى القصيدة العربية وقد وقفت - كما أسلفنا - علي مفترق طرق عديدة.. وأصابها الكثير من البدع والغموض.. إن أدونيس يصيح: (الصعوبة الأساسية التى نواجهها في الشعر العربى الجديد هو أن علينا أن نحدده بالانسجام مع تراثنا والاختلاف عنه فى آن) <sup>(١)</sup> ولا شك أن قضية الأصالة والمعاصرة إحدى القضايا الملحة على ساحة الثقافة العربية فى هذه الفترة الحرجة من تاريخنا، وستظل هذه القضية شاغلاً للدارسين والباحثين، ومثار مناقشات وأطروحات عديدة مختلفة المناهج والرؤى، والاهتمام بالتراث كمظهر وملح أول من ملاحم الحفاظ على الأصالة وترسيخ الجذور وتعميقها يظل هماً فكرياً ملحاً..

وبعض الشعراء الذين استهواهم هذا النوع من الخلق الشعرى كسول جداً لا يقرأ شعرنا العربى الحديث منذ ثلاثين عاماً على الأكثر.. يجمع دواوين عبد الصبور وحجازى وأمل وأبى سنة من مصر؛ وأدونيس ويوسف الخال وأنسى الحاج من لبنان والسياب والبياتى ونازك ويلند من العراق، ويعتبر هذا الشعر هو المنبع الوحيد لثقافة الشاعر والتراث بل أن بعضاً منهم فى الآونة الأخيرة؛ يرفض هؤلاء جميعاً ويطردهم من فردوس الشعر!!

(١) مقدمة للشعر العربى ص ٩٩، دار العودة.



قليل منهم من يغوص وراء قصائد المتنبي وأبى العلاء أو طرفة ويشار وأبى نواس.. ويلتقطون من قصائد أدونيس أسماء النفري وغيلان ومهيار(بالطبع هذا لا يرضاه أدونيس ولم يقل به فى كتاباته التنظيرية بل أننا نجد أدونيس يضع لهؤلاء (ديوان الشعر العربى) مجتهداً أن يوفر لهم نماذج جيدة قدر الإمكان.. هامساً فى أذانهم:

(لست أطالب - هنا - بضرورة الخروج كلياً عن الماضى. فمثل هذا الخروج مستحيل لأنه خروج من التاريخ.. فنحن لا نبدع المستقبل إلا فى لحظة تتصل جوهرياً بالأمس والغد.. وإذا حاد الآن عن الأمس فلغرض واحد: أن يتجه نحو المستقبل..)<sup>(١)</sup>.

ويبحثاً وجرياً وراء المعاصرة المزعومة والمفهومة خطأ فقد الشعر العربى الحديث كثيراً من أصالته. إن ما يقلق الآن أن الشعر - كما هو معروف - (أعمق انهماكات الإنسان وأكثرها أصالة بما أنه أكثرها براعة وفطرية وغوصاً فى دخائل النفس) كيف نعيد إليه براعته المفقودة فى زحام الإبتداع السائد؟؟

ولعل هذا ما جعل الشاعر صلاح عبد الصبور - وله العذر - فى قلق دائم حداً به إلى مهاجمة أدونيس وتأثيره على الشعراء الشباب فى أكثر من حديث صحفى.. ونحن نرى بهما عن المتاهات النقدية اللاذعة والشخصية.. وندعوهم إلى دراسة ونقد الظواهر الشعرية الحديثة.. إننا مثلاً قد أصبنا بالشيزفرانيا على مستوى الشخصية الشعرية.. فلا يوجد عندنا الشعر - الشاعر، أو القصيدة - الحياة .. التطابق الحقيقى الذى يخلق فىنا شعراء كأراجون ونيرودا ولوركا وناظم حكمت.. لا التقليد الذى يخرج لنا أمساخاً تعرج على الطريق.. ولعل ذلك ما يجعل شعراء منا يموتون وهم أحياء فى

(١) مقدمة مختارات بئر شاكر السياب ص ٧، دار الآداب.

سن الأربعين وبعد المجموعة الثانية فى الأكثر من إنتاجهم الشعرى!!

إن همومنا الفكرية كثيرة وثقيلة..

ونزيفنا حاد ومرهق.. وما أحوج الشعر الحديث.. ذلك الإنجاز الهائل  
والضخم فى ثقافتنا العربية المعاصرة.. ما أحوجه إلى النقد والدراسة  
والترشيد. خاصة أن هناك من يتربصون بحصان الشعر ويتخذون من  
جماحه ذريعة ومدخلاً إلى كبج هذا الفن.. وربما وأده !!



---

**ليس نقداً .. ولكن !**



## وما كان بينى لو لقيتك سالماً وبين الغنى الأليالِ قلائلُ

فى انكسار وأسف ترنم بها الحطينة حين بلغه نبأ وفاة علقمة بن علاثة وكان فى الطرق إلى لقائه. ولو قدر للناقد المصرى المرحوم مصطفى عبد اللطيف السحرى أن يطلع على مقال أستاذنا الدكتور على جواد الطاهر بجريدة الجمهورية عدد الثلاثاء ١٩٨٥/١/٨ ربما أنعشه ما جاء فيه من تقدير ووفاء كان الرجل أحوج ما يكون إليهما . وقد انكرت جهوده حياة أدبية عابثة، سادها ارتجال وجحود. فأنطوى على نفسه منسحباً . ليموت فى صمت منذ عامين دون أن يشعر به أحد .

لو قرأ المرحوم السحرى هذا المقال ربما رد إليه بعض أعتباره المهضوم فى السنوات الأخيرة ، حيث أصبح وحيداً تصحبه ابنة له وقد وهن منه العظم وثقلت حركته لتردد به على بعض المجلات الأدبية لصرف مكافأة ما تسد الرمق، أو للقاء صديق قديم جده بعد أن اقتعد مكتباً وثيراً. أشهد أن السحرى الناقد طالما أشاد به فى أمسيات (رابطة الأدب الحديث) حين دبّت بنا خطواتنا صغاراً على طريق الأدب فى أواخر الستينات .

وقد كان حتماً أن الهج بالشكر والعرفان بالجميل لأستاذنا الدكتور على جواد الطاهر على هذه الروح العلمية وتلك النبالة التى ندرت فى زمننا

الأخير، قبل أن أعرض لمقالة الشائق وعرضه الأخاذ لكتاب (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) للمرحوم الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي.

في مقال الدكتور على جواد الطاهر وردت عبارات استوقفتني ورأيت أن أقف عند بعضها للتوضيح، وأعرض لبعضها للتوضيح، وأعرض لبعضها الآخر لدفع التباس أو شبهة قد تتسلل بين السطور فالدكتور على جواد الطاهر يقول في معرض ثنائه المشكور على جهد مصطفى السحرتي الناقد.

«ولكن الدلالة الكبيرة المحيرة تلك الأسماء الأخرى التي تكاد تكون غير معروفة حتى في أقطارها، كيف وصلت إليه؟ وكيف ألف دواوينها وقصائدها» ويقول «والقائمة تطول.. وفي الكتاب فهرس للإعلام يجد فيه القارئ من هم أقل شهرة ..» .

إن ملاحظه، الدكتور على جواد الطاهر من احتفال السحرتي الناقد بمن هم (أقل شهرة) ووجود أسماء (تكاد تكون غير معروفة) بالكتاب، أمر طبيعي واعتيادي. إن هذه الأسماء تبدو غير معروفة الآن، أو على قدر يسير من الشهرة، وهي التي كانت تشغل القارئ بممارساتها الإبداعية منذ خمسة وثلاثين عاماً أو أكثر وقت صدور الكتاب في طبعته الأولى، وقد كان نتاجها الأدبي يحظى بتكريم (الرسالة) و (الهلال) وغيرها من المجلات التي كانت تفسح صفحاتها للأدب والشعر، وقد ازدهمت الحركة الثقافية دوماً - في كل مرحلة من مراحلها خاصة مراحل المخاض بشكل أدبي جديد، أو محاولات التطور والتحديث لفن ما - بأسماء كثيرة بعضها يلعب دوراً فاعلاً مؤثراً، وبعضها يحاول أن يثبت أقدامه في المعترك أو يجد مكاناً له في الساحة.

ولا تتسع ذاكرة التاريخ الأدبي، إلا لأسماء بعينها دون الأخرى التي أصبحت تدمج ضمن (الأقل شهرة) أو (لاتكاد تكون معروفة) وحركة الشعر الحديث في العراق ومصر على سبيل المثال أسسها وواكبها ورسخ أقدامها مبدعون تزامت مناكبهم بإبداعهم المبكر ولم يحفظ النقد غير أسماء السياب

ونازك، ولم يتردد في مصر إلا عبد الصبور وحجازى.. ونحن نقرأ للدكتور عز الدين إسماعيل كتابه عن (الشعر العربي المعاصر) الصادر في أوائل الستينيات نفاجاً بأسماء يستشهد الناقد بإبداعها.. وتبحث عنها الآن - على قرب العهد - فإذا هي أثر بعد عين.. ولكنها كانت تملأ الدنيا ضجيجاً آنذاك!!..

وللسحرتى الناقد فضل عميم في إثبات جهد هؤلاء. ونحن لا نقلل من قيمة هذا الفضل. إنما نعقب على ملاحظة الدكتور الطاهر بأن اهتمام السحرتى برعاية (رابطة الأدب الحديث) منذ أكثر من خمسين عاماً جعله يهتم بالأدباء الشباب آنذاك ويتابع إبداعهم. ولكن العبرة ليست في هذا الحشد الهائل من المبدعين إنما في السؤال والبحث عن انجازاتهم الفنية التي عكسها إبداعهم حين رصده الناقد..

ويتحدث الدكتور على جواد الطاهر عن نزاهة السحرتى وشجاعته فيقول: «وها هو ذا يتقدم لموضوع يعد شائكا جداً في مصر.. نقد الشعر في مصر.. وهو شائك لأنه متصل بحرمان مهمة وشخصيات متنفذة وكتب خطيرة. كان البارزون فيها متطرفين لدرجة الوقوع في دائرة الخطأ وألف الناس الحديث المنحاز إليهم..»

ثم يسرد الدكتور معارك (الديوان) و (على السفود) وغيرها. والذي يعيننا هنا هذه الكلمات: (ها هو ذا يتقدم لموضع يعد شائكا جداً في مصر!! نقد الشعر في مصر!! وهو شائك لأنه متصل بحرمان مهمة وشخصيات متنفذة!!) فقد يلتبس الأمر على قارئ هذه العبارات فيظن أن نقد الشعر في مصر ضرب من الجهاد.. الذي يجرى في الساحة الثقافية في مصر كان ومايزال جزءاً مما يجرى على الساحة الأدبية والثقافية العربية ككل لا يتجزأ.. ونقد الشعر قد يكون معركة.. ولكنها أدبية وفي مجال الفكر.. وقد يتحامل العقاد على شوقي فيهبط بشعره إلى قاع الحضيض.. وقد يتطرف فينفى وجود (الشعر في مصر) كما هو وارد في مقالاته السبع من كتابه (ساعات بين الكتب) نكاية في شوقي.. وقد يتهم ويتندر بقصيدته (مرحباً

بالربيع فى ريعانه) فى أقسى وأبشع نقد مغرض.. وقد يفعل الرافعى مثل ذلك فى العقاد.. وقد يتندر العقاد بطله حسين .. ويتجنى هذا على ذاك ويتطرف كل فى موقفه.. ولكن يبقى بعد ذلك كله جوهر الاعتداد بالفكر واحترام الموقف ونبل الخصومة.. هذا الذى يتمثل - على سبيل المثال - فى موقف العقاد من أزمة كتاب (الشعر الجاهلى) لطله حسين وهو موقف غنى عن التعريف .

إذن فالخصومة فى الرأى واردة فى معركة الفكر، والتشدد والتطرف واردان أيضاً، وإلا كيف نفسر فى تراثنا الأدبى والنقدى تحامل النقاد على أبى تمام وتعصبهم للبحثرى أو العكس.. مما أثرى الحركة الفكرية بكتب ومؤلفات كـ(أخبار أبى تمام) للصولى و(الموازنة) للامدى.. إن تحامل النقاد على المتنبى جعل النقاد والقراء معاً يعكفون عليه ويهيمون به ولم يؤثر هذا التحامل أو هذا التطرف إلا تأثيراً إيجابياً تمثل فى العديد من الدراسات، حتى تحول المتنبى إلى ظاهرة إبداعية عربية.. فالخصومة تفنى ولا يبقى سوى جوهر الفكر .

أما عن (الحرمان المهمة والشخصيات المتنفة) فإن العقاد تناول شوقى بتطرف وسخرية ولم يدفع هذا (شوقياً) إلى أن يناله بأذى وهو شخصية متنفة!! وهذا النفوذ فى جوهره هو نفوذ المعرفة .. وليس نفوذ الجاه والسلطان. وكما يقول ميشال فوكو (إن ممارسة المعرفة تنتج بالضرورة نوعاً من السلطة. وأوضح مثال على ذلك النوع وأقلها خطراً هو أستاذ الجامعة الذى يجيز الطلاب أو لا يجيزهم.. وفى هذا النوع من السلطة يتساوى طه حسين الوزير مع شوقى الأمير مع العقاد الفقير. ولا يحتكمون سوى للذوق الثقافى الذى يجيز ويرفض.. ولا يتبقى سوى تراث كامل من الممارسات الإبداعية والفكرية ينبض بروح عصر ووجدان مبدعين. ولعل ثلاثة الأثافى - كما يقولون - هذه الفقرة التى وددت لو لم أقف عندها، ولم يكتبها الدكتور الناقد أصلاً، يقول:



«هذه العناية الخاصة بشعراء العربية خارج مصر. كثيرة جداً على أديب مصرى وقد عهدنا اخواننا المصريين (عموما) لا يعرفون شيئاً يذكر خارج قطرهم ولعلهم لم يكونوا يريدون أن يعرفوا. اكتفاء ذاتيا. وشغلا بالذى هم فيه. وعلى الأقطار الأخرى أن تستهلك ما ينتجه غيرها..»  
يأتى بعد ذلك قول الدكتور الناقد:

«والمسألة ليست مسألة المصريين وغير المصريين، وإنما مسألة الأفق الواسع والذمة والضمير والمنهج والنفس السمحة».

وهنا نتخرج من مناقشة هذه المسألة فقد القى الأستاذ الدكتور بالكرة الملتهبة بين أصابعى.. ولكن لا حرج.. ويعيداً عن حساسية الإقليمية تبقى مصر قطعة نابضة من هذا الوطن العربى الكبير. ومن هذا المنطلق اضع بين يدى الدكتور على جواد الطاهر هذا العتاب.. ولن اطيل.. وأنا حين أكتب هذه السطور احمل فوق رأسى إكليلا من الزهو بمصريتى.. انثره تحت اقدام هذه الأمة الأم، وانتمائى الأكبر إلى تراثها.

ان الإهتمام المصرى بالإبداع العربى جد قديم. وقد عاشت عليه وشرفت وارتفعت به مجالات كالرسالة والهلال والمقتطف وغيرها. وقد تناول النقد هذا الإبداع متابعة وتقويما. وليس هناك مجال لسرد الأمثلة فهى أشهر من أن تحصى والدكتور بها أعلم. كما أن المساجلات النقدية تبودلت على صفحات الدوريات المصرية والعراقية بين مبدعين ونقاد ومفكرين أجلاء منذ العشرينات من هذا القرن بما يؤكد التواصل. وإذا كان الشابى العربى التونسى يبدأ محاولة للنشر بالقاهرة فى أوائل الثلاثينات. فإن المرحوم السياب يكرر المحاولة فى الخمسينيات. قبلهما - ولم يكن القرن تجاوز سنواته العشر الأولى - ينشر إيليا أبو ماضى ديوانه (تذكارات الماضى) فى الإسكندرية؛ وينشر نزار قبانى أولى مجموعات الشعرية (قالت لى السمراء) عام ١٩٤٤ بالقاهرة. نحن هنا نقفز بالاستشهاد لا نتقصى أو نثبت. وعن مواكبة النقد الفالقارىء - مثلا - لكتاب الدكتور عز الدين إسماعيل عن

الشعر العربى المعاصر يرى فيه الماما كافيا بالكثير من الشعراء العرب الذين اتخذهم الناقد مجالا للاستشهاد بإبداعهم. وهذا، وغيره كثير يدحض الحكم الوارد فى المقال بـ (يستحيل ان تجد ناقدا عربيا معاصرا احاط احاطة السحرتى بالشعر العربى) بعيدا عن وقوع الحكم النقدى فى الاطلاق والتعميم. كما أن ما كتب عن البيانى فى مصر كثير بحيث قام بنشره فى كتاب مستقبل.. كما أسهم نقاد مصريون فى الكتابة عن الرواية والقصة فى المغرب العربى كالدكتور سيد حامد النساج، وأصدر عبده بدوى وعز الدين إسماعيل - مرة أخرى - كتابين عن الشعر فى السودان ونظنه قطراً عربياً شقيقاً!! ولن نذهب بعيدا .. فالدكتور لويس عوض - على اغراقه وتعصبه لمصريته - كتب ثلاث مقالات عن المرحوم السياب: البركان الذى خمد/ الشعر والسياسة/ شناسيل معبد الألقان؛ نشرها بالأهرام وضمنهما كتابه (الثورة والأدب) ولم يمنعه تعصبه من أن يعترف للسياب بالفضل والسبق ويقر له بالتفوق الشعرى ..

هذا كله نزر يسير .. وهو لا يعطى لمصر أفضلية - فى اعتقادى - إلا بقدر ما يضع على عاتقها من مسؤولية إزاء عقل هذه الأمة ووجدانها .  
على أننا ونحن نتوجه للدكتور جواد الطاهر بهذا العتاب . نلتمس له العذر اذ تبدو حلقة مفقودة فى السياق التاريخى والإشارة إليها تصحح الرؤية .

ذلك أن الدكتور لم يلاحظ أثر التحولات السياسية والتغيرات التى طرأت على أقطارنا العربية . وعلى مصر بالذات قبل ان يصدر حكمه بـ «تجاهل المصريين لمواكبة الإبداع غير المصرى..» فالحركة الثقافية العربية منذ العشرينات وحتى الخمسينات تتفاعل بحرارة وعمق فى القاهرة وبغداد. ولم تكن الخارطة قد اتسعت بعد . وكان الإبداع الأدبى والفكرى يصب فى القاهرة وتتلقفه المطابع وتتناوله الأقلام نقدا ومتابعة ومن هنا كان دور القاهرة بارزا ومؤثرا. ففى الستينيات ازدهرت القاهرة إبداعا. ولكن

الخلافات بين الأنظمة العربية قلصت الدور الفكرى المتواصل ونتيجة لذلك استقلت القاهرة بإبداعها الذى مثل إشعاعا قويا صدرته - رغم ذلك - مسرحا وكتابا إلى الوطن العربى. ثم كانت بيروت فى أواخر الخمسينيات برزت لتقوم بدور الناشر نيابة عن القاهرة ...

واستقل الوطن العربى كل قطر بمجلاته وصحف الأدبية وتعددت المنابر وجاءت السبعينيات بما أثقل كاهل مصر فأنعزلت سياسيا وانغلقت فكريا .. فلم تعد تقوم بدورها المعهود ..

اذن ليست المسألة بهذه البساطة التى يقول فيها الأستاذ الدكتور :

«حتى الأسماء المشهورة ليست بالأمر اليسير يرد على لسان أديب مصرى...» !! ولنا أن نسأل الدكتور عن الأسماء التى أوردها فى مقاله نقلا عن كتاب الناقد المصرى السحرتى - وهى أسماء مغمورة - أين نشرت تلك القائمة من الأسماء إبداعها؟ ونجيب : أكثرهم وجد فرصته فى الصفحات القاهرية وهى مصادر السحرتى نفسه فى دراسته التى اعترف لها الدكتور الطاهر بالفضل ..





---

**الجندي الإسرائيلي:  
ملاح نفسية  
في مرآة  
محمود درويش**

---



فى بطولة وشجاعة إنطلقت حركة المقاومة الفلسطينية بكفاحها المسلح  
لتحمل راية الصمود بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ وصمت المدافع على الجبهات  
العربية لتؤكد إصرار الإنسان العربى وصموده فى مواجهة العدوان.  
ولتواجه العالم من خلال البنادق برفضها الهزيمة مؤكدة مسيرة النضال  
العربى حريصة على القيام بأعباء دورها المحتوم فى مواجهة خرافة التفوق  
الإسرائيلى.

وقد اضطلعت المقاومة بهذا الدور البطولى لسنوات قاسية رغم ما  
تعرضت له من مؤامرات ومطاردات. وثابرت وصبرت فى استبسال منقطع  
النظير حتى التقت الساحة العربية أنفاسها وعادت تعيد ترتيب أوراقها من  
جديد.

وليس غريبا أن ينطلق شعر المقاومة الفلسطينية معبرا عن هذه  
الانتفاضة مواكبا لها .. إن الباحث الأدبى المعاصر لن يفوته أن هذا الشعر  
أكد تعانق الكلمة والمدفع.. وكما عمدت الأرض بالدم استطاع الشعر أن  
يبارك البندقية.. ويسهم معها إلى حد كبير ومؤثر فى المعركة المصيرية .  
وتسللت إلينا قصائد درويش والقاسم فى البداية نزيفا هامسا ذابجا .. ثم  
انبجس الدم وترقرق نهر اللهب دواوين وقصائد لافحة.. تنقل لنا فى  
شجاعة وصدق ما يدور خلف الستار الحديدى الذى سيجناه برفضنا  
وجهلنا بما يدور داخله . ويعين الشاعر وبصيرة الفنان استطلاع هؤلاء

الشعراء أن يقودوا القارئ العربي إلى داخل المجتمع الإسرائيلي ويكشفوا القناع المهترئ عن وجهه المخادع المجهول .

وكما كانت حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة رافدا دافقا من روافد النضال العربي الكبير . صارت الحركة الشعرية في الأرض المحتلة إمتدادا نابضا بالفن لحركة الشعر العربي المعاصر . واستطاعت القصيدة عند محمود درويش والقاسم وزباد أن تدفع في عروق قصيدة الشعر الحديث بدم دافئ جديد هي في أشد الحاجة إليه بعد محاولات جيل الرواد .



وهذه محاولة لقراءة قصيدتين من قصائد محمود درويش . وهو خمس كلتيهما يرسم صورة فنية صادقة للماح نفسية وإنسانية لأحد الجنود الإسرائيليين. وحين نصحب الشاعر في رحلته الكشفية ونفرغ من قراءة القصيدتين نستطيع أن نعرف الكثير والمفيد عن هذا الجندي المهاجر الذي انتمى إلى عالم (الجريمة التي تحمل نشيدا وجواز سفر) على حد تعبير محمود درويش في (يوميات الحزن العادي) .

وكلتا القصيدتين ليست من شعره الجديد . إنما هما قديمتان فالأولى ترجع بنا إلى ديوانه الثالث - إذا أغفلنا ديوانه (عصافير بلا أجنحة) - ديوان (آخر الليل) وهي قصيدة (جندي يحلم بالزنابق البيضاء) والقصيدة الأخرى هي (الكتابة على ضوء البندقية) وهي من ديوانه المسمى باسمها والصادر عن دار العودة في ١٩٧٠ .

وفي القصيدة الأولى (جندي يحلم بالزنابق البيضاء) يدير الشاعر (ريبورتاج) تقريرى مع الجندي الذي قد علموه أن يحب الأرض .. و .. كل ما يربطه بالأرض من أواصر:

### مقالة « نارية » أو محاضرة ..

ان هذا الجندي الذي خطفت عينيه أضواء الدعاية الصهيونية فهوى نحو الوهج كالفراشة لا يعرف الأرض ولا يحس أنها جلده ونخبه ( مثلما يقال في القصائد) وهو مدمر من الداخل لا يعرف وسيلة للحب سوى



البندقية؛ وأمنيته التي يحفرها تحت جلده صوت أمه (لو يكبر الحمام في  
وزارة الدفاع .. لو يكبر الحمام !!) أنه يحلم بالزنابق البيضاء .

أريد قلباً طيباً لاحتشوا بندقية  
أريد يوماً مشمساً لا لحظة انتصار  
مجنونة فاشية ..

أريد طفلاً باسماء يضحك للنهار  
لا قطعة في الآلة الحربية

ثم صرخ بعد أن فتح عينيه على هول الواقع في أرض الميعاد!!  
جئت لأحيا مطلع الشمس .. لا مغربها ..  
واننى أرفض أن أموت..

أن أحارب النساء والصغار

لأثرياء النفط والمصانع الحربية ..

والقصيدة قديمة وسبق أن وقف عندها النقاد طويلاً خاصة بعد أن لفت  
النظر إليها حديث الأستاذ يوسف الخطيب في مقدمة (ديوان الوطن المحتل)  
إلا أننا نرى رأى الأستاذ الناقد رجاء النقاش فيها حيث يقول في كتابه القيم  
(محمود درويش - شاعر الأرض المحتلة) ص ٢٣٣:

(ورغم قيمة اعتراض يوسف الخطيب وذكرائه فإننى لا أوافق عليه.  
فالنزعة الإنسانية التي يعبر عنها محمود درويش في شعرة تبرر مثل هذه  
القصيدة وتجعل منها عملاً فنياً وفكرياً ممتازاً .. وموقف محمود درويش  
هذا يناقض تماماً الموقف النازي والموقف الصهيوني .. أنه موقف عربي  
إنساني يريد القضاء على الظلم والعدوان ولا يريد أن يخوض في دماء  
اليهود كبشر أو كأصحاب ديانة ..... وفي قصيدة محمود درويش إلى جانب  
ما نكشفه من عناصر إنسانية في شخصية الجندي الإسرائيلي كشف  
للتشويه الذي أصاب هذه العناصر الإنسانية وأخفاها .. وحول هذا الإنسان

اليهودى البسيط الفلاح إلى سفاح .. ان هذا الجندى كان من الممكن أن يصبح زوجاً وأباً طيباً وعاملاً من العمال المنتجين ولكن الصهيونية حولته إلى مجرم وقتل وعدو من أعداء الإنسان والحياة...

ونحن نرى أن هذه القصيدة رغم جودتها ليست ناضجة فنياً لأنها اعتمدت أسلوباً تقريرياً خبرياً حتى أن الصور الشعرية التي تتخللها فقيرة بالقياس إلى القصيدة الأخرى التي بين يدينا (الكتاب على ضوء البندقية) وهى تتعرض للموضوع نفسه إلا أن الزوايا التي ينظر منها الشاعر إلى لوحاته كانت هنا أكثر وضوحاً وأدفاً نبضاً وأشد حدة وتأثيراً..

نستطيع أن نلمح (شوليت) فى مدخل البار تنتظر صديقها الذى أرسل لها من جبهة سيناء مكتوبة الصارخ:

«لقد أحرزت يا شولا وساما وأجازة

أحجزى مقعدنا السابق فى البار،

أنا عطشان يا شولا لكأسٍ وشفه

قد تنازلت عن الموت الذى يورثنى المجد،

لكى أهبو كطفلٍ فوق رمل الأرصفة

ولكى أرقص فى البار...»

نستطيع أن نمد أعناقنا فنلمح خلفها..

ألف اعلان يقول:

نحن لن نخرج من خارطة الأجداد..

لن نترك شبراً واحداً للاجئين.

حين يستوقفها «الحارس الأحمق» فى مدخل البار.. ويفتح حقيبة يدها،  
(ونحن هنا لايفوتنا أن ندرك مدى الذعر الذين ينتاب هذا المجتمع مما يجعله  
يفتش الحقائب والملابس) حين يستوقفها الحارس يصحبنا الشاعر إلى  
داخل الجرذان (حقيبة اليد):

## مرآة ومشط وصور

وتواقيع لكى يصبح (ديان) رئيسا للحكومة..

جزئيات كثيرة ومشعة ينقلبها لنا الشاعر بدقة وصدق فى هذه القصيدة.. وهو لا يتحدث عنها وإنما يرصدها فى القصيدة كالكاميرا ويتركها باشعاعها الموحى..

وعلى لائحة الإعلان يحتد وزير الأمن:

والفدائيون مجتثون منذ الآن

لن يخمش جندى ومن مات على تربة هذا الوطن الغالى

له الرحمة والمجد ورايات الوطن..

ونترك (شوليت) فى مدخل البار.. ونعود إلى الجندى.. صديقها.. فى محاولته الأولى لسبرغور هذا الجندى... جاءت قصيدة (جندى يحلم بالزنابق البيضاء) طرية العود.. ولعلها تبلورت فى شكل درامى أخاذ فى هذه القصيدة التى بين أيدينا.. فالجندى هناك يسأله الشاعر:

- وكم قتلت؟؟

- يصعب أن أعدهم

لكننى نلت وساما واحدا

سألته: - حزننت؟؟

أجابنى مقاطعاً: -

يا صاحبى محمود

الحزن طير أبيض

لا يقرب الميدان.. والجنود

يرتكبون الإثم حين يحزنون..

هذا الجندى نراه فى القصيدة الثانية يصيح فى وعى تام بما حاق به:

أنا المقتول والقاتل لكن الجريدة

وطقوس الإحتفال

تقتضى أن أسجن الكذبة فى الصدر وفى عينيك يا شولا..

وأن أمسح رشاشى بمسحوق عقيدة

أغمضى عينيك لن أقوى على رؤية عشرين ضحية

فيهما تستيقظ الآن.. وقد كنت بعيدة

أنه يحاول أن يهرب من ماضيه وحاضره، وهو هنا لا يشعر بالحزن فقط وإنما يرى نفسه قتيلاً أيضاً إلى جوار ضحاياه العشرين..

وهذه القصيدة وان كانت استاتيكية اللحظة واللغة (الانتظار)، فإنها تتنامى درامياً من خلال ديناميكية التداعى بالخواطر والتذكر وتشابك الأحداث والصور فى ذهن الفتاة المنتظرة (شوليت) فالشاعر يصحبنا من خلال ذكرياتها إلى علاقتها بكل من سيمون ومحمود (ولعله الشاعر نفسه..). ويرى لنا كيف استطاع محمود أن يتسلل بقضيته إلى أحاسيسها لولا دخوله السجن وظهور سيمون فى حياتها.. وهو يكشف بذلك عن العقيدة الوامية لمجتمع غاصب قلق متوتر يمكن التأثير على أفكاره وهزيمته حججه باتزان وعقل:

كان محمود صديقاً طيب القلب، خجولاً كان، لا يطلب منها

غير أن تفهم أن اللاجئ

أمة تشعر بالبرد وبالشوق إلى أرض سليبية

وحبيباً صار فيما بعد.. لكن الشبابيك التى يفتحها فى آخر الليل رهيبة

كان لا يغضبها لكنه كان يقول

كلمات توقع المنطق فى الفخ اذا سرت إلى آخرها

## ضقت ذرعا بالأساطير التي تعبدها وتمزقت حياء من نواطير الحقول

ونستطيع أن نسمى هذه القصيدة بالقصيدة السينمائية فهي إلى جانب استخدامها لما يسمى في تكنيك السينما ( الفلاش باك ) تلتقط بمهارة صور الشارع الإسرائيلي وتهتم بالمكان والزمان (مدخل البار- والشارع - والتركيز على ساعة الحائط) ولوحة الإعلان ومحتويات حقيبة اليد ورقص الفتيات بحيث تنقل لنا في خطين متوازيين أحيانا متقاطعين بحده أحيانا أخرى نفسية الفتاة والصور التي تعتمل فيها والأحاسيس التي تنهشها من الداخل لتتفاعل مع الخط الثاني في خارجها أو المكان المحيط بها من الخارج فهي بذلك أقرب إلى ما يمكن أن نسميه بـ (السيناريو الشعري).

والقصيدة تتنامى دراميا من لحظة الإنتظار المشبوب بالأمل:

احجزى مقعدنا السابق في البار....

حتى تبلغ في نهايتها لحظة الإنتظار المختنق باليأس.. حيث تنزف

شوليت في صمت..

وأنا امتد من مدخل هذا البار حتى علم الدولة حقلاً  
من شفاه دموية

أين سيمون؟؟ ومحمود؟؟

من الناحية الأخرى زهور حجرية..

ويمر الحارس الليلي، والأسفلت ليل آخر.

يشرب أضواء المصابيح ولا تلمع إلا ببندقية..

في هذا المجتمع لا تلمع إلا البندقية.. ولعل شوليت هنا هي (ريتا) في

قصيدة الشاعر (ريتا والبندقية):

بيننا مليون عصفور وضورة

ومواعيد كثيرة

أطلقت ناراً عليها ببندقية

يقول رجاء النقاش فى كتابه (محمود درويش شاعر الأرض المحتلة)  
تعليقا على هذه القصيدة: ص ٢٠٦

(هكذا يسقط الحب تحت سطوة العدوان الإسرائيلى الذى ترمز إليه  
البندقية فى هذه القصيدة.. وليست قصة الحب بين عاشق وعاشقة هى  
وحدها التى أفسدتها هذه البندقية.. فهذا الحب أيضاً رمز للحياة والسلام  
الذى يمكن أن يملأ أرض فلسطين ويجمع بين المسلمين والمسيحيين واليهود.  
بين العاشق العربى والعاشقة اليهودية لولا العنصرية والنازية الجديدة.. لولا  
الصهيونية التى تقوم على العدوان والتوسع والكراهية العميقة للعرب..)

صورة أخرى لاختناق الحب فى هذا المجتمع الذى يلوك أفراداه ويلفظهم  
مجرمى حرب وأسرى.. هذه الصورة يتفنن الشاعر فى إبداعها:

**وأحسْتُ كفه تفترس الخصر**

**فصاحت لست فى الجبهة**

**قال:**

**مهنتى.... قالت له: لكننى صاحبتك**

**قال:**

**من يحترف القتل هناك**

**يقتل الحب هنا...**

ولا يفوتنا أن ننوه بالحس الإنسانى العميق الذى يتجلى فى شعر محمود  
درويش.. فهو فى رقعة انسانية بالغة يصف مشاعر هذه الفتاة ولعله رثى  
لوحدتها عندما (داخت الفتيات من الرقص) على أكتاف الرجال المتعبين..  
وقد لاح هذا الحس الإنسانى مشبوياب عاطفة شاعرية شملت الفتاة  
وصديقها.. وباركتها فى لوحته الرائعة:

## أنت يا سيدتى فاكهتى الأولى ... وناما وبكى فى فرح الجسمين.. فى عيدهما.. لون القمر

.. وأخيراً فإن (الكتابة على ضوء البندقية) فضلاً عن تصويرها الدقيق لبعض المشاعر والملامح النفسية التى تعكس القلق والتوتر الشائعين فى نفسية المجتمع الإسرائيلى تعتبر هى وقصيدة (سرحان يشرب القهوة فى الكافتيريا) من القصائد الجيدة القليلة الموحية درامياً والمعبرة عن المأساة الفلسطينية.. فعلى حين تزيج (الكتابة على ضوء البندقية) القناع عن الوجه الإسرائيلى المشوه.. تثبت (سرحان يشرب القهوة) صلابة الحق الغربى - برغم عذابات سرحان - بحيث يمكننا تجاوزاً أن نقول: أن القصيدتين وجهان لعملة واحدة هى المأساة الفلسطينية التى نبع من جرحها الطاهر هذا الشعر النابض العظيم.







---

# النیش فی ذاکرة الشعر ♦♦

---



### «الشعر ديوان العرب»..

انطلقت هذه المقولة - قديما - لتؤكد عراقة هذا الفن العربى الأصيل، وانتماؤه الضارب بجذوره فى تلك اللغة العبقريّة التى أينع فى دوحته الخيال، وأنجب مئات الشعراء المحلقين المبدعين لهذا الفن الرفيع.. الشعر.

واعتمدت العرب المشافهة والحفظ والرواية منهجا لشيوع هذا الفن.. بل تجاوز الاعتداد بهذه الميزة والفضل أنها قللت من قدر الكتابة قبل عصر التدوين، واعتبرت الإعجاز فى بلاغة اللسان. وتواترت الأخبار والنوادر عن ذكاء العرب فى هذا المجال. وقدراتهم الفائقة على استظهار ثقافتهم اعتمادا على الذاكرة فقد روى عن أبى العلاء أنه سمع محاوره بين اثنين يتحدثان بلغة لا يعرفها، وكان الشاعر الضرير غير مهتم بحديثهما بشكل دقيق. إلا أنه عندما طلب إليه، لحاجة ما، أن يعيد ما دار بينهما، بعد فترة، أعاد تلك المحاوره بحرفيتها.

روى أيضا أن الوليد بن يزيد قد امتحن حمادا الراوية فى حفظ الشعر.. فأنشد تباعا ألفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية وحدها. أما الأصمعى فقد كان كما تقول الروايات، واسع الذاكرة كالبحر. فكان يحفظ نحو ستة عشر ألف أرجوزة لنساء شاعرات. ما خلا القصائد والمقاطع، ويروى ابن منظور عن أبى نواس أنه استأذن أستاذه خلف الأحمر فى قول

الشعر فأمره بالذهاب إلى البادية وحفظ ألف مقطوعة من الشعر، فغاب مرة، ثم حضر إليه حافظاً إياها، ورددها على مسامعه، وسأله أن يأذن له فى قول الشعر، فأمره أن ينسى ما حفظ وغاب عنه مدة أخرى وحضر إليه، وقال له : نسيتها كأنى لم أحفظها قط...!! فقال له أستاذة: الآن أنظم الشعر.

ولسنا بصدد مناقشة تلك الروايات ولكنها إن دلت على شيء فإنما تدل على تأهيل الشاعر وإعداد له حمل المسؤولية. وتشير أيضا إلى اسهام الموروث الجيد والتراث فى تكوين ثقافة المبدع. والتأكيد على التواصل المستمر بين عطاء السابقين وإنجاز اللاحقين فى إطار فهم واعٍ مدرك لدور المبدع واحترامه لدور سابقيه.

الآن.. ونحن ننشئ فى ذاكرة الشعر، فن العربية الأولى، نتساءل: هل أصبحت قوة الذاكرة «موضة» قديمة.. ؟

لسنا ندرى.. كل ما نعرفه أن النظام التربوى الحديث يحث على تقلص الذاكرة وعلى جعل أمواجه تنحسر.. وتنحسر.. لتتحرك فى نطاق ضيق الأفق . أكبر دليل على هذا أن التلميذ الصغير لم يعد مضطرا لإتقان [جدول الضرب] مثلا، ما دامت الآلة الحاسبة الالكترونية ترافقه فى البيت والمدرسة. وأن طالب الثانوى لم يعد متلهفا لحفظ الأشعار الكثيرة، مادام الامتحان فى مادة الأدب ينحصر فى سؤال عن قصيدة محددة يعنيه البرنامج بكل وضوح.. فضلا عن أن الدرجات المرصودة للحفظ لا تغنى. ولا تسمن معدل الدرجات فى المجموع العام. فإذا أضفنا إلى ذلك ما أصاب دور المعلم من فتور.. وتراجع الاهتمام باللغة ككل.. تجسد لنا مأزق ذاكرة الشعر.. فهل معنى ذلك أن الذاكرة تسير فى طريق الإنقراض..!؟

الذاكرة وجدان الأمة ووعيها التاريخى.. وقد تصاب بالوهن ولكنها تعصى على الموت.. وما نعلمه أن ذاكرة الشعر – فى الأقل – لم تعد متقدمة.. فباستثناء حفنة قليلة ممن يهتمون بهذا الفن لا يوجد من يحفظ قصيدة للمتنبى أو أبى تمام. مثلا. عن ظهر قلب، كما كان شائعا فى أجيال سابقة

قريبة العهد بنا. وهذا يعكس واقعاً واضح المعالم ينجم عن الإتجاه بالثقافة إلى منحى «عملى» على صعيد الحياة «المادية» أكثر من الإتجاه إلى مواقع ثقافية وفنية راقية.

إن النظرة المسيطرة على الساحة الثقافية والتي انسحبت على الأدب قلصت الرؤية المتسعة لدور الثقافة والأدب وأطرت هذا الدور فى هامش ضيق. وغلبت «النافع المفيد» على «الجميل الحسن». فتراجع الإهتمام بالثقافة، والشعر ركن مهم من أركانها، بل سخرت بعض الأعمال الفنية «سينما ومسرح وتلفزيون» من الشعر والشاعر وأظهرت الأخير مراراً فى صورة ساذجة أحياناً، وكاريكاتورية أحياناً أخرى.

وحين نتحدث عن الذاكرة فى الشعر قد تثور خاطرة ما حول الذاكرة والمبدع حيث يمكن أن تقف الذاكرة عائقاً أو حجر عثرة فى طريق المبدع. وذلك باضمحلال الجانب الشخصى فى إنتاجه، حيث تتضاءل قدرته الإبداعية أمام محفوظاته المقرائمة وهذا وارد. فحفظ أفكار الآخرين يجعل التأثير بهم وارداً. ولكن من يمكن من الحفظ الكثير يملك أيضاً القدرة على الإنتقاء والتحليل العميق. ولا بد أن تكون لدى المبدع قدراته الخاصة فى الإستيعاب والهضم والتمثل. وبحقدار ما يكون صاحب هذه القدرات أصيلاً وقادراً على الإبداع؛ بمقدار ما تأتى المادة التى حفظها وتمثلها إضافة وعنصراً فاعلاً فى إبداعه الخاص. إن محفوظاته تلك بما تمده من «خامات» لغوية ونجوية وموسيقية تؤكد وترسخ قدميه فى حقل «الأصالة» وتأتى التجربة والواقع المعاش لتضيف إليه أبعاد «المعاصرة» فيخلق إبداعه، بقدراته الراحية، بهذين الجناحين الخافقين.

والمقدرة على التمثل هى المقدرة نفسها على التجاوز يعنى أنك إذا استوعبت ما وصل إليه غيرك، وفهمت إلى حد ما أبعاد تجربته أصبحت قادراً على الإنتقال إلى مواقع جديدة بفضل ما اختزنته من ثمار تفكير الآخر. فالحضارة الإنسانية تراكم معرفى. لم يقف عند حلقة من حلقات التاريخ أو حقبة. ولم يُغنِ الإغريق عن الرومان، وترجم العرب اليونان

وأضافوا إلى إبداعهم بخصائص فكرهم ولغتهم، وتلقفت ذلك كله أوروبا في العصور الوسطى ولم يكن هذا الكم الهائل من المعرفة عائقاً لها عن التطور والإضافة.. بل ربما كان حافزاً خلاقاً.. إذن فالنبات الذى يتغذى من الأسمدة لا تفوح منه رائحة المادة التى تغذى بها.. والإنسان الذى يعيش على الأسماك ويلتهم لحوم الخراف لا يصبح سمكة أو خروفاً.

ويعود حديثنا إلى الشعر.. وعنه.. فنجد أن الشعر الحديث بلور هذا المأزق.. مأزق «الذاكرة والشعر». فالقصيدة الحديثة أصعب وأعصى على الحفظ من القصيدة القديمة. ذلك أنها خالية - أحيانا - من الوزن الواحد، ومن القافية الموحدة، وحتى من المناخ الواحد - كما أنها غير خطائية أو مباشرة مما يجعلها تعلق سريعاً بالذهن. وبذلك اتسعت الهوة والفجوة بين الذاكرة والقصيدة.. فهل يمكن التغلب على ذلك؟!

أعتقد أنه من الأفضل الإبقاء على ذاكرة الشعر متقدمة، ولا ضير أبداً أن تعتمد المناهج إلى تنشيط الذاكرة الشعرية فلا تعود الإمتحانات مقتصره على تحليل النص الشعري الموجود على الورقة جاهزاً بحيث أنه لا يطلب «حك الذاكرة» وإيقاظها وتنبيهها. كذا التأكيد على دور المعلم فى تسليط الضوء على النص والقائه بأسلوب إيقاعى جذاب ليؤكد على بنيته الموسيقية التى تعد مدخلاً جيداً للإستيعاب والحفظ. ترى هل نكون متفائلين أو مغالين فى أمانينا لو زدنا فطلبنا إلى المسئولين عن التعليم فى وطننا العربى إعادة الأنشطة التى تشجع البلاغة والبيان مثل جماعات الخطابة للدرسية وجماعات الإذاعة ومسابقات الإنشاد.. وما إلى ذلك.

إن الآلة الإلكترونية التى يمكن أن تحل محل ذاكرة الحسب لا يجوز أن يمتد سلطانها إلى الشعر والفنون الأخرى.. وطبيعة الفن تأبى ذلك وتعصى عليه، فالفن ذوق ووجدان قبل كل شئ.. وإذا ما تم تحييد أو تخريب

أوتدجين الذوق بحيث يسهل احتوائه ضمن معادلات الآلة الحاسبة، فإنه  
يتحول إلى جثة هامدة لا تنبض فيها الحياة.. ولا يتدفق في شرايينها ألح  
الحضور الكوني الخالد.: الشعر..!!











---

دالية المتنبى :  
قصيدة المديح ..  
قصيدة العالم



لكل امرئٍ من دهره ما تعودا  
وعادة سيف الدولة الطعن في العدا  
وأن يكذب الإرجاف عنه بضده  
ويُمسى بما تنوى أَعاديهِ أسعدا  
ورُب مريدٍ ضره؛ ضر نفسه  
وهاد إليه الجيش أهدى وما هدى  
ومستكبر لم يعرف الله ساعة  
رأى سيفه في كفه فتشهدا  
هو البحر؛ غُص فيه إذا كان راكدا  
على الدر واحذره إذا كان مزبدا  
فإني رأيت البحر يعثر بالفتى  
وهذا الذي يأتي الفتى متعمدا  
تظلُّ ملوك الأرض خاضعة له  
تفارقه هلكى وتلقاهُ سُجدا  
وتُحيى له المال الصوارم والقنا  
ويقتل ما تُحيى التبسمُ والجدا

ذكى، تظنيه طليعة عينه  
يرى قلبه فى يومه ما ترى غدا  
وصول إلى المستصعبات بخيله  
فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا  
لذلك سمى ابن الدمستق يومه  
مماتاً. وسماه الدمستق مولدا  
سريت إلى جيجان من أرض أمد  
ثلاثاً؛ لقد أضناك ركض وأبعدا  
فولى وأعطاك ابنه وجيوشه  
جميعاً، ولم يعط الجميع ليحمدا  
عرضت له دون الحياة وطرفه  
وابصر سيفاً الله منك مُجرّدا  
وما طلبت زرق الأسنة غيره  
ولكن قسطنطين كان له الفدا  
فأصبح يجتاب المسوح مخافة  
وقد كان يجتاب الدلاص المسرّدا  
ويمشى به العكاز فى اليدر تائباً  
وما كان يرضى مشى أشقر أجردا  
وما تاب حتى غادر الكر وجهه  
جريحاً، وخلق جفنه النقع أرمدا  
فلو كان ينجى من على ترهب  
ترهبت الأملاك مثنى وموحدا

وكل امرئ في الشرق والغرب بعدها  
يعد له ثوبا من الشعر أسودا  
هنيئا لك العيد الذي أنت عيده  
وعيد لمن سمي.. وضحي.. وعيدا  
ولا زالت الأعياد لبسك بعده  
تسلم مخروقا، وتعطي مجدا  
فذا اليوم في الأيام مثلك في الوري  
كما كنت فيهم أوحدا.. كان أوحدا  
هو الجد حتى تفضل العين اختها  
وحتى يصير اليوم لليوم سيذا  
فيا عجبا من دائل أنت سيفه  
أما يتوقى شفرتي ما تقلدا  
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه  
تصيده الضرغام فيما تصيدا  
رايتك محض الحلم في محض قدرة  
ولو شئت كان الحلم منك المهندا  
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم  
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا  
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته  
وأن أنت أكرمت اللئيم تمردا  
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا  
مضر كوضع السيف في موضع الندى

ولكن تفوق الناس رأيا وحكمة  
كما فقهتم حالا ونفسا ومحتدا  
يدق على الأفكار ما أنت فاعل  
فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا  
أزل حسد الحساد عنى بكبتهم  
فانت الذى صيرتهم لى حسدا  
إذا شد زنى حسن رأيك فى يدى  
ضربت بنصل يقطع الهام مغمدا  
وما انا إلا سمهرى حملته  
فزئ معروضا وراع مسددا  
وما الدهر إلا من رواة قصائدى  
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا  
فسار به من لا يسير مشمرا  
وغنى به من لا يغنى مفردا  
أجرنى إذا أنشدت شعرا؛ فإنما  
بشعرى أتاك المادحون مرددا  
ودع كل صوت غير صوتى؛ فإننى  
أنا الطائر المحكى والآخر الصدى  
تركت السرى خلفى لمن قل ماله  
وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا



وقيدت نفسي في ذراك محبة  
ومن وجد الأحسان قيذا تقيدا  
إذا سأل الإنسان أيامه الغنى  
وكننت على بعد.. جعلتك موعدا



.... القصيدة هي إحدى سيفيات شاعر العربية الأكبر: المتنبي،  
والسيفيات؛ تلك؛ مجموعة قصائد هذا الشاعر العبقري التي صاغها في  
سيف الدولة الحمداني أمير حلب. والتي أنشده الشاعر إياها ما بين سنة  
سبع وثلاثين وثلاثمائة حين التحق به محبا معجبا.. وسنة ست وأربعين  
وثلاثمائة للهجرة حيث فارقه أسفا مغضبا.. وخلال هذه السنوات التسع،  
تغنى المتنبي، في ثنايا تلك القصائد؛ بانتصارات أميره العربي على الروم؛  
ولأم جراح هزائمه؛ هناة وصافاه؛ وعزاه وواساه، وصحبه في رحلة حياة  
تقلبت شؤونها وشجونها، وماجت واضطربت بأبعاد النفس البشرية في  
شتى حالاتها المتلاطمة.. هذا عن القصيدة.

ترى هل نحن بحاجة إلى أن نعرف بالشاعر، وهو الذي قال عنه ابن  
الأثير: [ ... انه ملأ الدنيا وشغل الناس.. ]؟ إذا لم يكن بد فهو المتنبي أحمد  
بن الحسين بن عبد الصمد. ولد في محله كندة بالكوفة عام ٣٠٣ هـ. وتوفي  
مقتولا في دير العاقول على بعد ثلاثة فراسخ من بغداد عام ٣٥٤ هـ. شغلت  
حياته نيفا وخمسين عاماً من القرن الرابع الهجري. كانت كافيته لأن تصوغ  
لنا نموذجا لحياة شاعر ارتبط شعره ارتباطا وثيقا بشخصه ومأساة حياته  
وانعكس اضطراب نفسه القلقة وتوترها على شعره. وانصهر ذلك كله في  
بنية فنية موحدة.

وتطرح هذه القصيدة الدالية؛ والسيفيات عموما؛ وجل شعر المتنبي؛  
قضية (شعر المديح) في أدبنا العربي. ذلك الشعر الذي يطالعنا مثبتا في  
ديوان شاعر ما كأي تمام أو المتنبي مصدرا بعبارة: [ .. وقال يمدحه.. ].

قصيدة المديح هذه - كما اصطلاح على تسميتها - تأتي في إطار أشمل هو ما يسمى (شعر المناسبة). وقد جرت العادة على النفور من هذا اللون من الشعر؛ والنيل منه وازدراؤه؛ خاصة في عهدنا الأخير. ولو أنصفنا قليلا، وانفجرت زاوية الرؤية والقبول لدينا، لأنقذنا من هذا التعسف شيئا ذا قدر وقيمة من شعرنا العربي جانبه الإنصاف.

والقارئ أو الدارس لشعر المتنبي بالذات، لابد أن يلاحظ أن الشعر لديه أدلة للكشف عن الأبنية الجوهرية للحياة، ومن خلال ما يتراكم من تفصيلاتها وجزيئاتها. وهو ينطلق من خلال قصيدة (المديح) أو (الرثاء) أو (الوصف) وما إلى ذلك من (أغراض شعرية) إلى آفاق وأبعاد تتخطى محدودية المناسبة والهدف. تاركا لذاته القلقة أن تغوص في أعماق التجربة الإنسانية لتعود ظافره بالمعنى تلو المعنى. بوصفه - أى المعنى - نتيجة لعدد من الفعاليات المتعارضة والمتصارعة والمحتدمة؛ والذي يبصر به الشاعر متغلغلا في نسيج الحياة، وممثلا لبعض قوانينها.

والمتنبي شاعر من شعراء الفكرة والمعنى.. ولعل أقرب شاعرين اليه هما: أبو تمام وابن الرومي. على أنه فاقهما - كما فاق شعراء العربية كلهم - بتلك الميزة. وهى اقتحام (عالم المعنى) بجرأة وشخصية متفردة. نتج عنهما رؤية وشعر متفرد. وليس صدفة أن يرثيه (المظفر الطبسى) حين عرف بمقتله بأبيات مشهورة جاء فيها:

### مارأى الناس ثانى المتنبي

أى ثان يرى لبكر الزمان

كان من نفسه الكبيرة في جيش

وفى الكبرياء ذا سلطان

هو فى شعره نبى؛ ولكن

ظهرت معجزاته فى المعانى

أدرك القدماء ذلك، وعرفوا ولع المتنبي به؛ وتتبع هو (المعاني) المختلفة في تحولاتها وارتباطها بالفعاليات المتباينة، في تلاقيها أو اصطدام بعضها ببعض، وفي تنافرها وانسلاخ بعضها عن بعض. وأدرك بعقليته الجدلية أبعاد هذا الصراع. وأفترب من جوهره كثيرا وصاغ من رماده قصائده. وإذا كنا نطالع نتفا من هذه (المعاني) متناثرة هنا أو هناك في شعر ابن الرومي وأبي تمام. فإننا نجد المتنبي قد أوقف شعره كله على هذه الخاصة، بحيث أصبحت الطراز الفكري المألوف لدى المتنبي.

ولتكن هذه الرؤية مدخلا لقراءة وتحليل القصيدة التي بين أيدينا..



لكل امرئ من دهره ما تعودا

وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

وإن يكذب الأرجاف عنه بضده

وأيمنسي بما تنوى أعادييه أسعدا

ورب مريد ضره، ضر نفسه

وهاد إليه الجيش أهدي وما هدى

ومستكبر لم يعرف الله ساعة

رأى سيفه في كفه فتشهدا

.. ها هو المتنبي يفتتح القصيدة بأداء متفرد لمعنى مألوف، يقيمه على قاعدة راسخة من قواعد المنطق؛ فإذا سلمنا أن العادة والطبع غالبان، وأن كل امرئ على ما تعود وما تربى عليه طبعاً لا تكلفاً - كما يقودنا الشطر الأول في البيت الأول - فإنه من الطبيعي أن نسلم بالنتيجة التي يطرحها الشطر الثاني والذي يؤكد على أنه لا غرابة في أن تكون عادة السيف -

سيف الدولة - الطعن في العدا.. وتصبح من عاداته أيضا، أن يفضح نوايا أعدائه فيكذب المرجفين من أعدائه بظفره الدائم بهم. ويسعد دائما بما يدبرونه له لأنه ينقلب ضدهم كل تدبيرهم. وتبدأ اللعبة الفنية التي تستهوى المتنبئ، فهو يستقصي جدلية المعنى إلى أقصى درجة، ويلعب على ثنائية التضاد فيه. فهذا الذي يريد ضر سيف الدولة أنما يضر نفسه من حيث لا يعلم. وفي استخفاف فني جميل يعزف على الجناح في (هاد) إليه الجيش (أهدى) وما (هدى). ثم صورة هذا المستكبر الذي نطق بالشهادة مؤمنا، أو متقيا خائفا؛ حين أبصر السيف في كف الأمير المدوح..

**تظل ملوك الأرض خاشعة له**

**تفارق هلكى؛ وتلقاه سجدًا**

**وتحيى له المال الصوارم والقنا**

**ويقتل ما تحيي التيسم والجدا**

**ذكى.. تظنيه طليعة عينه**

**يرى قلبه في يومه ما ترى غدا**

.. ليس أمام أعداء سيف الدولة من الملوك إلا الخضوع لإرادته أو الهلاك بإغضابه؛ وهذا المعنى الشائع في قصائد المديح يؤدي إلى البيت التالي الذي لا يفوتنا أن نقف عنده:

**وتحيى له المال الصوارم والقنا**

**ويقتل ما تحيي التيسم والجدا**

نحن أمام نموذج جيد لعملية الخلق الفني عند المتنبئ يعكسها هذا البيت عند تحليله. نحن أمام حياة في القتل. وقتل في الحياة. جدل متشابك. فالمال حي.. ومقتول معا.. أن هذا المال الذي هو أسلاب وغنائم حازها سيف الدولة في معاركه، إنما يدين بحياته - ووفرته - للسيوف والرماح - التي هي

أصلا أدوات الموت.. ولكن هذا المال لا يفتأ أن يجد نفسه صريعا بالكرم  
والعطاء والأريحية الباسمة.. ولا يعقل أن تكون هذى جميعها أداة للقتل.. قتل  
المال.. هكذا يبصر المتنبي الخيط الخفى الذى يربط بين المرئيات؛ على تنافر  
مظهرها الخارجى . ومن هنا يأتى مديحه نسيج وحده. إنه ليس المديح  
المكرور. بل ربما كانت المعانى، كمعنى الكرم فى هذا البيت، مطروقة ومعادة.  
ولكن المتنبي يصهرها فى بوتقة إبداعه المتفرد ويسكب عليها من ذاته  
المضطربة ما يمنحها ويمنحه الخلود.. ولننظر إلى تهنة الممدوح بالعيد؛ وهى  
مناسبة تقليدية، ولنتتبع المتنبي فى خلوصه منها إلى ذاته، ومنها إلى الأعم  
والأشمل من صروف الحياة وشؤونها وشجونها:

هنيئاً لك العيدُ الذى أنت عيدُه  
وعيد لمن سُمى وضحى وعيدا  
ولا زالت الأيام لبسك بعده  
تسلم مخروقا؛ وتعطى مُجددا  
فذا اليوم فى الأيام مثلك فى الورى  
كما كنت فيهم أوحدا كان أوحدا  
هو الجد حتى تفضل العين أختها  
وحتى يصير اليوم لليوم سيذا  
.. حتى التفاضل يشمل الأيام وإن بدت متشابهة.. والممدوح يُبليها بعد  
اذ يتسلمها جديدة، ويتركها مخروقة بالية .. إنه يبلى الدهر ..

فيا عجباً من دائل أنت سيفه  
أما يتوقى شفرتى ما تقلدا  
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه  
تصيده الضرغام فيما تصيدا

رأيتك محض الحلم فى محض قدرة  
ولو شئت كان الحلم منك المهندا  
وما قتل الأحرارَ كالعفو عنهم  
ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا  
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته  
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا  
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا

### مضر كوضع السيف فى موضع الندى

من الظلم والغبن للفن وللحقيقة أن تقرأ هذه الأبيات فى إطار المديح  
ونحصرها فى هامشه الضيق الرتيب.. إنه شعر الحياة بكل ما تحوى من  
تناقضات وخطوط متقاطعة تقاطعا حادا وصارما .. ووالها من سخرية أن  
تنقلب أداة الصيد على الصائد الغافل عن خطورتها المتنامية!!.. وواله من  
حمق لا يغتفر لو لم يحسن الإنسان استخدام أسلحته فى مواجهة الحياة ..  
فالسيف لا يوضع موضع الحلم.. كما أن الحلم لا يجدي حيث يجدي  
السيف.. ونحن مع المتنبي فى رحلة الحياة، هذه؛ يترك بين يدينا هذه  
الثنائيات المتضادة (الحلم والسيف) و (الكريم واللئيم) ثم هذا المعنى (وما  
قتل الأحرار كالعفو عنهم) .. إنه القتل بالحياة..

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم  
فأنت الذى صيرتهم لى حسدا  
إذا شد زندى حسن رأيك فى يدى  
ضربت بنصل يقطع الهام مغمدا

وما أنا إلا سمهري حملته  
 فزين معروضا؛ وراع مسددا  
 وما الدهر إلا من رواة قصائدي  
 إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا  
 فسار به من لا يسير مشمرا  
 وغنى به من لا يغنى مغفرا  
 زجرني إذا أنشدت شعرا، فإنما  
 بشعري أتك المادحون مرددا  
 ودع كل صوت غير صوتي ، فإنني  
 أنا الطائر المحكى والآخر الصدى  
 تركت السرى خلفي لمن قل ماله  
 وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا  
 وقيدت نفسي في ذراك محبة  
 ومن وجد الأحسان قيда تقيدا  
 إذا سأل الإنسان أيامه الغنى  
 وكنت على بعد .. جعلتك موعدا

وهذه عشرة أبيات في نهاية القصيدة، تشكل ربع عدد أبياتها تقريبا ؛  
 وقفها المتنبي على خواطره وهواجسه؛ وعكس خلالها قلقه وطموحه ؛ أنها  
 تصدر عن ذات معذبة بطموحها منكوبة بتوترها . فإين هذه الأبيات من  
 قصيدة المديح ..!!؟؟.. أنها تؤكد على أن قصيدة المتنبي إنما هي عالمه هو،  
 الذي لا يطغى عليه شيء آخر مهما جل أو عظم.. وأن ذاته تلك هي محور  
 القصيدة؛ جاءت مديحا أو هجاء أو رثاء؛ بل هي القطب الإيجابي في العلاقة  
 بين المادح والممدوح .. بين الشاعر والأمير..

فى هذه الأبيات يتألم المتنبى لحسد الحساد؛ ويستعدى عليهم سيف الدولة الطيبة بالشاعر؛ مؤازرة الممدوح للشاعر فى هذه المعركة تجعله يضرب بسيف صارم.. يقطع الهام.. مغمدا!! (ولنلاحظ أن مغمدا) هنا لا تستمد جمالها من موسيقية القافية، بقدر ما تشعه (المفارقة) هنا من هذه المفردة الموحية يرجو الشاعر أميره أن يكبت هؤلاء الحساد .. ولا يكبت هو مشاعره إزاءهم ولا يقلل من غلواء طموحه. فهاهو يفخر بشعره ويعتد بفنه. انه يعرف لنفسه قدرها.. بل يتجاوز ذلك إلى السخرية من حساده المتشاعرين فيطلب إلى الأمير أن يجزل له فى العطاء إذا انشدوه. هم . شعرهم .. إنهم ليسوا سوى أصداء له.. ثم يؤكد الشاعر فى هذه الأبيات على صلته المصيرية بأمره العربى.. وأن أماله فيه غير محدودة... وفى صورة مكثفة وجميلة يؤكد على ثقته بكرمه :

.....

### وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا

ثم يرد العلاقة بينهما إلى هذا الشعور الخالص بالمحبة التى قيدته إليه وأحكمت عرى الصداقة بينهما.

أنها - كما أسلفنا - هموم ذات قلقة مضطربة. ولا تخلو قصيدة من قصائد المتنبى من هيمنة هذه الذات. بل ان سطوتها، كلما أثقلت السنوات عمره بالتجارب؛ كانت تطرد وتستحيل إلى شجن عذب. وهى إذا كانت فى (السيفيات) يغلب عليها التمرد والطموح والندية والتحدى، فإنها فى (الكافوريات) تصطبغ بالنظرة الثاقبة إلى الحياة والحكمة المتأنية الدقيقة. وهى إذا كانت فى (سيفياته) تعزف إيقاعها المدوى وتشحن لفظا وجملا حادة مدببة؛ فهى فى (كافورياته) تحفل بالصفاء النفسى وتكتسى عذوبة الألفاظ وموسيقية الشجن. وأيا كان حالها فإن لها الحضور الأول إذ يصعب على مثل المتنبى أن يفنى ذاته فى ممدوحه أو يتلاشى أمامه - كما يفعل المادحون - حتى ولو كانت علاقته بسيف الدولة الأمير والنمذج الربى الذى أعجب به وأحبه.. إنه لا يرضى إلا بعلاقة متكافئة.. ولا غرو فى ذلك.. أليس



هو الذى يرقى بمكانة الأمير الممدوح إلى مرتبة الشاعر السامية. حيث يقول:

**شاعر المجد، خذله شاعر الد**

**فظ كلانا رب المعاني الدقاق**

قلة نادرة من الشعراء تضع يدها على جوهر التجربة الإنسانية، وتعكسها فى إبداعها مثقلة بهموم الذات وتوترها بين آمها وإحلامها. وهى اذ تتجاوز هامش الذات الضيق، منطلقة منه وعائدة إليه ترصد المأدبة الإنسانية المقامة والممتدة عبر الزمان والمكان؛ معبرة عن أدق تفاصيل الحياة، متخذة فى ذلك شتى الوسائل الفنية، نافثة فى القصيدة (غزلا كانت أم هجاء، رثاء كانت أم مديحا) هذا الألق الخالد من الصدق والشجن الذى يتخطى بالفن والإبداع أبعاد الزمان والمكان، ويخلق به بعيدا عن أسر المناسبة والغرض.

من هذه القلة النادرة: وعلى رأسها، كان المتنبى شاعر العربية الأكبر الذى عرف لفنه قدره ولشعره مكانته، وتخطى به الزمان والدهر (الذى أصبح من رواة قصائد).. أليس هو القاتل:

**أنام ملء جفونى عن شواذرها**

**ويسهر الخلق جراها ويختصم\***




---

(\*) لمزيد من الاستفادة يراجع بحث د. عز الدين إسماعيل القيم عن تحولات المعنى فى شعر المتنبى (بحث منشور فى مجلة مجمع اللغة العربية).



---

# بشارة الخورى: الهوى والشباب



هي ليست قصيدة لشاعر؛ انما هي القصيدة/ الشاعر. ذلك أن شاعرنا انعكست في قصائده روحه الشاعرة، بشكل مكثف؛ وقد كان التكثيف سمة لقصائده فجاءت قصاراً. ولعل القارى لديوانه كثيراً ما يشعر بأنه يتذوق نغماً واحداً بتنويعات متعددة. ولا غرو في ذلك، فإن الخصائص الفنية لشعر بشارة الخورى أو الأخطل الصغير، جعلت من شعره قصيدة واحدة - وربما كانت هذه سمة من سمات كبار الشعراء ومنهم شاعرنا - حيث تنعكس ملامح فنية - بعينها - وتقتحم بإلحاح مراحل تجاربهم الإبداعية وتنظمها فنياً.

وقد نمت قصائد شاعرنا عن هذه السمة - حيث الشاعرية الفياضة والحس المتدفق بمعانى الحب والحق والجمال؛ وهى الأقانيم الثلاثة التى تشكل عالمه الشعرى الخصيب. ولنتركه يقدم لنا نفسه من خلالها:

روح كما انحطم الغدير علي الصفا  
شعباً مشعبة إلى أرواح  
(الحب) أكثرها؛ وبعض كثيرها  
لرقى (الجمال) .. وبعضها للراح

.....

أنا في شمال (الحب) قلب خافق  
وعلى يمين (الحق) طير شاد  
غنيت للشرق الجريح وفي يدي  
ما في سماء الشرق من أمجاد  
فمزجت دمعته الحنون بدمعتي

ونقشت مثل جراحه بفؤادي  
وشاعرنا بشارة الخورى فرض علينا بتلك العذوبة والغنائية أن نخوض  
فى ملامح شعره الفنية؛ قبل أن نتعرض لسيرة حياته وتقديم ترجمة لها . ذلك  
أن خصائص هذا الشعر، التى منها عذوبة اللفظ ورقته، وسمو المعنى وجمال  
التعبير عنه فى يسر؛ وموسيقية العبارة الشعرية؛ وإيقاع قصائده وانتقائه  
لبحورها؛ وقصرها واحتواؤها على موقف أو خيط درامى.. جعلتها تتسرب  
فى رقة متناهية إلى الوجدان. ولعل ذلك ما حدا بكبار المطربين إلى تلحينها  
والشدو بها. ولعل الأخطل الصغير هو أكثر الشعراء - بعد شوقي - من  
حيث عدد القصائد المغناة. فمن قصائده التى نالت حظا وفيرا: «عش أنت»،  
و«أضنيتنى بالهجر» ، و«سائلى العلياء عنا والزمانا»، لفريد الأطرش،  
و«اسقنيها بأبى أنت وأمى»، لأسمهان؛ أما عبد الوهاب فقد أبدع تلحين  
وغناء قصائده: «الهوى والشباب»، و«الصبا والجمال»، و«جفنه علم  
الغزل»، فضلا عن تلحينه لـ «ياورد مين يشتريك»، وهى تجربة فريدة ورائدة  
للشاعر مزج فيها بين «الفصحى» و«العامية» بيسر وجمال. حيث صاغ  
كثيرا من المعانى والصور التقليدية فى الشعر العربى بلهجة عامية. وقد  
غلبته بعض المعانى فأتت صياغتها بالفصحى الخالصة فى أبيات عذبة داخل  
البناء « العامى » للأغنية مثل :

أصفر م (السقم)

( أم ) من فرقة الأحباب

أو قوله :

## يا ورد (ليه) الخجل فيك يحلو الغزل



والقصيدة التي نتخيرها لشاعرنا الكبير هي قصيدته (الصبا والجمال)  
التي أبدع في تلحينها وغنائها الموسيقار محمد عبد الوهاب .. تقول  
القصيدة:

الصبا والجمال ملك يديك  
أى تاج أعز من تاجيك  
نصب الحسن عرشه فسالنا  
من تراها له .. فدل عليك  
فاسكبي روحك الحنون عليه  
كانسكاب السماء في عينيك



كلما نafs الصبا بجمال  
عبقري السنا نماه إليك  
ما تغنى الهزار إلا ليلقى  
زفرات الغرام في أذنيك  
سكر الروض سكرة صرعته  
عند مجرى العبير من نهديك  
قتل الورد نفسه حسدا منك  
وألقى دماه في وجنتيك  
والفراشات ملت الزهر لما  
حدثها الإنسام عن شفقتك

## رفعوا منك للجمال مثالاً

### رائثوا خشعاً على قدميكِ

هاهى قصيدة قصيرة من قصائد الأخطل الصغير، نقرأها على أنها (غزلية). والقصيدة كما نراها ( قصيدة الطبيعة) تتسع لتشمل مرانها التى تتنوع حتى تتكثف فى (الروضة/ المرأة). وإذا كان شاعرنا العرى الجاهلى الأعشى يعقد مقارنة عاجلة بين المرأة والروضة فى معلقته الشهيرة حيث يقول :

ما روضة من رياض الحزن معشبة  
خضراء جاد عليها مسبل هطل  
يضاحك الشمس منها كوكب شرق  
مؤزر بعميم النبت متهل  
يوما بأطيب منها نشر رائحة

### ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

فإن هذا الشعر لا يتجاوز (المقارنة) ودائرة المفاضلة فى الرائحة والحسن. ولكن الأخطل الصغير فى مهارة وحذق يصهر الفوارق ويذيبها ليصبح العنصران واحداً. ليكون المرأة المثال.  
إنها احتفالية المرأة/ الطبيعة يستدعى لها الشاعر من الألفاظ والصور ما يرقى بها عن تقليدية المعنى أو تناوله. ليأتى على مستوى العرس الكونى البهيج . ولنستعرض تلك الألفاظ ودلالاتها :

( .. الصبا ، والجمال ، وعرس الحسن؛ والتاج، والسماء التى تنسكب فى عيني المرأة؛ والهزان، وهى لفظة من الأبجدية الشامية؛ على حد تعبير نزار قباني؛ يندر بل يستحيل وجود هذا اللفظ علما على طائر فى غير الشعر اللبنانى أو عند غلاة القرويين. ثم الروض؛ ويستدعى ذلك تلك الاستعارة البديعة ( مجرى العبير) .. وأين ؟ .. فى نهديك .. والنهدان هنا ربوتان



(طبيعيتان) ناتتتان فى الصدر يشقهما ( مجرى العبير ) ، ثم الورد؛  
والفراشات ، والزهر، والأنسام.. .. أنها مرثيات الطبيعة ومسموعها  
ومشمومها. كلها ، يستدعيها الشاعر فى مهرجان احتفالى بديع. مع  
انسيابية بحر (الخفيف) تتدفق الصور والمعانى. وإن بدت تقليدية إلا أن  
الشاعر يتقصى العلائق والوشائج بن المرثيات؛ ومن خلال هذا التقصى  
الواعى الشفيف يقوم بتوليد الصور :

**فاسكبى روحك الحنون عليه**

**كانسكاب السماء فى عينيك**

لعلها العلاقة بين صفاء السماء وصفاء العيون؛ أو بين زرقة هذه وتلك.  
أو لعلها فى اتساع المدى بين رقعة السماء والعمق الذى يكتنف نظرة العينين؛  
والغموض الذى يترامى فى نظرة شاردة. ثم تأتى هذه العلاقة بين السكر  
والشذى. فى هذا البيت :

**سكر الروض سكرة صرعته**

**عند مجرى العبير من نهديك**

ثم العلاقة من حيث اللون فى البيت :

**قتل الورد نفسه حسدا منك**

**وألقى دماه فى وجنتيك**

ان كل شىء يبدأ خارج المرأة ينتهى إليها.. ومن حيث الرائحة فى  
قوله:

**والفراشات ملت الزهر لما**

**حدثتها الأنسام عن شفتيك**

انه الرحيق المسكر.. الذى يجمع ثلاثاً من الحواس فى بيت واحد وهى  
حاسة النظر( حيث الفراشات بألوانها الزاهية) وحاسة الشم ( حيث الأنسام

العاطرة) ، ثم الذوق ( حيث تفاعل وتلاقى الفراش بالشفاه الزهر وما نتج  
عنهما من رحيق ..) . هذه العلاقات والصور المولدة منها، سمة غالبية فى  
شعر الأختل الصغير. بحيث نجد هذه الصور المتماثلة فى قصائد متعددة  
له.. ولنقرأ :

أنقى من الفجر الضحوك،  
فهل أعرت الورد خدك؟  
وأرق من طبع النسيم؛  
فهل خلعت عليه بردك ؟

ولعل هذه السمة تبدو أشد وضوحا فى قصيدة مثل ( هند وأمها)  
وربما تسلفت حتى إلى شعره القومى ... ولعل مطلع قصيدة ، كهذه، يعكس  
تلك السمة تماما :

عشت .. فالعب بشعرها يا نسيمُ  
واضحكى فى عيونها يا نجومُ !

وقد يروق للبعض أن يصف هذه المحاولات الشعرية بالتقليدية وردا  
على ذلك نسوق رأى الناقد إيليا حاوى، حين يعلق على هذه القصيدة فى  
كتابه القيم: (الأختل الصغير - شاعر الجمال والزوال) فيقول :

[ قد يخطر لنا أن معادلة هذا الوصف قديمة عريقة فى عمود الشعر  
الجاهلى. فأى فضل له فى ذلك كله ؟؟ كى لا نتجنى عليه ونتعسف به لابد لنا  
من الإقرار بأنه يصدر فى غزله عن جرح دام عميق بالجمال. عن نوع من  
اللوعة المخضبة باليأس من القدرة على التعبير عنه. ذلك أنه لم يحل فى  
صوفيته النفسية التى تتداعى بها أطر الفهم والإحساس؛ فتمادى يتأول  
سورته الحسية حتى بلغ منها شيئا من الصوفية الحسية اذا جاز التعبير،  
ولو لم يكن الأمر كذلك؛ أنى له ينسب السكر إلى الشذى وهو يتسبب أصلا  
إلى الخمرة؟ إن من الشذا لخمرة مسكرة؛ بل أن شذا المرأة وحدة لمسكر؛

هذه حقيقة كانت مكتومة؛ فغدت معلومة، إلا أن نسبة السكر إلى الروض  
افتضحت نزعة بديعية في شعره؛ تحدت إليه من صناعة الشعر العربى  
الموات القائمة على الغبطة باقتناص حيل الغلو؛ وربما أوفت إلى ذروتها فى  
البيت الثانى حيث جعل الورد ينتحر حسداً من جمالها ويلقى دمه فى  
وجنتيها؛ فهما ليستا موردين بالجمال بل بدم الورد الصريع..].

وإذا كان الناقد يرى أن شاعرنا يصدر فى غزله عن جرح دام عميق  
بالجمال؛ وعن نوع من اللوعة المخضبة باليأس من القدرة على التعبير عنه ..  
فلا يفوتنا هنا أن نورد من شعره ما يؤكد ذلك حيث يقول:

### الهوى والشباب، والأمل المنشود ضاعت جميعها من يديا



وشاعرنا هو بشارة عبد الله الخورى؛ ولد فى بيروت عام ١٨٩٠ من  
أب كان يمارس الطب على الطريقة المألوفة آنذاك؛ أى من خلال مؤلفات ابن  
سينا وغيرها من كتب الطب العربى القديم. وكانت لبنان - شأنها شأن أجزاء  
كثيرة من الوطن العربى - تحت السيطرة العثمانية، وخشى والده أن يساق  
أولاده للخدمة العسكرية فنزح إلى القرية وسجل أولاده من مواليدها. ونظراً  
للمودة التى كانت بين والد بشارة الطبيب ومختار القرية، كان الأخير يوعز  
إلى صديقه بالانتقال مع أسرته إلى قرية أخرى؛ فى كل مرة تطوف بها لجنة  
تعداد النفوس على البيوت. وبهذا كما - يقول عبد اللطيف شرارة فى كتابه  
(الأخطل الصغير): «.. كان ينتقل فى مستهل حديثه بين المدينه والقرية؛  
ويختزن فى نفسه، عن غير وعى منه، كثيراً من الانطباعات التى تحدثها  
هاتيك التنقلات بين جوين مختلفين وبينتين متنوعتين».. ولعل آثار هذه  
الانطباعات العفوية اللاواعية تتضح فى شعره، من حيث الأجواء الطبيعية؛  
وبذلك أصبح بشارة الخورى ابن المدينه عالى الذهن - أبداً - بما يدور فى  
حياة الطبيعة والأرياف.

تلقى الشاعر مبادئ القراءة فى الكتاتيب المنتشرة آنذاك؛ ثم انتقل إلى المدرسة الأرثوذكسية وتلقى على يد معلمه (شبلى ملاط) - وهو من الأدباء المرموقين، وقد هاجر فيما بعد إلى مصر - مبادئ اللغة الفرنسية؛ وفى سن الرابعة عشرة انتقل إلى مدرسة (الحكمة) فدرس الأدب العربى وأحب العبارة العربية؛ وكان من رفاقه - ولكن فى صف أعلى - الأديب الشاعر جبران خليل جبران.

قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وفى عام ١٩٠٨م أسس جريدة (البرق) وكانت فاتحة عهده بانتشار تجاربه الأدبية؛ وأصبحت الصحافة - منذ ذلك التاريخ - مدرسته الكبرى. ولعل إختياره اسم (البرق) لجريدته دليل آخر على تغلغل حب الطبيعة إلى أعماقه. فالبرق ظاهره طبيعية. وهو غامض وداهم وتوأم الصواعق. ولعله أراد بذلك أن تخطف جريدته الأبصار وتهابها النفوس. وقد راح من خلالها يعالج مشاكل الحياة العامة فى لبنان والوطن العربى، وكان يمارس الصحافة بروح شعرية؛ وخلال فترة الحرب الأولى توقفت الجريدة عن الصدور إجباريا حيث اختفى فى قرية صغيرة بعيدا عن يد القهر العثمانى. إلى أن عاود اصدار الجريدة بعد الحرب.

ولم تكن الصحافة فى ذلك الوقت بعيدة عن الأدب، انما كانت تكريسا لدوره وامتدادا لسلطة وقوة تأثيره. وقد عرف الشعراء والأدباء والمثقفون طريقهم إلى جمهورهم خلال صفحاتها. وقد اتخذ بشارة الخورى جريدة (البرق) منبرا لمواجهة سطوة الفقر والقهر وبث روح الثورة، ولنستمع إلى صوته داعيا إلى العدل الإجتماعى:

أيها الناس الألى خاطوا الكفن  
لفقير، كي يلوذوا بالثراء  
هب ورثتم بعده الأرض، فمن  
يصلح الأرض لكم يا أغنياء!!

ولعل السخرية والخطابية واضحة فى أسلوبه تماما؛ وها هو يثور على  
القهر ويرفض الخنوع للمستبد فيأتى صوته؛ الذى ألفناه رقيقا وادعا؛ أشد  
ما يكون ضراوة وإيلاما ..

إذا ما ضربت الكلبَ يعوي؛ وربما  
تقحم مؤذيه، وعض بنابه  
وفي الشرق ناس لو سحقت رؤوسهم  
لما نبحوا.. فليخجلوا من كلابه

•••

درس شاعرنا الأدب العربى وولع ولوعا خاصا بكتاب (الأغاني) وتأثر  
كثيراً بأجوائه، واصطفى لنفسه لقب (الأخطل) تشبها بالشاعر الأموى  
الشهير لعشقهما الراح؛ واستوحى من (الأغاني) موضوعات لمطولاته: (عمر  
ونعم) و (عروة وعفراء) وانسحبت إيقاعات النغم المغنى المترقرق فى كتاب  
الأصفهاني على شعره فجاءت بحور قصائده من البحور القصيرة وذوات  
الإيقاع المطرب والمجزوءات.

ولبشارة الخورى مجموعتان؛ الأولى (الهوى والشباب) صدرت عام  
١٩٥٢؛ والثانية تضم جُلَّ شعره بعنوان: (شعر الاخطل الصغير) وقد  
صدرت عام ١٩٦١ عن مؤسسة الفونس بدران - بيروت، لبنان.

ولا يفوتنا أن ننوه إلى ذلك الحس القومى الذى يتجلى فى شعر  
الشاعر. والمتصفح لديوانه يجده محتشداً لكل ما ألم بالأمّة العربية، معبرا  
عنه بقصائد تفيض غضبا حيناً وأسى أحيانا ..

فنقرأ له:

يا أمة غدت الذئاب تسوسها  
غرقت سفينتها قأين رئيسها؟

تعسا لها من أمة.. أزعيمها  
جلادها؛ وأمينها جاسوسها؟  
أشبال ذا الوطن الجريح إلي متى  
أنتم سـيـوف بلادكم وتروسـها  
موتوا كراما أو فـعـيشوا أمة  
تـهـوى على يدها العـلا وتبـوسـها  
ولعل قصيدته عن ثورة فلسطين التي مطلعها:  
سائلي العلياء عنا والزمانا  
هل خفرنا ذمة مذ عرفانا؟  
المروءات التي عاشت بنا  
لم تزل تجري سعيـرا في دمانا  
وفيها يقول:

عرس الأحرار أن تسقي العدا  
أكؤسا حمرا وأنغامنا حزاني  
غذت الأحداثُ منا أنفسا  
لم يـزدها العنف إلا عـنفـوانا  
شرف للموت أن نطعمه  
أنفساً جـبـارة تأبي الهوانا  
يا فلسطين التي كـدنا لما  
كابدته من أسي نفسي أسانا  
نحن يا أخت علي العهد الذي  
قد رضعناه من المهد كلانا

ولقد ظل شعر الأخطال الصغير يمثل حضوراً قوياً في شعرنا العربي  
المعاصر حتى وافته المنية في منتصف الستينيات. ونفصت منه الدنيا راحتها  
على تشبثه بها. ورحل عن عالمنا وأصداء صوته تردد قوله:

دعني وما زرع الزمان بمفرقي  
ما كنت أدفن في الثلوج صداحي  
من كان من دنياه ينفض راحه  
فأنا علي دنياي أقبض راحي







---

عمر أبو ريشة:  
كبرياء الألم

---



هو واحد من فرسان القصيدة العربية فى شكلها المتوارث؛ لم يبق بعد  
رحيله من فرسانها؛ سوى شاعر العراق الكبير محمد مهدي الجواهري  
الذى خلد إلى الصمت فى منفاه الاختيارى؛ وعبد الله البردوني شاعر  
اليمن الكبير، وأحمد سليمان الأحمد الشاعر السوري؛ ونزار قباني، الذى  
ينزو علي هذا الشكل؛ محفلياً؛ حيناً.. ويعافه إلى قصيدة التفعيلة فى أكثر  
الأحيان...

استطاع شاعرنا عمر أبو ريشة؛ بإبداعه المتميز أن يضخ فى شرايين  
هذه القصيدة دماء جديدة. مشكلاً بذلك (حدائة) لها سمتها الخاص.  
فالقارئ لقصيدته لا يستطيع أن ينسبها خالصة إلى تقليدية مستهلكة. بل  
ربما لا يجد الباحث عن آثار هذه التقليدية إلا محافظة الشاعر على شكل  
البيت الشعري بشطريه وإيقاعاته المتوارثة. ولنقرأ له من قصيدته (محاجر  
البركان):

لا تصفحى عنى.. ولا تغفري  
إنى أحب المرأة الحاقده ..  
قولى ابتعد عنى.. قولى انطلق  
ما شئت فى أهوائك الفاسده  
يجرح من زهوى تغاضيك عن

أمسى وعن أحلامك الشارده  
لو بين جنبيك بقايا هوى  
لكنت فى هذا اللقا زاهده  
محاجر البركان، لم تكتحل  
بالثلج.. لولا ناره الهامده ..!!

لقد عزف أبو ريشة الشعر على أنه (تمرد على واقع الحياة..); وأنه  
(وليد الحياة الذى يدر عطاء ..) وقيمته الكبرى تتوقف على عمق التجربة  
الفردية؛ فجهد أن يحقق ذاته الخاصة فى إبداعه، متفرداً فى أسلوبه،  
ومحققاً نصه الشعرى مجلوا فى شفاف رهيبة من حداثة لها حضورها فى  
شعرنا المعاصر، ولها مذاقها الفريد.

#### هياة .. وعطاء

وشاعرنا هو عمر بن شافع أبو ريشة الشهير بعمر أبى ريشة؛ لقب  
بشاعر الحب والجمال. وهو فلسطينى المولد. حيث ولد فى (عكا) بتاريخ  
١٠ / ٤ / ١٩١٠. (وقد سجل والده؛ خطأ؛ تاريخ ميلاده على أنه عام ١٩٠٨؛  
وبقى هذا التاريخ بدون تصحيح؛ كما يؤكد الكاتب المتخصص بالبحث  
التوثيقى الأستاذ يوسف عبد الأحد فى عدد جريدة: الحياة الصادر فى  
١٦ / ٧ / ١٩٩٠ ..). والشاعر سورى الجنسية. حيث عاد والده إلى حلب بعد  
أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها.. وكان الوالد شاعراً مفطوراً.  
أما والدته فهى من أسرة كريمة عريقة اشتهرت بالتدين. قضى الشاعر  
طفولته فى حلب. وتلقى دراسته الابتدائية فى مدارسها؛ والثانوية فى الكلية  
الأمريكية. وفى عام ١٩٣١ التحق بالجامعة السورية بدمشق.

انتقل بعد ذلك إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت. ثم سافر إلى  
مانشستر لدراسة صناعة النسيج والكيمياء العضوية؛ ونال إجازة فيهما

وتزوج عام ١٩٣٩ وأنجب ثلاثة أبناء. وعين مديراً لدار الكتب الوطنية في حلب عام ١٩٤٠.

التحق عمر أبو ريشة بالسلك الدبلوماسي، وعمل سفيراً لسوريا وللجمهورية العربية المتحدة في دول شتى بآسيا وأوروبا وأمريكا. وتقلد عدداً من الأوسمة. وقد حكم عليه بالإعدام في الأربعينيات. وكان شعره يعكس روحه القومية، وقد تغنى بالأم أمتة وأحلامها. ومن أقواله في هذا الصدد:

«كنا في الماضي البعيد نجرو على البوح؛ حاملين الكلمة الحق إلى جانب الحديد والنار؛ وفي مواجهتهما؛ أما اليوم فلا أجد مكانة للكلمة بعد أن احتل الحديد والنار مساحة الوطن.. ومساحة الزمن...».

وربما لهذا السبب كان الشاعر مقلداً في أواخر عمره...!!



ولعمر أبي ريشة مجموعة من الإصدارات الشعرية، صدرت على النحو التالي:

- ١ - شعر عام ١٩٣٦ بحلب.
  - ٢ - من عمر أبي ريشة عام ١٩٤٦ عن دار مجلة الأديب بيروت.
  - ٣ - مختارات عام ١٩٥٩ عن المكتب التجارى ببيروت.
  - ٤ - الأعمال الشعرية الكاملة عام ١٩٧١ عن دار العودة بيروت.
  - ٥ - غنيت في مائتى عام ١٩٧٤ عن دار العودة ببيروت.
  - ٦ - من وحى المرأة عام ١٩٨٤ عن دار طلاس. دمشق.
- فضلاً عن ديوان بالإنجليزية بعنوان: (السفير الجوال) صدر عام ١٩٥٩، وله - أيضاً - خمس مسرحيات شعرية هي: (ذى قار؛ سميراميس؛ الحسين بن على؛ الطوفان؛ عذاب؛ وهى أوبرا من فصل واحد..).
- وقد رحل أبو ريشة عن عالمنا في الخامس عشر من يوليو (تموز) عام ١٩٩٠. عن عمر جاوز الثمانين بشهور قلائل.

## الانتماء: بين الشكل والمضمون

«إنى لازلت حريصاً على أن يكون الشعر نغماً .. وإيقاعاً..».

هكذا يرى عمر أبو ريشة الشعر؛ فناً موسيقياً فى المقام الأول؛ ومن هنا لم يخرج فى شعره عن عمود الشعر القديم، من حيث الشكل؛ وظل وفياً له، وإن نضحت قصائده - كما أسلفنا - بروح جديدة مبدعة تجلت فيها الأبجدية الشامية - على حد تعبير نزار قباني - الذى تأثر بشاعرنا كثيراً؛ كما سنوضح فيما بعد ..

هذه الرؤية الموسيقية لفن الشعر أسبغت على شعر أبى ريشة سمات متميزة منها: تأنقه فى اختيار اللفظ وجرسه؛ وإحساسه المرهف ببنية وتناغم العبارة الشعرية؛ وحرصه على القافية التى يراها تاجاً للبيت الشعرى؛ وقيمة جمالية يجب أن توظف إلى أبعد حد وأقصى طاقة إبداعية لدى الشاعر. كما تتجلى تلك الرؤية .. الموسيقية فى اختياره للأوزان المرقصة؛ وولعه بإيقاع المجزوء من الأبيات - دون التام - وهو فى ذلك كله؛ من حيث حرفية الشاعر المبدع؛ لا ينسى انتماءه القومى أو رسالته الشامية. ولننقف معه عند قصيدته: (هؤلاء):

تتساعلين: علام يحيا هؤلاء الأشقياء ..!!  
المتعبون. ودر بهم قفر.. وممر ما هم هباء..  
الذاهلون الواجمون أمام نعش الكبرياء..  
الصابرون على الجراح، المطرقون على الحياء  
أنستهم الأيام ما ضحك الحياة.. وما البكاء  
أزرت بدنياهم؛ ولم تترك لهم فيها رجاء  
تتساعلين، وكيف أعلم ما يرون على البقاء  
امضى لشأنك.. واسكتى.. أنا واحد.. من هؤلاء

هو انتماء بلا خطابة زاعقة؛ بدون تشنجات أو إيقاعات نحاسية أتحم بها الشعر العمودي. هو انتماء هامس صاف، قوته فى صفائه، وهى إحدى مميزات وخصائص شعر أبى ريشة القومى حيث يصدر شعره الوطنى هذا عن تأمل عميق بديلاً عن الحماس العنيف الزاعق.. تعكس تلك النبيرة الواعية قصيدة أخرى بعنوان: (صلاة):

رب طوقت مغانينا جمالاً.. وجلالا  
ونثرت الخير فيهن يمينا.. وشمالا  
رب هذى جنة الدنيا.. عبيراً وظلالا  
كيف نمشى فى رباها الخضر تيهها.. واختيالا  
وجراح الذل نخفيها عن العز احتيالا  
رُدُّها قفرأء.. إن شئت.. ومَوَجُّها رمالا  
نحن نهواها - على الجذب - إذا أعطت رجالا..!!

ولا تخفى هنا حرفية الشاعر - كما فى قصيدته السابقة - فى التمهيد لبيته الأخير الذى يكثف رؤيته، ويعكس قدرته على تجسيد النهايات الخاطفة فيه؛ حيث يبدو هذا البيت متنا للقصيدة تؤول إليه كلها. أو مركز جذب تجتمع فيه أبعاد القصيدة، يمتصها من شتى أقطارها، بؤرة تعكس تجليات المعنى الأخير. وقد يرى بعض غواة الإبهام عيباً فى وضوح الشاعر، ونؤكد أن التقرير - هنا وكما يقول إيليا حاوى - لم يفقد شجو العبارة ولا شاعرية البناء. بل سما بهما. ولنتوقف عند نموذج ثالث للشاعر يتجلى فيه انتقاؤه لمجزئات الأوزان الخفيفة؛ غير المركبة، موسيقياً؛ ويؤكد على تمزقه بين كبرياء الألم وسطوة المجد الغارب.. يقول فى قصيدته: (زاروا بلادى):

زاروا بلادى.. نافرين من الخيال إلى العيان  
متشوقين لرؤية الحسناء عنقاء الزمان

أنا صغت فتنتها بما أوحى إلي بها افتتاني  
 غنيتها حتى غدت في مسمع الدنيا أغاني  
 أطلقتها من خدرها مجلى السنا والعنفوان  
 وجعلت فتيتها حماة المجد فرسان الرهان

.....

زاروا بلادى.. فاخبتأت.. (خشيت أن يدروا مكانى)!!  
 إنه الهروب من الواقع إلى الحلم والمثال.. ثم الإفاقة والارتطام به.. ويا  
 لها من مفارقة مؤسسية يسردها الشاعر في سخرية جارحة..!!

● ● ●

#### خصائص ومميزات

خصائص أخرى كثيرة نستطيع أن نشير إليها في شعر عمر أبي  
 ريشة؛ ولكن مجال الدراسة يضيق عن استقصائها؛ هذه الخصائص يمكن  
 أن تشكل ما أطلقنا عليه أو ما قصدنا به (حداثته الخاصة). منها تلك النزعة  
 القصصية في شعره وقصيدته (دليلة) مثال على ذلك وتتفرع من هذه النزعة  
 قدرته ولوعه بسرد التفاصيل والوقائع البسيطة والمألوفة وعرضها في غلائل  
 شعرية خلابة. ومنها قصائده القصار النافذة كالسهام؛ والتي عرف بها على  
 الرغم من شهرته كشاعر مطيل في قصائده الإحتفالية؛ والتي ينتقى لها  
 أوزاناً مركبة أحياناً؛ ونذكر من قصائده القصار؛ التي يمكن أن نطلق عليها  
 (موتيفات شعرية) قصائد: (محاجر البركان - قطرة الزيت - طال دربي ،  
 لست أحيا..). ونستطيع أن نضيف إلى تلك الخصائص ذلك (الحضور الملح  
 للمكان) في قصيدته؛ فهو بحكم عمله في الحقل الديبلوماسي تنقل بين أقطار  
 عديدة؛ لذلك نجد له قصيدة بعنوان (إفرست). ونصحيه متجولاً في



(كاجوراو) و معبدها فى الشرق الأقصى. وفى قصيدة (دليلة) نراه يستقبل  
حبيبته فى (فيينا) حيث (الدانوب)...

وتعزّت على الشتاء (فيينا)  
واكتست بالغمام المجدولة  
وتلوى (الدانوب) بين يديها  
متغياً .. صاحباً خطاه الثقيلة

وربما حلق بالمكان فكان (الطائرة) حيث يلتقى بسائحة إسبانية وهو فى  
طريقه إلى شيلي.. وربما اتسع المكان فكان العالم الذى استوعبه جغرافيا  
فى قصائده أو انحصر فى تلك الحجرة الضيقة المهجورة/ القلب الصدى  
الذى يتحدث عنها فى قصيدته (إقرئها).. وفى الحالىن كان للمكان حضور  
قوى نافذ..

إنها حجرتى..

لقد صدئ النسيان فيها:

وشاخ فيها السكوت

ادخلى بالشموع؛

فهى من الظلمة وكر؛

فى صدرها منحوت

وانقلى الخطو باتئاد؛

فقد يجفل منك الغبار والعنكبوت

عند كأسى المكسور

حزمة أوراق؛

وعمر فى دفتيها شتيت

احملها ..؛

ماضى شبابك فيها؛

والفتون الذى عليه .. شقيت

اقرئها ..؛

لا تحجبى الخلد عنى ..

انشريها .. لا تتركينى أموت ..

هذا الرصد اللماح للأشياء؛ والشاعرية فى سرد تفاصيلها المرئية والمحسوسة؛ وتفجير الموقف الشعري من خلال العادى والمألوف؛ هذا كله سيلاحظه القارئ فيما بعد منسرباً فى ثنايا قصيدة التفعيلة التى حمل لواءها رواد الحداثة فى شعرنا العربى المعاصر.

بين أبي ريشة .. ونزار قباني

لا يخطئ القارئ لمجموعات نزار قباني الشعرية الأولى: (قالت لى السمراء؛ طفولة نهد؛ أنت لى؛ حبيبتي؛ قصائد) تلك الأصدا المقتعة حيناً؛ والسافرة أحياناً، لشعراء مثل إلياس أبى شبكة؛ والأخطل الصغير؛ وعمر أبى ريشة. هؤلاء الشعراء الذين اعترف لهم بهيمتهم على بداياته فيورد فى كتابه (قصتي مع الشعر)؛ حينما تحدث عن معلمه المدرسى خليل مردم بك قوله: (.. أضيف إلى هذه التأثيرات الأولى قراءاتى اللبنانية فى الأربعينيات؛ فمن مفكرة أمين نخلة الريفية وبساتين بشارة الخورى وإلياس أبى شبكة.. إلخ تعلمت الخروج من البر الشعري الذى لا يتحرك إلى البحر الكبير.. بكل احتمالاته ومجاهيله.. ص ٤٧) بل يعود ليستنكر هذا الجحود الذى تلقاه هذه الأسماء فى إطار حركة التجديد والحداثة فيقول ص ٦٩ من الكتاب نفسه .. (.. خطأ كبير جداً. خطأ تاريخي؛ وخطأ أخلاقي أن لا نضع فى قائمة الثوار اسماً كإلياس أبى شبكة وخطأ أكبر أن ننسى عند حديثنا عن الثورة والثائرين قامة كقامة بشارة الخورى وأمين نخلة وعمر أبى ريشة .. إلخ..).

وإذا كانت قصائد (أفاعى الفردوس) لأبى شبكة تترقق ظلالتها فى قصائد نزار الأولى، فإن قصيدة (حكاية) لنزار قبانى من ديوانه (أنت لى) والتي مطلعها:

كنت أعــدو فى غـابة اللوز لما  
قــال عني أمـاه أنى حلوه  
وعلى سـالفى غـفا زرُورِدٍ  
وقـمـى صـى تفلُتت منه عـروه

تشير إلى مصدرها الملم فى قصيدة بشاره الخورى (هند وأمها) التي يقول فيها:

أنت هند تشكو إلى أمـها  
فسـبـحـان من جمـع النـيرين  
(فى مكان لاحق سنعرض بتفصيل أكبر لهذه القصيدة).

إذا كان هذا التأثر واضحاً فإن تأثير عمر أبى ريشة أكثر وضوحاً على الشاعر؛ ويكفي أن نعرض هنا نموذجين فقط وفى مراحل تالية من حياته الشعرية.

فى ديوان (الرسم بالكلمات عام ١٩٦٦، تطالعنا لنزار قبانى قصيدة: (غرناطة) التي كتبها أثناء وجوده دبلوماسياً فى إسبانيا ويروى فيها عن لقائه بإسبانية فى مدخل قصر الحمراء .. وكيف أيقظت من خلال قسماتها وعينيها ذكريات المجد العربى فى الأندلس .. وفى حوار يفيض زهواً من جانبها؛ فاجأته:

قالت: هنا الحمراء .. زهو جدودنا  
فاقرأ على جدرانها أمجادى  
أمجادها..؟؟!! ومسحت جرحاً نازفاً

وكتمت جرحاً آخراً بفؤادى  
يا ليت وارثتى الجميلة أدركت  
أن الذين عندهم هو أجسادى  
عانقت فيها عندما ودعتها  
رجلاً يسمى (طارق بن زياد)!!

فى شعر عمر أبى ريشة قصيدة بعنوان (فى طائفة) صدرها بقوله:  
«كان فى رحلة إلى شيلي؛ وكانت إلى جانبه حسناء إسبانيولية؛ تحدثه  
عن أمجاد أجدادها القدامى العرب دون أن تعرف جنسية من تحدث..»  
ثم تأتى القصيدة التى نورها كاملة بين يدي القارئ:

وثبتت تستقرب النجم مجالا  
وتهادت تسحب الذيل اختيالاً  
وحياىالى غداة تلعب فى  
شعرها المائج غنجاً ودلالاً  
طلعة رياء، وشئ باهر  
أجمال؟؟ جل أن يسمى جمالا  
فتبسمت لها ... فابتسمت  
وأجالت فى الحاظا كسالى  
وتجاذبنا الأحاديث فمما  
انخفضت حسا؛ ولا سفت خيالاً  
كل حرف زل عن مرش فها  
نثر الطيب يمينا وشمالاً  
قلت: يا حسناء من أنت؟ ومن



عند معاصريه - ولكنه عالج أمر المرأة في وجه التنازع والمرارة والذكرى والخيبة والكبرياء والغربة، شاعراً عبر أحواله جميعاً معها بنوع من الخيبة واليأس وأنه - على حد تعبير إيليا حاوي في كتابه (عمر أبو ريشة: شاعر الحب والجمال) - يقبض فيها على طيف مخادع ويتخذ من العاطفة التي توثقه بها معبراً للتدليل على بؤس المصير البشري.

.. لذا فهو لا يقف عند الخارجي والسطحي في المرأة، إنما يغوص في نموذج بشريتها .. فهي جزء من الوجود الكبير .. ولا عجب أن نراه يقول:  
[.. لقد درجت في هذه الحياة الدنيا وليس في قلبي فراغ أو متسع  
لغير الحب، الحب المتجلى في المرأة .. في الوجد .. في القيم التي أومن  
بها..]

.. إنه يرى المرأة بؤرة تجمع هذه الإشعاعات جميعها .. ثم تعيد نشرها وتوزيعها في شتى مناحي الحياة.

وهو لم يجرح كبرياء امرأة.. ولم يقبض منها إلا على طيف مخادع..  
لذا ليس غريباً أن تتردد مثل هذه النغمة كثيراً في قصائده:

لَكَ مَا أَرَدْتُ.. فَلَنْ أَسْأَلُ  
كَيْفَ انْتَهَتْ أَعْرَاسُ بَابِلَ  
حَسْبِي مَرَرْتُ بِخَاطِرِ  
النَّعْمَى هُنِي هَاتِ قَلَائِلُ  
لَكَ مَا أَرَدْتُ.. فَلَنْ أَغْيِرَ  
مَا أَرَدْتُ .. وَلَنْ أَحْـأَوِّلُ  
إِنِّي رَمَيْتُ بِمَنْجَلِي  
وَتَرَكْتُ لِلطَّيْرِ السَّنَابِلُ

إنه يؤثر الانسحاب النبيل على المواجهة التي قد تجرح كبرياء امرأة ..  
حتى هذه النغمة الرقيقة المعاتبة تتفجر في حالات الغضب العارم فلا

يصوغها الشاعر إلا فى نسيج رقيق من الألم.. ينسحب ذلك على قصيدته القومية.. أيضاً:

أمتى هل لك بين الأمم  
منبرٌ للسيف.. أو للقلم  
أقلقك.. وطرفى مطرق.  
خجلا من أمسك المنصرم  
ويكاد الدمع يهيمى عابثا  
ببقايا كبرياء الألم  
أمتى.. كم غصة دامية  
خنقت نجوى عاك فى فمى  
إسمعى نوح الحزانى واطربى  
وانظرى دمع اليتامى.. وابسمى  
ودعى القادة فى أهوائهم  
تفانى.. فى خسيس المغنم  
رباً (وامعتصماه) انطلقت  
ملء أفواه البنات اليتيم  
لامست أسماعهم لكنها  
لم تلامس نخوة (المعتصم)  
أمتى. كم صنم مجذته  
لم يكن يحمل طهر الصنم

وبعد...

فهذا هو عمر أبو ريشة شاعراً مبدعاً.. رحل منذ أعوام قلائل بعد أن

وهب شعرنا العربي الحديث من عمره وتجربته الكثير. وقد خلا، برحيله،  
الميدان من قامة مديدة لفارس من فرسان القصيدة العربية التقليدية.. فارس  
كان يرى - على حد تعبيره - «أن معيار الحضارة هو مقدار تمكن الفرد من  
تذوق الجمال...».





---

# نزار قباني بين المرأة وقضايا المجتمع العربي

---



ليس باستطاعة الدارس للأدب العربي الحديث أن يغفل ما لنزار قباني من سطوة وتأثير على جمهور الشعر العربي. كما أنه ليس لمنكر مهما لج في الإنكار أن يسلب شاعرنا هذه الميزة الفريدة التي توجته شاعرا جماهيريا في زمن ندر فيه جمهور الشعر بوجه خاص والأدب بصفة عامة. وقد يقف خصوم الداء للشاعر ينالون منه ويحاولون الاساءة إليه. على أنهم - وإن استطاعوا النيل منه أحيانا - لم يختلفوا حول مكانته التي تبوأها على خريطة الشعر العربي الحديث، والتي تفرد بها واستأثر - جماهيريا - دون أقرانه من شعراء العربية المعاصرين .

ولسنا بصدد الحديث عن هذه المكانة. ولا بسبيل عرض أسبابها ودواعيها .. ولكننا نرى أن قضية المرأة التي أخلص نزار في التعرض لها منذ ديوانه الأول ( قالت لى السمراء ) في سبتمبر ١٩٤٤ وتلته دواوين الشاعر الأخرى واقتحمت قصائده في جرأة فنية تزمّت الشرق الفكري والفني ونظرت للمرأة آنذاك.. منذ ذلك التاريخ استطاع نزار أن يضع قدمه على أول الطريق المؤدى إلى الجمهور العريض.. وأن يبدأ هذا الحوار الناجح الذي استمر مدى ثلاثين عاما .. والذي كون له هذه ( البروليتاريا الشعرية ) .. على حد تعبيره ( أى فى صفوف الناس حيث كانوا .. ومهما كانوا )<sup>(١)</sup> هذه البروليتاريا التي يفاخر بها نزار فيقول : ( أنا شخصا فتحت مثل هذا

(١) عن الشعر والجنس والثورة بيروت ١٩٧٢ ص ٧٥.

الحوار ثلاثين عاما .. أتى شعراء وذهب شعراء ، مات جمهور وولد جمهور .. انحسرت ثقافة وجاءت ثقافة ، أفلست أيديولوجيات وأنتصرت أيديولوجيات، سقطت مدارس شعرية وأزدهرت مدارس شعرية، ولا يزال حوارى مع الجمهور حارا وموصولا .. (١) .

ولعل هذه البروليتاريا الشعرية وهذا الحوار الناجح الموصول هو الذى جعل نزار يحس مع انفجار النكسة عام ١٩٦٧ بضرورة التعبير عنها والانخراط فى الشعر السياسى.. فبرغم أن نزار حمل بذرة التمرد والثورة - كما يقول - داخله منذ الصبا وورثها عن أب ( يصنع الحلوى والثورة ) . (٢) إلا أنه ظل ينأى بالشعر عن معترك الدم .. لقد تحول الشعر بطبيعته - عند نزار - إلى بندقية رغم أن نزار كان يخلق به بعيدا .. واضطره الشعر إلى الهبوط .

( مهمة القصيدة كمهمة الفراشة .. هذه تضع على فم الزهرة دفعة واحدة جميع ما جنته من عطر وريح متقلبة بين الجبل والحقل والسياح وتلك - أى القصيدة - تفرغ فى قلب القارئ شحنة من الطاقة الروحية تحتوى على جميع أجزاء النفس وتنتظم الحياة كلها .. يجب أن لا نطلب من الشعر أكثر من هذا .. ويتجنى على الشعر الذين يريدون منه أن يغل غلة وينتج ريعا . فهو زينة وتحفة باذخة فحسب .. كآنية الورد التى تستريح على منضدتي .. لست أرجو منها أكثر من صحبة الأناقة .. وصداقة العطر.. ) (٣) .

فى مقدمة طفولة نهد يكتفى نزار من الشعر بصحبة الأناقة وصداقة العطر .. وهو هناك أيضا يخطئ فى فهم المطلوب من الشعر أو لا يجد للشعر وظيفة غير دغدغة المشاعر .. وبشت الوظيفة .. ونحن سنلاحظ بعد ذلك أن وظيفة الشعر عند نزار تبلورت؛ ومع مسيرته الفنية؛ أستطاعت الزهرة أن تتحول إلى عقاب أو نسر فى ضمائر الطغاة يحوم ولا يهدأ .. سنجد هذا كله .. ولكن مع وظيفة الشعر عند نزار فى مرحلته الأولى نقف قليلا لنجده يقلب المائدة فيخطئ فى فهم الالتزام ..

(١) عن الشعر والجنس والثورة ص ٤٦ .

(٢) قصتى مع الشعر ص ٢٨ .

(٣) مقدمة طفولة نهد الطبعة الحادية عشر ١٩٧٢ .

( يفترض فى أن أكون نافعا . أن أحمل للقارئ على كتفى خبزاً وعسلاً وطحيناً . أن أشحن كل نقطة . كل فاصلة بمعلقة فيتامين تزيد شحم الناس ولحمهم . أن أجعل أدبى كمصلحة للتعاونيات تمون الناس بالفحم ، والزيت ، والدواء ولا تهتم إلا بمعد الجمهور وجهازه الهضمى .. ) (١) .

(والأدباء الملتزمون على اختلاف دعاوهم وقضاياهم - ليسوا سوى مبشرين بأكل الجمال .. ليسوا سوى أكلة زنبق .. هنا نختلف .. لأن الجمال يجب أن يبقى فى معزل عن (التصنيع) و (التأميم) ومراكز الخدمات الاجتماعية .. ) (٢) .

ومخطيء من يطلب من الشاعر أو الفنان أن يحمل لقارئه خبزاً وطحيناً .. وليس عاراً لشاعر أن يقود قارئه إلى منابع حياتية تدر عليه عسلاً وخبزاً .. ولن نناقش نزار فى رأيه .. فهو قد أحس بتحولاته الشعرية .. ولكن نسوق للقارئ قول نزار :

(الشعر بعد حزيران يكون قطعة سلاح أو لا يكون .. يكون بندقية .. خندقاً .. لغماً .. أو لا يكون .. كل كلمة لا تأخذ فى هذه المرحلة شكل البندقية تسقط فى سلة المهملات وتصير علفا للحيوانات .. ) (٣) .

وهنا نتساءل : لماذا بعد حزيران ؟؟ ونتساءل : هل كان لابد من حزيران حتى يعى نزار والشعراء ذلك ؟؟ .. ربما قادنا إلى حزيران أن الشعر قبله لم يدرك هذه الحقيقة .. حقيقة تأثيره وأهمية فعاليته التى كان نزار نفسه يأبى برومانسية أن يعترف بها .. القصيدة التى كانت زهرة فى أنية لا يقبل منها نزار غير صحبة الأناقة وصداقة العطر .. أصبح يقول عنها نزار ( لا قيمة لفن لا يحدث ارتجاجاً فى قشرة الكرة الأرضية . ولا قيمة لقصيدة لا تشعل الحرائق فى الوجدان العالم .. ) (٤) .



(١) الشعر قنديل أخضر ص ١١٨ .

(٢) الشعر قنديل أخضر ص ١٢٤ .

(٣) قصتى مع الشعر ص ٢٣٣ .

(٤) قصتى مع الشعر ص ٢٢٠ .

( الشعر يد .. والجمهور باب .. والشاعر الذى لا يتجه بشعره إلى أحد يبقى نائما فى الشارع .. شعراء كثيرون لا يزالون نائمين فى الشارع لأنهم لا يحفظون التميمة التى تفتح مغارة ( على بابا ) .. وأزمة الشاعر الحديث الأولى هى أنه أضاع عنوان الجمهور .. )<sup>(١)</sup> .

ولقد عرف نزار العنوان منذ زمن .. وعرف كلمة السر التى فتحت باب المغارة .. إلا أننا نظن أنه أخطأ فى استعمالها .. فنزار له من الشعبية وال جماهيرية ما يجعله فى أول القائمة التى تكاد تخلو بعده .. فلماذا لم يوظف هذه المكانة ويوجهها وجهتها السليمة ؟؟ لماذا لم يقف ليعبر عن آلام هذه الجماهير التى أعطته الكثير من حبها من زمن بعيد ؟؟ باستثناء ( خبز وجشيش وقمر ) عام ١٩٥٤ لا نجد لنزار قبل النكسة من الشعر الذى يتناول المجتمع العربى بمشاكله المعقدة - لنترك جانبا إلى حين قضية المرأة فهى ميدان فروسية نزار - أقول باستثناء هذه القصيدة لا نكاد نعثر على بيت من الشعر يعبر عن مشاكل هذه الجماهير التى عرف نزار طريقها ..

وقد يكون نزار بدأ معالجة فن الشعر جماليا مهتما به كتحفة باذخة وقد يكون انتهى أخيرا إلى الانتماء للشعر كصلصال ساخن من يضع يده فيه يشمر عن مرفقه لمواجهة النار .. ونحن نعرف أن النكسة كان لها دور كبير فى هذا .. وعلى دويها كانت إفاقة الكثيرين لا نزار وحده .. ولكننا لو نظرنا إلى شعر نزار - وهو موضوع دراستنا - لا نجد اهتماما بمشاكل هذه الجماهير التى تغنى لها غناء عفويا .. وحتى المرأة وهى ميدان لم يتعرض لمشاكلها كما هى فى واقعنا الاجتماعى من الأربعينات - وقت ظهور نزار على مسرح الشعر - بل أننا سنجد نماذج المرأة عنده فى البلفدير وشارع الحمراء وأكسلسيور والزمالك وليست المرأة فى الأهوار العراقية أو بولاق القاهرة أو الريف أو الصعيد . إنها فتاة الجامعة الأمريكية وليست المرأة فى جنوب السودان حيث تعاني من المشاكل الملحة التى تواجه مجتمعا من مجتمعات العالم الثالث.

(١) قصتى مع الشعر ص ١٥٧ .

كذلك لا نجد الشاعر يلقي ضوءاً على مشاكل التخلف من جهل وأمية ومرض واستعمار اقتصادي وغير ذلك من الواقع الاليم الذي قد يكون انعكس على واقع المرأة - ميدان الشاعر - ولم يره ..

وقد يكون نزار بدأ متأخراً في الالتفات إلى التحليل والنظر في مآسينا السياسية والاجتماعية ولكنه أيضاً حين بدأ ذلك تعثر ونظر من ثقب ضيق .. فهو مثلاً يقول : (حزيران كان هزيمة للجسد العربي أيضاً. هذا الجسد المحتقن المتوتر الشاحب الذي لا يعرف ما يفعل وإلى أين يذهب .. الجسد العربي هزم لأن المحارب لا يستطيع أن يحارب إلا إذا كان في سلام مع جسده ..) (١) .

لا أظن أن هذا السبب الأول .. ولا يظن أحد أنه السبب العاشر أو الحادي عشر .. إن المنظور الجنسي الذي يفسر به نزار الهزيمة قد يكون أحد الأسباب في تخلفنا الحضاري وقد يكون مظهرًا من مظاهر هذا التخلف أن يفسر نزار الهزيمة بهذا التفسير مثلاً .. إن الجسد العربي هزم مثلاً لأنه صحياً كان منهاراً فالأنيميا التي تفتك بفلاحى الجيش والأمراض المتوطنة ومشاكل الفقر والامية التي نعاني منها هي التي - في المجال الأول - لا تخلق لنا مواطنًا سليماً فضلاً عن ذلك - تأتي في مقدمة الأسباب فشل القيادة وسوء التخطيط ودخول الحرب بمنطق الطلبة والريابة .. على حد تعبير نزار نفسه ..

إن كثيراً من قضايا الملحة لم يفكر فيها نزار طوال مسيرته الشعرية منذ ثلاثين عاماً .. وقد اتخذ له ميداناً خطيراً هو قضايا المرأة .. وسنتناول ذلك بعد قليل .. ولكن المشكلات الملحة الأخرى لم يتعرض لها إلا لماماً .. رغم إصراره الشديد منذ القصيدة الأولى على عفوية غنائه حتى يتواصل مع الجماهير .. ورغم تأثيره الشديد في قاعدته الجماهيرية بعد ذلك .. وهنا ندين نزار ونشير إليه بإصبع الاتهام الأول ..



(١) يوميات امرأة لامبالية ص ٢٢ .

منذ انتحرت (وصال) شقيقة الشاعر الكبرى التى قتلت نفسها بكل  
بساطة وشاعرية منقطعة النظير لأنها لم تستطع أن تتزوج حبيبها .. منذ أن  
انتحرت ومشى فى جنازتها الشاعر وزرعوها أمامه فى التراب وهو فى سن  
الخامسة عشرة .. منذ هذا التاريخ ( وكان والده يصنع الحلوى والثورة )  
وكان (عم والده أبو خليل القباني قد تحدى الباب العالى) تفجر التمرد فى  
صدر الصبى .. بالطبع اتخذ الشاب نزار قباني قضية المرأة أرضا يحرق  
منها المجتمع العربى - ولا نعفيه من إطالته الوقوف بهذا الموضوع زمناً  
(ثلاثين سنة) ولا ننسى فنظلمه لأنه كتب أشياء أخرى إلى جانب هذه الزاوية  
الضيقة - برغم اتساعها - نقول إن لاستشهاد وصال اثرا كبيرا فى اتخاذ  
نزار لهذه الزاوية وتكريسه شعره لقضايا المرأة وله فى ذلك عذر كبير .. هو  
نفسه يتسامح عن مدى هذا الأثر فى نفسه :

( هل كان موت اختى فى سبيل الحب احد العوامل النفسية التى  
جعلتني اتوفر لشعر الحب بكل طاقاتي واهبه كل كلماتي ؟؟ هل كانت  
كتاباتي عن الحب تعويضا لما حرمت منه اختى ؟؟ وانتقاما لها من مجتمع  
يرفض الحب ويطارده بالفنوس والبنادق ؟؟ إننى لا أؤكد هذا العامل  
النفسى ولا أنفيه .. ولكنى متأكد ان مصرع اختى العاشقة كسر شيئا فى  
داخلى .. وترك على سطح بحيرة طفولتى أكثر من دائرة .. وأكثر من علامة  
استفهام) (١) .

وتصدى الشاعر لموقف المجتمع من قضية المرأة .. وكان موقفا متزمنا  
ورجعيا .. منذ ديوانه الأول ( قالت لى السمراء) الصادر عام ١٩٤٤ حاول أن  
يتمرد على السجن والسجان ويقود المرأة عبر الدغل الشائك إلى حريتها  
ففاجأ الناس فى هذا الوقت المتقدم بقصائده تلك .. وكانت قصيدته (ورقة  
إلى القارئ) التى يقول فيها :

بأعراقى الحمر امرأة      تسير معى فى مطاوى الردا  
تفج وتنفخ فى أعظمى      وتجعل من رئتى موقدا

(١) قصتى مع الشعر ص ٧١ - ٧٢



لو آمنة بفكرة التناسخ هل لنا أن نتساءل : ترى هل حلت في الشاعر  
روح وصال ؟؟

نعود فنقول لقد استقبلت دمشق (قالت لي السمراء) استقبالا صاخبا ..  
رفعت السيف على عنق الشاعر .. أما الطلبة فقد احتفوا بقصيدة (نهداك)  
في الديوان .. على أن ما يعنينا هنا القصيدة الأخيرة في الديوان بعنوان  
(البغي) .. ولنلاحظ هنا ولنرغب نزار طالب الحقوق .. في إحدى مرافعاته أو  
أولاهما في هذه القضية .. ولنرغب أسلوبه الشعري .. المنطقي .

يا لصوص اللحم يا تجاره      هكذا لحم السبايا يؤكل  
تُسال الأنثى إذا تزنى، وكم      مجرم دامى الزنى لا يسأل  
وسرير واحد ضمهما      تسقط البنت ، ويحمى الرجل

هذه أولى المرافعات وتوالت بعد ذلك الجلسات وبأشكال أخرى  
وبوسائل دفاعية متباينة .. ولكن إذا جاز لنزار ذلك عام ١٩٤٤ والسنوات  
التالية هل يجوز أن يستمر في ذلك حتى الآن بعد أن حققت المرأة الكثير من  
حريتها ومظاهر استقلالها الشخصي والاقتصادي ؟؟ أعنى أن القضية  
فقدت الكثير من وهجها وقيمتها ووجاهة حججها ومنطقيتها .

نعم لقد أبلى بلاء حسنا وصمد صمودا عظيما .. ولكن ذلك كان على  
حساب قضايا أخرى كان يعاني منها المجتمع .. وكان من الواجب أن يوليها  
قسطا من اهتمامه . بحكم نوعية خطابه الشعري المتجه صوب الإصلاح . إن  
الاحتلال والاستغلال ونكبة فلسطين ومشاكل التخلف والأحداث الثورية التي  
سادت هذا الشرق - ولا أنسى قصيدته خبز وحشيش وقمر - أقول أن هذه  
المشاكل كانت تتطلب منه اهتماما موازيا - على الأقل - لاهتمامه بالمرأة ..  
اهتماما يجعله يكتب أكثر من قصيدة .. خاصة أن وعيه تفتح على أب  
(يصنع الحلوى ويصنع الثورة) وعم والده حاول أن يبنى الإنسان العربي عن  
طريق مسرح طليعى .



## كتب نزار عن الأدب المستريح : (١)

( ان الأدب هو غرم قبل أن يكون غنما ، مسئولية لا نزهة على شاطئ نهر . فعلى الذين يريدون أن يدخلوا مصنع الأدب أن يلبسوا ثياب العمل ويغمسوا أيديهم حتى المرافق فى الصلصال الساخن .. أما الذين يخافون على بذلاتهم المكوية من نثرات الطين وعلى أيديهم اللساء من الحروق والجروح فإن مكانهم هو المصحات حيث تتوفر كنوس الشراب الساخن وأدوية الروماتيزم) .

من هذا المنطلق كتب نزار قصيدته ( خبز وحشيش وقمر) . لقد أحس أن دوره هو أن يواجه المجتمع المنهار بأسباب سقوطه وتهاويه.. وأن يرفض هذا البناء الهش ويساعد على نقضه لبنائه من جديد.. وكانت حروف هذه القصيدة من الصلصال الساخن.. هذه القصيدة التى جعلت دمشق تضربه بالحجارة والبندورة والبيض الفاسد عام ١٩٥٤ .. فى مقدمة القصيدة يقول:

(وبين رضى الراضين وسخط الساخطين فتحت القصيدة دريها فى الدنيا العربية الكبيرة تكسر الصقيع عن التابوت الذى حبسنا فيه حياتنا وتحطم القمم المسحور الذى فسد هواؤه منذ ألف قرن وتمزق نسيج الخيمة الكبرى التى نسجتها من أصابع الوهم والاتكال فجعلتنا لا ندرى أن وراء جدران الخيمة زرقه تولد من زرقه وبحيرات للصحو لا تنتهى ومزارع للنجوم بغير حدود) (٢) .

ثم يقول :

( هذه القصيدة كتبتها فى سبيل شرق أجمل وأفضل.. شرقى يرمى بخوره وتعاويذه وقماقمه وقرقرة نراجيلة إلى الشيطان ، وينتصب كالمارد فى موكب حضارة مستعجلة لا تنتظر الحالمين) .. ثم تأتى القصيدة.. وهى أشهر من أن نوردتها .. ولكننا نرى أنها من أقوى قصائد نزار الرافضة

(١) المستريح ص ١٦٤ الشعر قنديل أخضر .

(٢) ديوان (قصائد) مقدمة القصيدة .

الناقدة البصيرة - قبل وبعد النكسة - لما فيها من تحليل وتعرض لزوايا  
عديدة وسلبيات فى المجتمع العربى وتسلط أضواء كاشفة - فى ذلك الوقت  
المبكر - على أمراض الشرق الاجتماعية .. يقول نزار :

عندما يولد فى الشرق القمر  
فالسطوح البيض تغفو تحت أكداس الزهر  
يتترك الناس الحوانيت ويمضون زمر  
لملاقاة القمر  
يحملون الخبز والحاكى إلى رأس الجبال  
ومعدات الخدر  
ويبيعون ويشرون خيال  
وصور  
ويموتون إذا عاش القمر



ما الذى يفعله قرص ضياء  
ببلادى .. ببلادى الأنبياء  
وبلاد البسطاء  
ماضغى التبغ وتجار الخدر  
ما الذى يفعله فينا القمر  
فنضيع الكبرياء  
ونعيش لنستجدى السماء  
ما الذى عند السماء

لكسالى ضعفاء

يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمر

ويهزون قبور الأولياء

علها ترزقهم رزا واطفالاً .. قبور الأولياء

ويمدون السجاجيد الأنبيات الطرر

يتسلون باقيون نسميه قدر

وقضاء ..

فى بلادى .. فى بلاد البسطاء

.. هذا السؤال الحائر الذى يردده نزار (ما الذى يفعله قرص ضياء ؟؟)  
يعقبه سؤال أكثر حسرة (ما الذى عند السماء لكسالى ضعفاء؟؟) ويكرر  
الشاعر (بلادى .. ببلادى البسطاء) هذه النظرة المشفقة الحانية المشخصة  
تختفى من قصائده بعد النكسة .. ولنتابع مع الشاعر تجواله فى الشرق ..

أى ضعف وإنحلال

يتولانا إذا الضوء تدفق

فالسجاجيد والاف السلال

وقداح الشاى والأطفال تحت التلال

فى بلادى حيث يبكى السانجون

ويعيشون على الضوء الذى لا يبصرون

فى بلادى حيث يحيا الناس من دون عيون

حيث يبكى السانجون

ويصلون .. ويزنون .. ويحيون اتكال

وينادون الهلال : يا هلال

أيها النبع الذى يمطر ماس

وحشيشا ونعاس

أيها الرب الرخامى المعلق

أيها الشئ الذى ليس يصدق

دمت للشرق .. لنا عنقود ماس

للملايين التى قد عطلت فيها الحواس

.. لقد كان هذا الشرق المسجى فى غيبوبته بحاجة إلى أكثر من قصيدة  
مثل تلك التى بين أيدينا وقد تكون هزته هذه الأبيات ثم تركته يغفو ثانية لأن  
شاعرنا لم يستمر فى عزف هذا الحن الدامى .

فى ليالى الشرق لما يبلغ البدر تمامه

يتعرى الشرق من كل كرامه

ونضال

فالملايين التى تركض من غير نعال

والتي تؤمن فى أربع زوجات وفى يوم القيامة

الملايين التى لا تلتقى بالخبز إلا فى الخيال

والتي تسكن فى الليل بيوتا من سعال

أبدا ما عرفت شكل الدواء

تتردى جثثا تحت الضياء

فى بلادى حيث يبكى الأغبياء

ويموتون بكاء

كلما طالعهم وجه الهلال  
ويزيدون بكاء  
كلما حركهم عود ذليل وليالى  
ذلك الموت الذى ندعوه فى الشرق : ليالى  
وغناء  
فى بلادى .. فى بلاد البسطاء  
حيث نجتر التواشيح الطويله  
ذلك السل الذى يفتك بالشرق .. التواشيح الطويله  
شرقنا المجتر تاريخا واحلاما كسوله..  
وخرافات خوالى ..  
شرقنا الباحث عن كل بطوله ..  
فى أبى زيد الهلالي .. (١٤) .

وقد تكون هذه القصيدة تنبأت بحزيران .. ونحن كما أسلفنا لا نعى  
نزار من مسؤوليته فى أنه لم يركز طويلا على هذه الثغرات ما دام عرف  
الطريق إليها .. وستظل هذه القصيدة شامخة ترمى القفاز فى وجه الشرق  
الخائر المتهالك .. هذا الشرق الذى رفضه نزار والذى فقد الشاعر إيمانه  
بتقاليده الكهنوتية وعاداته البالية وإن لم يفقد إيمانه بأبنائه .. أبناء الأنبياء ..  
والبسطاء .. ونلاحظ هنا أيضا أن قضية المرأة لا تغيب عن ذهن شاعرنا  
أبدا .. فهذا الرجل الذى (يؤمن فى أربع زوجات) يعود إليه نزار قباني بعد  
ذلك قائلا : (٢) .

---

(١) ديوان قصائد .

(٢) يوميات امرأة لا مبالية ص ١٣٦ ، ١٣٧ الطبعة الرابعة ١٩٧٢ .

قضينا العمر فى المخدع

وجيش حريمنا معنا

وصك زواجنا معنا

وصك طلاقنا معنا

وقلنا الله قد شرع

ليالينا موزعة على زوجاتنا الأربع

هنا شفة، هنا ساق ، هنا ظفر ، هنا أصبع

كان الدين حانوت فتحناه لكى نشبع

تمتعنا ( بما إيماننا ملكت)

وعشنا من غرائزنا بمستنقع

وزورنا كلام الله بالشكل الذى ينفع

ولم نخجل بما نصنع

ولم نذكر سوى المضجع

ولم نأخذ سوى زوجاتنا الأربع

أثارت هذه القصيدة (خبز وحشيش وقمر) دمشق الخمسينات .. وربما  
كانت هى القصيدة الوحيدة لدى نزار التى تعالج قضايا المجتمع العربى أو  
تتعرض لها ببساطة وشفافية وشاعرية وصدق قبل وبعد النكسة .. ومن هنا  
أطلقنا الوقوف عندها ..



وماذا عن المرأة – ميدان فروسية الشاعر – اذا كان الاعتراف سيد  
الأدلة كما يقولون .. فلنستمع إلى صوت الشاعر :

( المرأة كانت ذات يوم وردة فى عروة ثوبى ، خاتما فى إصبعى ، همأً  
جميلاً ينام على وسادتى تحولت إلى سيف يذبحنى ، والمرأة عندى الآن  
ليست ليرة ذهبية ملفوفة بالقطن ولا جارية تنتظرنى فى مقاصير الحريم ولا  
فندقاً أحمل إليه حقائبى ثم أرحل .. المرأة هى الآن عندى أرض ثورية  
ووسيلة من وسائل التحرير .. اننى أربط قضيتها بحرب التحرير الاجتماعية  
التي يخوضها العالم العربى اليوم .. اننى اكتب لأنقذها من اضرار الخليفة  
وأظافر رجال القبيلة . إننى أريد أن أنهى حالة المرأة الوليمة أو المرأة المنسف  
وأحررها من سيف عنترة وأبى زيد الهلالي .. (١) .

منذ الديوان الاول للشاعر تطالعنا المرأة فى هذه الصور التي أجملها  
الشاعر فى مستهل اعترافه .. واهتمام الشاعر بها قديماً - وفى مطلع حياته  
الشعرية - كان اهتماماً مظهرها زائفا يعرضها فى فتارين الشعر. يتأنق فى  
تزيينها خارجياً دون التعمق فى أغوار نفسيتها. يتجلى ذلك فى ديوانيه  
الاولين (قالت لى السمراء) و (طفولة نهد) ؛

فهى ( صوتاً حريرى الصدى ناعماً حلواً ) (٢) .

وهى بتعبير رومانسى مسطح اله جميل

فى شكل وجهك (اقرأ) شكل الآله الجميل (٣) .

وهى (كوعاء الورد فى اطمئنانها) (٤) .

وهو يتسلم بريدها السرى ولا يساعدها على التمرد كما سيأتى بعد  
ذلك (اكتبى لى) وهى قانعة بعالم الحلم (انا محرومة) (٥) .

من فضلنا من بعض أفضالنا أنا اخترعنا عالم الحلم

(١) عن الشعر والجنس والثورة ص ١٧ .

(٢) اكتبى لى ص ٤٨ قالت لى السمراء .

(٣) أمام قصرها ص ٥٥ قالت لى السمراء .

(٤) فى المقهى ص ٦٣ قالت لى السمراء .



ونحن نجد أسماء للقصائد مثل (مذعورة الفستان) (فى المقهى)  
(غرفتها) (خاتم الخطبة) (القرط الطويل) (رافعة النهدي) (نهداك) (افيقى)  
(إلى عجوز) (مدنسة الحليب) فى ديوانه الأول قالت لى السمرء .. وأسماء  
مثل (الضفائر السود) (من كوة المقهى) (شمعة ونهد) (إلى ساق) (حلمه)  
(إلى رداء اصفر) (غرفة) (ذئبة) (مصلوبة النهدين) (المستحمة) (إلى وشاح  
احمر) (إلى مضطجعة) (همجية الشفتين) فى الديوان الثانى طفولة نهد .

ونلاحظ من أسماء هذه القصائد ومضمونها ان الشاعر اهتم اهتماما  
بالغا بوصف المرأة خارجيا كالشعراء العرب التقليديين الذين أجادوا وصف  
المرأة من جيدها إلى خصرها إلى اخمص قدميها .. كل ذلك بأسلوب عصري  
مع وجود محتويات حقيقتها العصرية من منتجات ماكس فاكوتور وإضافة  
اكسسوار غرفتها وديكور المحلات العامة التى تجلس فيها المرأة البيروتية أو  
الدمشقية .. نلاحظ أيضا فى هذه القصائد ذلك الجوع الجنسى النهم  
يتجلى ذلك مثلا فى مقدمات القصائد (إلى ساق) .. يقدمها الشاعر بقوله  
(نزلت من السيارة بحركة طائشة فانزاح ستر وعريدت ثلوج ثم استقرت فى  
مقعد وثير صالبة ساقها ..) ويتجلى هذا النهم الحسى بشكل خاص فى  
قصائد ديوان (طفولة نهد) وصور الشاعر فى هذه المرحلة تبرز ذلك مع  
اغراقها فى جزئيات عالم المرأة .. فى قصيدة (رسالة) يقول :

وعليها تركت ما يترك النهدي صباحا على نسيج الغلالة (١) .

كما نلاحظ عليه النرجسية - التى عرفت عنه - تطل برأسها؛ فضلاً عن  
اعترافه بتدنيها .. يقول :

أعيدني إلى أصلى جميلا فمهما كنت .. اجمل منك نفسى (٢)

وهى أيضا :

(١) رسالة - طفولة نهد ص ١٠٧ .

(٢) طائشة الضفائر ص ١٥٧ طفولة نهد

ما أنت حين أريد الالعبة بلهاء تحت فمى وضغط ذراعى (١)  
وتغص هذه القصائد بالأشياء الصغرى التى يحفل بها عالم المرأة ..  
ذلك العالم السرى آنذاك والذى صحب نزار قارئة إليه .. فأدخلة عالما  
مسحورا ..

نقول إنه فى هذه الدواوين الأولى: قالت لى سمراء - طفولة نهد - انت  
لى - ساميا - لم يهتم إلا بالعالم الخارجى للمرأة - رغم ادعائه الشديد  
بوقوفه معها فى معركتها .. لقد وقف طويلا بالباب قبل أن يلج عالمها النفسى  
ومناخها الروحى .. ولعل مثالا لذلك ديوانه (يوميات امرأة لامبالية) الذى  
يحوى الكثير من التأملات والصرخات النفسية رغم معالجة الشاعر لجزئيات  
هذا الديوان فى قصائد سابقة، ولكن يأتى الديوان ككل محتويا لنشرات  
العالم النفسى للمرأة .

ويطالع القارئ فى قصيدة (غرفتها) غرابة هذه الغرفة على المرأة  
الشرقية.. أو فى قصيدة زيتية العينين يقرأ : (٢)

قميصك الأخضر من يا ترى باعك هذا اللون .. قولى .. اصدقى

امن ضفاف اللسين خيطانه واللون من دانوبه الازرق ؟

هذه النماذج المستوردة كما أسلفنا ليست معبرة بالطبع عن المرأة  
العربية فى أى مكان اللهم إلا الأمكنة التى يرى فيها الشاعر نماذجه  
وملهماته .. وحتى عندما يتنبه لذلك فى مقدمة (يوميات امرأة لا مبالية) نجده  
فى اليوميات الشعرية يورد مقتنيات هذه المرأة التى عرفها دائما: امرأة  
شارع الحمراء والزمالك وحى أبى رمانه بدمشق..



وثمة ملاحظة فنية على هذه المرحلة لا نستطيع ان نغفلها أو ان نمر  
عليها دون ان نذكرها هى تأثيرات نزار قبانى بشعراء سابقين فمن المعروف  
كما كتب نزار أن هذه المرحلة وضح فيها تأثيره ببودلير والشعراء الفرنسيين  
(١) زيتية العينين ص ٧٧ قالت لى سمراء

كما سنجد فى قصيدة (مع جريدة) التى تكاد تكون هى بعينها قصيدة  
(افطار الصباح) لجاك بريفير (١) ولكن لنزار أيضاً تأثراته بشعراء عرب  
قدماء ومعاصرين فقصيدة (مدنسة الحليب) من ديوانه: قالت لى السمراء  
والتي يقول فيها :

اطعميه من ناهديك اطعميه

واسكبى أcker الحليب بفيه

والرضيع الزحاف فى الأرض يسعى

كل أمر من حوله لا يعيه

أمه فى ذراع هذا المسجى

إن بكى الدهر سوف لا تاتيه

(١) قصيدة مع جريدة لنزار قباني ديوان قصائد يقول فيها :

أخرج من معطفه جريدة

وعلى الثقاب

ودون أن يلاحظ اضطرابى

تناول السكر من أمامى

ذوب فى الفنجان قطعتين

ذوبنى .. ذوب قطعتين

وبعد لحظتين

ودون أن يرانى

ويعرف الشوق الذى اعترانى

تناول المعطف من أمامى

وغاب فى الزحام

مخلفاً وراءه جرعة

وحيدة .. مثلى أنا وحيدة

أما قصيدة جاك بريفير (افطار الصباح) :

وضع القهوة .. فى الفنجان .. ووضع اللبن .. فى فنجان القهوة وضع السكر .. فى القهوة

باللبن .. وبالمعلقة الصغيرة .. حرك .. وشرب القهوة باللبن .. ثم حط الفنجان .. دون أن

يكلمنى .. أشعل سيجارة .. وصنع دوائر بالدخان .. ونفخ الرماد فى المطفأة .. دون أن

يكلمنى .. دون أن ينظر إلى .. نهض .. ووضع قبعته على رأسه .. وارتدى معطفه الواقى

من المطر .. لأن المطر كان يسقط .. وانصرف تحت المطر دون كلمة .. دون أن ينظر إلى ..

أما أنا فاخذت رأسى فى يدي .. ويكيت ..

يطل علينا منها وجه امرئ القيس في معلقته حيث يقول :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعاً  
فألهيته عن ذى تماء محول  
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له  
بشق وتحتى شقها لم يحول

ولالأختل الصغير قصيدة (هند وأمها) <sup>(١)</sup> هذه القصيدة نرى مثلتها عند  
نزار قباني في ديوانه أنت لى بعنوان (حكاية ) يقول فيها :

كنت اعدو فى غابة اللوز لما  
قال عنى أماء إننى حلوه  
وعلى سالفى غفا زر ورد  
وقميص تفلتت منه عروه  
قال ما قال فالحريه جحيم  
فوق صدرى والثوب يقطر نشوه

(١) يقول بشارة الخورى فى قصيدة (هند وأمها) :

فسبحان من جمع النيرين  
أتانى وقبلنسى قبلتين  
حبانى من شعره خصلتين  
لاحجب نفسى عن كل عين  
وهم ليفعل كاللادين

أتت هند تشكو إلى أمها  
فقال لها ان هذا الضحى  
وفر قلما رانى الدجى  
وجئت إلى الروض عند الصباح  
فنادانى الروض يا روضى

فبالله يا أم ماذا ترين ؟..  
وماست من العجب فى بردتين - :  
وذقت الذى نقته مسرتين!!

فها انا اشكو إليك الجميع  
فقال وقد ضحكت أمها  
عرفتهم واحدا واحدا

أنتِ لن تنكرى على احتراقى

كلنا فى مجامر النار نسوه

فى قصائده (حبلى)، (أوعية الصديد)، (إلى أجيره) تشهير واحتجاج على شريعة الاحتكار والأنانية التى تتحكم بالمجتمع العربى فى علاقاته العاطفية والجنسية <sup>(١)</sup> وقد كدت أفهم قصيدة الحب والبتروى <sup>(٢)</sup> فهما سياسيا وكدت اضمها إلى قصائد نزار السياسية - غير غافل عن مضمونها الاجتماعى ايضا وغير فاصل بينهما - فهى تقودنى إلى هذه الرؤية السياسية .. كدت اعتقد هذا لولا أن حصرنى الشاعر فى دائرة اعترافه بصدد هذه القصيدة حيث يقول :

(ان قصيدتى الحب والبتروى مثلا هى صورة للاقطاع العاطفى وللعلاقة اللا أخلاقية التى تقوم بين رجل يستملك بدفتر شيكاته وامرأة تُستملك بسنابل شعرها الذهبى وطفولة نهديها ..) <sup>(٣)</sup> .

تقول القصيدة :

متى تفهم

أيا جملا من الصحراء لم يلجم

ويا من يأكل الجدرى منه الوجه والمعصم

بانى لن أكون هنا رمادا فى سيجارتك

ورأسا بين آلاف الرؤوس على مخداتك

وتمثالا تزيد عليه فى حمى مزاداتك

ونهدا فوق مرمره تسجل شكل بصماتك

متى تفهم بانك لن تخدرنى بجاهك أو اماراتك

(١) قصتى مع الشعر من ٢٠١ .

(٢) ديوان حبيبتي .

(٣) قصتى مع الشعر من ٢٠٠ .

ولن تتملك الدنيا بنفطك وامتيازاتك  
وبالبترول يعبق من عباءاتك  
وبالعربات تطرحها على قدمي اميرتك  
بلا عدد فآين ظهور ناقاتك ؟  
واين الوشم فوق يديك؟ اين ثقوب خيماتك؟  
ايا متشقق القدمين يا عبد انفعالاتك  
ويا من صارت الزوجات بعضا من هواياتك  
تكدسهن بالعشرات فوق فراش لذاتك  
تحنطنهن كالحشرات في جدران صالاتك  
متى تفهم ؟

لا شك أن القصيدة حتى هذا المقطع توحى بما أشار إليه نزار ولكن حين  
نستمر في قراءتها تعطينا بعدا سياسيا لا نستطيع الفرار من قبضته .

تمرغ يا أمير النفط فوق وحول لذاتك  
كممسحة تمرغ في ضلالتك  
لك البترول فاعصره على قدمي عشيقاتك  
كهوف الليل في باريس قد قتلت مروءاتك  
على أقدام مومسة هناك دفنت ثاراتك  
فبعت القدس بعت الله بعت رماد امواتك  
كان حراب اسرائيل لم تجهض شقيقاتك  
ولم تهدم منازلنا  
ولم تحرق مصاحفنا  
ولا راياتها ارتفعت على اشلاء راياتك  
كان جميع من صلبوا  
على الأشجار في حيفا .. وفي يافا.. وبئر السبع  
ليسوا من سلالاتك  
تغوص القدس في دمها

## وانت صريع شهواتك تنام كأنما المأساة ليست بعض مأساتك متى تفهم ... متى يستيقظ الإنسان في ذاتك ١٩٩

قد يكون نزار بإشارته تلك إلى (محاربة الاقطاع العاطفي) في هذه القصيدة يذر رمادا في العيون قصدا منه أن ينفي شبهة ظلال تأثرية تسرب إلى هذه القصيدة الجيدة من قصيدة مشابهة لعمر أبي ريشة تحت عنوان (هكذا) (١)

نقول إن صرخة نزار في قصيدة الحب والبتروال والتي حددها في اطار (محاربة الاقطاع العاطفي) نقول ان هذا التحديد أفقدها البعد السياسي الذي تنتمي إليه بشده رغم هذا التحديد الجائر.. وقد يكون البعد

(١) يصدر الشاعر ابوريشة قصيدته (هكذا) يقول :

[ذكرت الصحف أنه في ليلة واحدة أنفق احد رعايا المحميات البريطانية ستين ألف دولار على عشيقته ..]

.....

صاح يا عبيد ، فزف الطيب..	واستعر الكأس .. وضع المضجع
منتهى دنياه نهد شرس	وفم سمح وخضر طيع
بدوى أروق الصخر له	وجرى بالسلسيل الباقع
فاذا النخوة والكبر على	ترف الأيام جرح موجه
هانت الخيل على فرسانها	وانطسوت تلك السيوف القطع
والخيام الشم مالت وهوت	وعوت فيها غاليراح الأربع

.....

.....

صاح يا حسناء ما شئت اطلبي	فكلانا بالفوالى مولىع
اخثك الشقراء مدت كفها	فاكتسى من كل نجم اصبع
فانتقى اكرم ما يهنو له	معصم غرض وجيد اتلع

.....

وتلاشى الطيب من مخدعه	وتولاه السبب المتع
والذليل العبد دون الباب لا	يفمض الطرف ولا يضطجع
والبطولات على غربتها	فى صفانينا جياع خشع

.....

هكذا تقتحم القدس على	غاصبيها .. هكذا تسترجع
----------------------	------------------------

الاجتماعى الذى تكلم عنه نزار أضافه إلى البعد السياسى الحاد الذى يطالعا فى قصيدة عمر أبى ريشة التى اعتقد انها النبع الاصلى لقصيدة نزار برغم شيوع التجربة ووجودها فى الواقع العربى كمنبع لأكثر من قصيدة ..



ثمة نماذج أخرى للمرأة نعثر عليها فى شعر نزار قبانى كنموذج جميلة بوحيرد فى قصيدته بهذا الاسم (١) وهو نموذج رائع أجاد الشاعر تصويره وهو نادر فى شعره وسنراه يبارك هذه المرأة التى :

لم تعرف شفتها الزينة

لم تدخل غرفتها الأحلام

لم تغرم فى عقد أو شال

لم تعرف كنساء فرنسا

أقبية اللذة فى بيجال

وسنعثر على نموذج آخر للمرأة العربية المناضلة فى شعره المنتثر فى كتابه (الشعر قنديل أخضر) (٢) .. وسنلاحظ ان نزار يعايش قضايانا بطريقته الخاصة :

(ماذا؟؟ هل غيرت معركة بور سعيد حواسى ايضا؟؟.

ان رائحة العطر التى كانت تنسف أعصابى من جذورها فى الصيف الماضى لم تعد ذات موضوع. اشياء كثيرة كانت تزلزل وجودى فى زمن السلام لم تعد تفعل بى شيئا .. وفنى كجمالك يا صديقتى تغير بحركة تلقائية .. مد أظافره ونشر ريشه كما يفعل الطائر امام خطر داهم بذافع من غريزته. لقد أخذت القصائد مكانها فى الخندق وتحت الاسلاك الشائكة ..)

(١) جميلة بوحيرد ، ديوان حبيبتي .  
(٢) البنات والعين السود - الشعر قنديل أخضر .  
(٣) قصة راشيل شوارزنبيرج - قصائد .



ونعثر أيضا على نموذج للمرأة الإسرائيلية إرهابية مجندة في قصيدة قصة راشيل شوارزنبرغ<sup>(٣)</sup> .. كل هذه النماذج نادرة وقليلة وتختلف بين مئات الوجوه والملامح التي تضطرب في دواوين الشاعر .. قبل وبعد النكسة.

تحول نزار من شعر الحب إلى شعر السياسة.. وهبط به الشعر إلى الجزيرة البركانية على صخور مرجانية ظل يخشى على قدميه منها سنينا .. ونزار لا يرى شعر السياسة تجارة رابحة بالنسبة له. انه يرى ان النوم في عيون النساء اكثر طمأنينة من النوم بين الأسلاك الشائكة ... وان مملكة الحب اسعد المالك.. وهو يقول :

(ان تحولى إلى السياسة – وأنا لازلت أصر أنه لم يكن تحولا – كان نتيجة هزة داخلية . كسرت كل الواح الزجاج فى نفسى .. دفعة واحدة ومن نثرات الزجاج التى خلفها حزينان على أرض حواسى صرخت بصوت آخر ..)<sup>(١)</sup> .

وبعد حزينان كانت قصائد نزار التى انهمرت بعد (هوامش على دفتر النكسة) واخذ نزار يتناول الشعر السياسى – ولنا دراسة أخرى تتناول شعر نزار بعد النكسة وقضايا المجتمع المجتمع العربى خلاله ان لا يتسع المجال لعرض هذا الشعر أو التعرض له بغير دراسة مستقلة .




---

(١) عن الشعر والجنس والثورة ص ١٥ .



---

**عبد العزيز المقالح:**  
**الكتابة بسيف الشائر**  
**على بن الفضل**

---



«الكتابة بسيف النائر: على بن الفضل» الصادر عن دار العودة، بيروت ١٩٧٨ هو الديوان السادس للشاعر عبد العزيز المقالح، الذي صدرت له من قبل خمس مجموعات شعرية: لابد من صنعاء - مارب يتكلم - رسالة إلى سيف بن ذى يزن - هوامش يمانية على تغريبة ابن رزيق البغدادي - عودة وضاح اليمن.

والشاعر عبد العزيز المقالح يُعد في طليعة شعراء اليمن المعاصرين وأبرز الروافد اليمنية الثرية للشعر العربي المعاصر. وهو كما يتضح من أسماء مجموعاته الشعرية مهوم بقضايا وطنه، يتخذ من جغرافيته وتاريخ أبنائه وشخصه التراثية أقنعة تعكس بشفافية معاناة الشاعر والتزامه الفكرى.

يضم الديوان ست عشرة قصيدة، ما إن نشرع في قراءتها حتى تطل علينا بوجهها الدامى قضية (الثورة) التى يتبناها الشاعر.. تخرج علينا أحياناً فى غلائل الحلم (قصيدة: قراءة فى كتاب غمدان: البحر والمطر، ص (٩١):

ظهرأ سقط النوم على غمدان  
نامت كل قيود السجن، وسيف السجان  
أغفت أحجار الزنزانة

لكن دمی یقظان القید

أیقظه صوت الطالع من خاصرة - الأحلام  
من غابات القحط - الموت  
من أزمنة الليل - الغربية  
من عصر الأشواق - الثورة  
الميلاد - تقول الأعشاب - تحقق  
الميلاد - تقول امرأة النار - تحقق

.....

.....

ننتظر امرأة تغسلنا بالبرق  
تحلمنا بين فهود الشفق الأحمر

وتخرج (الثورة) أحياناً فى قناع الرفض والتحريض ودعوة الكلمات -  
الرماح إلى أن تأخذ دورها الحاد المسنن بعيداً عن التلثم والتسطح . قصيدة:  
دخول رأس الحسين إلى مدينة الشعراء ص ٧٩):

يا هذا الشجر النابت فى أودية القلب  
أسقيك دمی..

فلنفتح بالكلمات جدار السجن

.....

.....

يا أيها الشعراء الملوك:

اخرجوا من مكاتبكم

تأسنُ الكلمات إذا لم تكن من دم القلب  
طالعة

وتموت العصافير فى ظلها؛ ويموت الشجر  
حين كانت محابرنا من عطور...

وكان الذى فوقنا يبول علينا

ونحن نقول: اسقنا

فاخرجوا من مكاتبكم

المنافى الطريق إلى الشعر

والسجن نافذة للتواصل

والموت فى الشعب أروع ما يكتب الشعراء

ويكون التحدى راية الشاعر الذى يعبد طريق الثورة الومر ويحدد

موكبها: (قصيدة: الكتابة للموت ص ٥٥).

يا آلهة الرعب الموت

لن تتراجع فوق النار الخطوات

ستظل خيول النهر تسير

وقطار الحب يسير..

.....

.....

من يملك قلباً يتمرجح فى كف النار - الحزن

لا يتمرغ فى خارطة الموتى..

وتظل الدعوة إلى الثورة بوقاً نازفاً يوقظ الحواس، فى مواجهة «الملك

[الذين] إذا دخلوا قرية أفسدوا ماءها.. (قصيدة: البحث عن الماء فى

مدن الملك، ص ٨٨).

«ادخلوا جسد الكلمات، اركضوا فى مياه

الحروف، ولا تتركوا ثغرة لعبيد الخليفة؛ إن العبيد

إذا دخلوا الكلمات.. تخرت الكلمات تصير المعانى

دماء؛ والحروف حروفاً..».

وتلتئم الثورة وأشكالها، لكى تصبح فى قمة تبلورها سيفاً مجرداً على  
عنق (التخلف) و(الفقر) و(الردة)، وهى من هموم شاعرنا.. ويأتى (البيان  
الأول للعائد من ثورة الزنج، ص ٩٧):

تأبطت سيفى وقلت: الجنوب سمائى ووجهى  
ولى فى الجنوب رفاق بأحلامهم سبقونى إلى  
مرفأ الشمس  
غرقى بانوارها..  
بعد أن ذبلت نار أجسادهم فى سجون الإمام  
وتحت سياط الدخيل قضى نحبه الفجر فى  
أعين ذبلت؛  
فى رعوس تسامت وجاعت بنيرانها  
أه .. لم ينتهوا..  
ها هى الآن أحلامهم فى خصوبتها تثمر  
الحب والضوء

لقد استحث الشاعر (مهر الثورة) أن ينطلق فى ديوانه (عودة ووضاح  
اليمن):

انطلقى يا مهرتنا انطلقى!  
يوشك أن يدهمنا ليل الليل الآخر  
يسلمنا السجن إلى السجن..  
تعود عقارب ساعتنا للخلف  
يا مهرتنا انطلقى.. انطلقى!

وانطلقت المهرة الدامية فى سهوب هذا الديوان، وكان (البيان الأول  
للعائد من ثورة الزنج ص ٩٧):

نشرت جراح الجماهير فى رثتى  
من عظام الشهيد جعلت المزامير



فاشتعلت في عروق النهار الأغاني

وهأنذا أكتب اللغة المستقيمة

.....

.....

ادخلوا جنتي مطمئنين يا فقراء الشمال

هنا أول الحلم، وجه المسافات يدنو،

ويقترب النبع..

في زمن العشق يختلط الماء والنار، والشمس

والأرض..

تتحد الكائنات. تكون فصول التجلى..

ويأتى زمان الحلول.

إذا كانت الثورة هي المحور الأول لقصائد الديوان فإن مشكلات  
التخلف والجوع والقهر والفقر والعدل الاجتماعى تشكل المحور الثانى فى  
رؤية الشاعر الفكرية، وتنعكس هذه المشكلات حادة فى قصائد هذه  
المجموعة، بل إننا نجد بذوراً لها فى دواوينه الأخرى، كما فى (قصيدة:  
حوارية عن الفقر) من ديوانه الخامس (عودة وضاح اليمن) ص ٧٣:

يقول على بن أبى طالب:

كان الفقر فتى إقطاعى الدم

يحيا فى قصر مسحور الشرفات

يتزوج خمساً..

يستحلب أشجار «القات»

سبق وأنا كنا نبحث عنه بين الفقراء

فى ساحات الجوع المكتظة

ها هو ذا يزرع أشجار البؤس

بيبع رماد الدمع

من يرغب منكم فى قتل الفقر  
فليقتله - هنا - فوق موائد أصحاب المال  
فى سهرات التانجو، فى حفلات الأزياء

من هذه الرؤية، ومن ذلك المنطق، يخرج الشاعر ثائراً مع الزنج فى ديوانه الذى بين أيدينا، بل يكتب بسيف الثائر على بن الفضل، الذى يترجم له الشاعر فى هذه السطور (ص ٥٤):

«على بن الفضل ثائر يمانى، استطاع فى أواخر القرن الثالث الهجرى أن يؤسس فى اليمن دولة الوحدة الوطنية والعدل الاجتماعى، وأن يرفع ويطبق شعار: الأرض لمن يفلحها، وقد حاول مؤرخو الإقطاع والإمامات أن يشوهوا تاريخ ذلك الثائر فباعث محاولاتهم بالفشل».

ويكتب الشاعر بسيف هذا الثائر التقدّمى:

خذى السيف من جوعنا واكتبى  
فالكتابه بالسيف باب إلى الخبز، نافذة تتالق  
أسرارها،

حين تمسك بالمقبض الشمس تخضر نار  
الكتاب،

ينهمر اللعان على جفنه مطراً  
والحروف - على حده - تتلأأ عارية كدم  
الفجر، ظامئة..

تتناسل أرغفة، وصناديق حلوى؛  
وأغنية ترتضى..؛  
كل حرف لسان من الماء، حنجرة يتوقد فيها

الحنين إلى الفعل

يشتاق، يرفض، يعتمر السحب المبحرات

على الغيم حزناً

ليغسل جذب القرى..

ويثور على بن الفضل، ويكتب الشاعر بسيفه (ص ٩٩):

.. فى لغتى أعجن الأرض أنشرها كعكة للملايين

للطفل فى ثديها مثلما لأبيه وللصقر ما للحمام

اخلعوا جوعكم عند بابى..

ويتساءل فى فزع وحزن (ص ٩٠):

.. إن جنود الخليفة قد أفسدوا عين ماء

السموات والأرض

مستنقعاً صارت الأرض والشمس

من أين يشرب أطفال مملكة الجوع؟..

ومن أجل أطفال مملكة الجوع، ولكى يهاجر الشاعر من زمن القتل

وزمن الردة، من عصر الإنسان القاتل (ص ٦٢، ٦٣)، يهيب بشمس الثورة

(الكتابة بسيف الثائر على بن الفضل ص ٥٣):

من الغضب امتشقى سيف (جوع القرى والمدائن)

قرمطياً أتيت، وها أنا - ثانية - قرمطياً أعود

تناجزنى أعينُ الفقراء الوفاء بوعدى

## وتسألنى الأرض عدلاً لأبنائها

### فادخلنى فى كتابى!



اختار الشاعر الموت الواقف بدلاً من الحزن الراكع، وانطلقت لا اللطمة،  
والسيف بديلاً للسوط، فى قصيدته (الاختيار ص ٥). كان قدره أن يدين  
الأرض التى تتورم بالبترو، والحقول التى تنبت سبجاً وعمائم، والرب القادم  
من هوليد، وأشرطة التسجيل والدولارات، والقهر الطبقي، وأن يختار الثورة  
والحب والشعر، وينفى الأمس القاتل واليوم المقتول، ويختار الغد، وإن انتهى  
به إلى المنفى. وفى المنفى كانت معاناته وكان إحساسه الحاد بالوطن. ومن  
ثم كانت الغربة محوراً ثالثاً تدور حوله قصائد تلك المجموعة التى بين أيدينا.  
وإذا كان الشاعر فى ديوانه (عودة وضاح اليمن) يفتتح قصيدته (اليمن..  
الحضور والغياب) (ص ٧٥) بقوله:

تحت جلدى تعيش اليمن  
خلف جفنى تنام وتصحو اليمن  
صرتُ لا أعرف الفرق ما بيننا  
أينا يا بلادى يكونُ اليمن

- فإن ديوانه الذى بين أيدينا يعكس إحساساً حاداً بالوطن والغربة. إن  
لليمن - وطن الشاعر - حضوراً قوياً فى هذا الديوان كما فى سابق شعره  
ويتمثل هذا الحضور جغرافياً (صنعاء - قصر غمدان - مأرب - زبيد -  
الدخيل) وتراثياً من خلال شخصيات يمانية (عمارة اليمنى - سيف بن ذى  
يزن - على بن الفضل - امرؤ القيس - وضاح اليمن)، كما أننا نلمح نبات  
القات وأشجار البن تشمخ بين القصائد. وتعكس قصيدة (برقيات شوق  
لصنعاء - ص ١١) إحساس الشاعر المتوهج بالوطن، ونزيفه الدائم فى  
غريته. تأخذ القصيدة شكل البرقيات (ولو كانت مقاطعها أشد تكثيفاً

وقصراً بما يتلاءم مع شكل البرقية حدة وإيجازاً لكان الشاعر أكثر توفيقاً

يقولون إنك أصبحت عجفاء ..  
 إن ضروعك صارت لجردان (مأرب) مزرعة  
 كلما ارتفع السد فى وجه جوع القرى  
 أعملت فيه أسنانها  
 يتهاوى.. وتجرف أحجاره أول الفعل من  
 خضرة البن.

.....

وفى قهوة البن ألقاك محروقة  
 ومطاردة ..

صرتُ لا أشرب البن  
 لن أشرب الماء حتى أراك

.....

متى يا مدينة قلبي يعود النهار المهاجر  
 نشرب نخب (الطويل) و(عيبان)  
 ناكل كعك الربيع  
 ونلعب بالورد فى ليل (نيسان)  
 يغسلنا بعد دمع التغرب نهرُ الفرح

نزيف من النسيج الممزوج بالحنين، يترقرق منحدرًا من ذاكرة الشاعر  
 حين يكتب عن الوطن وللوطن. إن طائر الشوق يتسلل من جسد الشاعر فى  
 كل أمسية، ويرحل منفرداً نحو صنعاء، ويعود قبيل الصبح وفى منقاره  
 المدمى هذا التساؤل المورق:

لماذا غدا (قصر غمدان) سجننا  
 وصارت دهاليزه مخفرا وزنازن للعشق

قبراً لأبنائك العاشقين؟

إنه العتاب الجريح، الذى يفرض تساؤلاً آخر:

تمر القطارات فوق دمي حين تمضى جنوباً

وتبقى عظامى معلقةً في صخور الشمال

لماذا إذا اشتقت كانت عيون القطارات نافذتى

كان صوت القطارات دمعى؟

لماذا تمرقنى ثم تنفضنى راحة الاغتراب؟

وفى قصائد (قراءة لكف الوطن العربى ص ٤٢) و(بيروت: الليل والرصاص وتل الزعتر ص ٦١) و(دخول رأس الحسين إلى مدينة الشعراء ص ٧٩) و(رباعية من مقام الدم والزعتر ص ١٠١) - فى هذه القصائد تتسع لفظة (الوطن) لتشمل جرحاً فاغراً بحجم (الوطن العربى)، ويصبح (الهم اليمنى) همأ عربياً كبيراً، تنفج زاوية الرؤية عند الشاعر فيقرأ كف الوطن العربى (ص ٤٢):

بقع للظل وأخرى للدم

نهر للقات ونهر للأفيون

طفل تقتله - فوق سرير الذهب - التخمة

ومئات الأطفال يموتون على صدر الحارة

ينتشرون بثوراً فى جسد الجوع

هذا وجهى: جمجمة الملح

هذا كف العرب المتورم بالبترول

## النافق بالفقراء

### المتسكع فى ليل العصر ..

وتمتد رقعة المأساة بين المناماة والقدس، بين صنعاء والنيل (ص ٨٠):

يا عيون المهيا بين صنعاء والقدس،  
بين المناماة والنيل،

### رأس الحسين بلا ماء

والديوان يعكس ثقافة الشاعر العربية الصرف، فلا نلمح فيه أية إشارة أو إحالة إلى التراث الأدبى الإنسانى. فكل الرموز والشخصيات عربية الملامح والتاريخ (رأس الحسين - سيف بن ذي يزن - ثورة الزنج - المتنبى - خولة - عمارة اليمنى - وضاح اليمنى ..)، ولم ترد فيه إلا لفظة (يوتوبيا) التى وردت فى إحدى القصائد.

وباستثناء قصائد ثلاث هى (البيان الأول للعائد من ثورة الزنج) و(الكتابة بسيف الثائر: على بن الفضل) و(تحولات شاعر يمانى) - باستثناء هذه القصائد التى تتمتع بحضور مميز، وتفرد خاص، نرى أن القصائد الباقية فى الديوان يمكن قراءتها متصلة كقصيدة واحدة، (وهى سمة لاحظتها قبلاً فى ديوان الشاعر السابق على هذه المجموعة: عودة وضاح اليمنى). وربما ساعد على تنامى هذا الإحساس أن إيقاع بحر المتدارك بشكلى تفعيلته: (فاعلن) و(فعلن) هو الغالب على هذه القصائد.

ولقد وفق الشاعر توفيقاً كبيراً فى قصيدته (من تحولات شاعر يمانى فى أزمنة النار والمطر، ص ٦٧) التى تعتبر بحق أجود قصائد الديوان. نقول إن الشاعر استطاع أن يحقق الكثير فى هذه التحولات. إن الوطن/ الثورة شارك الشاعر تحولاته فى رحلة الكشف بحيث استمر الجدل بينهما، فعلى حين كانت تحولات الوطن/ الثورة - عنيزة - روضة - خولة - إلخ، كانت تحولات الشاعر امرؤ القيس/ ووضاح اليمنى/ المتنبى/ عمارة اليمنى، إلى

أن نصل - وقد صحبناه في تحولاته - إلى عبد العزيز المقالح. كل ذلك (الطريق إلى مارب كالطريق إلى القدس). والشاعر يحمل في رحلته تضاريس أحلامه، وشجر البن والتذكارات الشمس التي حلم بها (لم تعيش في الشام طويلاً ..)، ويبيعه الخوف للنيل، ويزرعه (الحب عشباً على كل خارطة، وعصافير عاشقة لا تكف عن البوح).

وتطول رحلة الشاعر.. وتطول.. وتنتظم المساة عقداً من الجمر الدامي، ويكون المسرح ممتداً من اليمن إلى الجزيرة إلى الشام إلى مصر إلى الأندلس: الوجد التاريخي النازف، وتكون القصيدة التي أحسن الشاعر التضمين فيها، حيث أنتقى بذكاء من نتاج الشعراء الذين تقنع ملامحهم نماذج جيدة من أشعارهم، أثرت القصيدة، وكانت روافد جياشة بالمضمون اللامع الموحى.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه إذا كان الملمح الفكري هو أول ما يطالعنا في قصائد الديوان فإنه يشكل الوجه الأول (للمعلة الشعرية)، حيث يكون الوجه الآخر ملمحاً فنياً هو المباشرة في التعبير، فيأتي تقريرياً، تفرضه قضية الشاعر والتزامه الفكري الذي يجنح به بعيداً عن مغامرات الشكل، والجرى وراء الجماليات، والإغراق في تركيب الصورة حتى في محاولات الشاعر البسيطة لأن تأخذ القصيدة شكل البرقيات، أو الاحتيايل على المباشرة بعرض اللوحة والتعليق، أو الصوت والصدى، في قصائد مثل (دخول رأس الحسين إلى مدينة الشعراء) و(قراءة في كتاب غمدان: البحر والمطر) - تبقى هذه المحاولات - وللشاعر شرف المحاولة - بسيطة الأثر، ويبقى شعره في هذا الديوان سكيناً يقطر. وهذا ما يريده الشاعر، حيث يرى الشعر جواداً جامحاً يسهل، (النبرة العالية في القصائد) وليس تحفة إبداعية أنيقة يعنى بها المترفون.





---

صلاآ آاهين:  
عبث اللم ..  
وسطوة الإبداع

---



.. فى خفة الفراشة، وإن كان جسمه بديناً، انسل فى رشاقة  
منسحباً إلى العالم الآخر..

قلت له مرة؛ وكانت تزعجه سمرة جسده وفرط بئانته: هل قرأت  
قولى أبى العلاء المعرى:

**إذا كان جسمى للتراب أكيلة  
فكيف يسر النفس**

أطرق، ثم قال: وهل تعلم أنى حاولت أن أنف  
لزومياته، والخيام فى رباعياته، وإيليا أبى ماضى فى  
الشارع عندما كتبت (الرباعيات) ونشرتها عام ١٩٦٢؟.

حين درس القانون بكلية الحقوق انصرف عنه إلى  
وحيث عمل رساماً لم يكتف بالرسم للتعبير عن أصالة إبداعه. من ساعراً،  
ولم يهدأ مارد الإبداع فى قمقه الجسدى، فعمل موسيقياً، وصحفيًا، وممثلًا  
وكاتبًا للسيناريو .. وكان باقة من الزهور المختلفة، لكل زهرة رائحتها  
المميزة، وكان فى سخرية شديدة يخرج لسانه لزماننا، زمن التخصص!!

إنه الفنان الشاعر الراحل صلاح جاهين، الذى رحل عن عالمنا فجر  
الإثنين ٢١ أبريل (نيسان) الماضى، بعد غيبوبة استمرت أربعة أيام، وبعد أن  
وجدوا بجوار فراشه عدداً من زجاجات الأدوية الفارغة؛ حيث تعاطى حوالى

(٣٠٠) كبسولة من الأدوية المهدئة والمنومة وأدوية للهزال، بعضها له أثر على دم الإنسان.

### رباعية:

على رجلى دم نظرت له ما احتملت  
على ايدى دم سألت: ليه؟ لم وصلت  
على كتفى دم، وحتى على راسى دم  
أنا كلى دم .. قتلت؟ ولا اتقتلت؟  
عجبى!!



.. ولد محمد صلاح الدين حلمى جاهين فى القاهرة (٢٥ ديسمبر «كانون الأول» عام ١٩٣٠) ، ترك كلية الحقوق إلى الدراسة بكلية الفنون الجميلة لعشقه الرسم، عمل بجريدة الجمهورية عام ١٩٥٣؛ وانتقل إلى دار روز اليوسف، ونشر بمجلة روز اليوسف أولى قصائده بالعامية المصرية (الشاي واللبن)، وكان من أوائل من أسسوا مجلة (صباح الخير) والتي اعتمدت الرسم وليس الصورة الفوتوغرافية، أسلوباً فنياً لها، فى مجلة (صباح الخير) كان القارئ على موعد أسبوعى مع كاريكاتير جاهين الذى اتخذ زوايا متميزة: (قهوة النشاط) و(قيس وليلى) و(الحشاشين) وغيرها، مما كان يتيح له فرصة النقد الاجتماعي أو الفكرى أو السياسى. وتلك من أهم وظائف الكاريكاتير .. [ليس مهما أن يكون الكاريكاتير مضحكاً.. المهم أن يحدث ومضة معينة سواء كانت ضاحكة أو مدهشة.. أو غاضبة] انتقل جاهين من صباح الخير إلى العمل بدار أخبار اليوم ومنها إلى الأهرام عام ١٩٦٢ [تاريخ صدور ديوانه المهم: رباعيات] وبقي جاهين بها حتى رحيله المفاجئ.

ترك الفنان الراحل تراثاً ضخماً من الأعمال الفنية والرسومات الكاريكاتيرية والمئات من الأغاني التى تتميز بالحس الشعبى والكلمة

الشاعرة، سواء منها العاطفية التي تتسم بالبساطة (أنا هنا يا ابن الحلال) لصباح (لو كنت ست الحسن والجمال) لمحمد قنديل، أو الوطنية التي تتسم بالحس القومي وقدرتها على تفجير الحلم (أحنا الشعب، المسؤولية، والله زمان يا سلاحى، بستان الإشتراكية، بالأحضان، ثوار، صورة، يا أهلا بالمعارك) فضلاً عن ذلك، العديد من أغاني الأفلام (عودة الابن الضال)، والمسلسلات (هو وهى) إضافة إلى انجازه الضخم فى أوبريتات الأطفال (مسرح العرائس) نذكر منها: (الليلة الكبيرة) و(صحصح لما ينجح) و(حمار شهاب الدين) وغيرها...

كتب أيضاً سيناريو العديد من الأفلام التي تتميز بخفة الظل وروح المرح والشباب [ .. كان شعار مجلة (صباح الخير) مجلة القلوب الشابة والعقول المتحررة... ].

### رباعية:

حدوته عن جعران وعن خنفسه  
اتقابلوا حبوا، بعض ساعة مسا  
لا حدّ قال: إختشوا.. عيب... حرام  
ولا حدّ قال: دى علاقة مقدنسه

عجبي!!

أسهم الفنان الراحل فى إثراء المسرح القومى المصرى بوضع أغاني عروض: (دائرة الطباشير القوقازية) و(إنسان الطيب) لبريشت، فى سنوات ازدهار المسرح المصرى .. كما ترك نتاجاً شعرياً له أهميته فى سياق تطور شعر العامية المصرية بعد بيرم التونسي، هذا النتاج يشمل ستة دواوين هى: (كلمة سلام - موال عشان القنال ١٩٥٦ - عن القمر والطين ١٩٦١ - رباعيات ١٩٦٢ - قصاقيص ورق ١٩٦٥ - أنغام سبتمبرية ١٩٨٤).

ترك الفنان الراحل، أيضاً، ابناً واحداً هو (بهاء) الذى أورثه حب الفن  
وقلق الإبداع، فأخرج ديوانه الأول منذ شهر، وكم كانت فرحة الأب جاهين  
عظيمة بانتقال (سر الكلمة) إلى صدر وحيدة ..

### رباعية:

لو كان فيه سلام فى الأرض وطمأن وأمن  
لو كان مفيش ولا فقر ولا جبن  
لو يملك الإنسان مصير كل شئ  
أنا كنت أجيب للدنيا ميت ألف ابن  
عجبنى!!



.. يقول كونفشيوس:

«لا أبالى بمن وضع للبلاد قوانينها وديساتيرها، بل أسأل عمن وضع  
أغانيها ..»

وصلاح جاهين منذ عام ١٩٥٤ (أحنا الشعب) وحتى عام ١٩٦٧،  
وعلى مدى ثلاثة عشر عاماً وهو يشغل - بجدارة - مكانة مغنى الحس  
القومى فى سنوات المد الناصرى، يفجر أحلاماً عربية، ويزرع فى الوجدان  
أمالاً عراضاً [ومن هنا كانت نكسة حزيران موت صلاح جاهين الأول، حيث  
عرف الاكتئاب وأمراض القلب وغيرها] .. كانت الجماهير تحلم معه  
بالوحدة: (المسؤولية):

شايفين رايتنا فى حضن النسمة

مرفرفة بـ ١٦ نجمة

على صدر بلدة عربية

ما اعرفش من أى الأقطار

وكان يحلم بالريف المصرى والعربى فى (المسؤولية):

تمائيل رخام ع التربة وأوبرا

فى كل بلدة عربية

ده ماهوش أمانى

وكلام أغانى

ده بر تانى .. ده بر تانى قصائدنا قريب ..

يا معداويه

أما القضية الفلسطينية: (بستان الاشتراكية):

اقفل ع الحيرة السيرة وهات شربات للكل

واقفل عينك، وافتحها، تلاقى الشوك بقى فل

وزهور ليمون صابحة فى (يافا) بتضحك وتُطل

تقول: افتح صندوق العيد، وادى الحلوة مراية

يتغنى بحلم التصنيع وبناء المجتمع: (بالأحضان):

نورعينى وحبائيبى

وعزاز قوى على قلبى

ياللى على الجرار

وقصاد لهاليب الصلب

لقد كانت ضربة قاصمة لصلاح جاهين الصادق المبدع، أن يرى أحلامه تهوى كومة من قش هاجمتها بضراوة النار والريح معاً صباح الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ . وربما ساقه هذا مع روحه المرحلة إلى شئ من اللامبالاة والعبث؛ وهذا يفسر - فى رأى - كتابته (يا واد يا تقيل) و(بمبى) وربما كان ذلك رآيه الذى أراد أن يسجله فى السبعينيات، بمعنى أنه إذا كان الالتزام بقضايا الشعب والمجتمع فى الستينيات تمثله أغاني مثل:

بالأحضان والمسؤولية ويا أهلاً بالمعارك وثوار يكون الوجه الآخر للعملة في السبعينيات، سنوات الانحسار والردة (بمبى ويا واد يا ثقيل) ..



اللهجة العامية المصرية تعبر عن أحلام الشعب، وهى أقدر من الفصحى على ذلك، والذين يرون في اللغة العربية عاملاً من عوامل الوحدة لا يختلف جاهين معهم، ولكنه يضيف أن العامية المصرية عن طريق الأغاني (خاصة محمد عبد الوهاب وأم كلثوم) والأفلام المصرية منذ الثلاثينيات كانت من عوامل التقريب بين أمتنا العربية وجعلت هذه الأفلام وتلك الأغاني العامية المصرية مطروحة فى أقطارنا العربية ومتداولة على الألسنة أحياناً.

وربما تحتاج شاعرية صلاح جاهين العامية إلى دراسات، لكن ننوه هنا بقدرته الخلاقة على اختيار ألفاظه وتناغمها وشحنها بالأصالة؛ فإذا كان فؤاد حداد، زميل دربه فى شعر العامية، ولوعاً بالتركيبات اللفظية والجناس.. فإن صلاح جاهين لا يعدل بالمعنى الرشيق واللفظ الوامض الموحى شيئاً .. وهو لا يتحرج، رغم وفائه للعامية، من أن يورد الألفاظ والتركيبات العريب إذا خدمت المعنى والغاية؛ ولم تكن ناتئة من حيث الصياغة الشعرية. يقول:

توبه ما عاد فيها مجاملة خلاص  
ولا عاد م (الثورة الشاملة) مناص  
يا ايدينا العاملة ازرى اخلاص  
واحصدى والرب معين

ويقول:

ح نمد طريق ع النيل

اسمه فى الاشتراكية (التصنيع الثقيل)

وإذا كانت المرحلة وتسييس الأغنية تتطلبان ذلك فإن جاهين تتجلى صياغته العامية وحسه الشعبى وقدرته على انتقاء اللفظ وتجسيد اللوحة



شعرياً فى رائعته (الليلة الكبيرة) التى تناول فيها ليلة شعبية من ليالى (المولد) وعرض فيها لمهن شعبية وطوائف ومظاهر بلدية. ورغم محلية الموضوع والصياغة والتناول، إلا أن هذه الرائعة اجتازت الحدود الإقليمية لتؤكد رأى جاهين فى أن الإبداع الصادق، والشاعرية ليست ضيقة بحيث يحددها إطار لغوى.



كتب صلاح جاهين (الليلة الكبيرة) بعد العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وكانت احتفالاً ذاتياً بمولد الجلاء، على حد تعبيره؛ فيها عبر عن روح شعب وخصائص أمة، ورغم إعجابى الشديد بها وحبى للفنان جاهين، كتبت عموداً بمجلة (الإذاعة) المصرية، ألقت النظر فيه إلى عمل إذاعى هو (أوبريت) سابق للمخرج المصرى الراحل عبد الوهاب يوسف بعنوان: (السوق) واعتبرت هذا العمل هو أصل (الليلة الكبيرة) .. بعدها قابلت جاهين فى مكتبه بالأهرام .. ولم يغضب .. ولكنه داعبني قائلاً: كويس انك سمعت (السوق) ناس كتير فى سنك لم يلتفتوا أو يسمعوا به - وأردف مداعباً - بس شعرك أحسن من نقدك..

مع إيمانه الشديد بقوة الكلمة وعظمة تأثيرها. كان هناك إيمان آخر بالصورة (التي تساوى ألف كلمة) على حد تعبير كونفوشيوس أيضاً، عند صلاح جاهين. من هنا جاءت رسومه الكاريكاتيرية تتضمن موقفاً فكرياً وتعبير عن ثقافة الفنان الراحل وقدرته على التكيف والتركيز.. ومنذ عام ١٩٦٢ أصبح رسمه اليومى فى جريدة الأهرام مادة متميزة وباباً مستقلاً يشكل رأياً وروية أزعجت الكثيرين فحذفت أحياناً، وأثارت المشاكل كما حدث مع الشيخ الغزالي فى الستينيات، أحياناً أخرى.

قبل أيام من وفاته نال صلاح جاهين درع المسرح القومى فى الاحتفال باليوبيل الذهبى، وعام ١٩٦٥ حصل الفنان الراحل علي وسام

العلوم والفنون من الطبقة الأولى .. ولعله كان يحس بقرب المنية حين جمع منذ عامين كتاباته بعد عام ٦٥ لينشرها في ديوان باسم (أنغام سبتمبرية)، وسبتمبر كما هو معروف بداية الخريف حيث تتساقط أوراق الشجر .. ومضى الشاعر في رحلته وراء المجهول .. ولعله كان يردد في لحظاته الأخيرة تلك الرباعية التي تتحدث عن عبثية الحياة والتي ضمنها ديوانه (رباعيات) وقال فيها بحكمة الفيلسوف وسخرية الحكيم:

«إخطفني يا للى تحبنى ع الحصان»  
 الدنيا قالت يوم في ماضى الزمان  
 «إخطفني يا للى تحبنى ع الفرس»  
 الدنيا قالت:  
 قام خطفها الشيطان

عجبي!!



---

# مصائر الأيام: شوقى والحياة



- ١ - الاحبذا صحبة المكتب  
واحبيب بايامه، احبيب
- ٢ - ويا حبذا صبية يمرحو  
ن، عنان الحياة عليهم صبي
- ٣ - كأنهمو بسمات الحيا  
ة وانفاس ريحانها الطيب
- ٤ - يُرأح، ويُغذى بهم كالقطي  
ع على مشرق الشمس والمغرب
- ٥ - إلى مرتع الفوا غيره  
وراع غريب العصا اجنبى
- ٦ - ومستقبل من قيود الحيا  
ة، شديد على النفس مستصعب
- ٧ - فراح بأيك، فمن ناهض  
يروض الجناح، ومن أزغب

- ٨ - مقاعدهم من جناح الزما  
ن وما علموا خطر المركبِ
- ٩ - عصفير عند تهجى الدرو  
س، مهار، عرابيد فى الملعبِ
- ١٠ - خَلِيُون من تبعات الحيا  
ة على الأم يلقونها والابِ
- ١١ - جُنُون الحداثة من حولهم  
تضيق به سعة المذهبِ
- ١٢ - عدا، فاستبد بعقل الصبى  
وأعدى المؤدب حتى صبى!!
- ١٣ - لهم جرسٌ مطرب فى السرا  
ح؛ وليس إذا جد بالمطربِ
- ١٤ - توارت بهم ساعة للزما  
ن على الناس دائرة العقربِ
- ١٥ - تشولُ بإبرتها فى الشبا  
ب، وتقذف بالسم فى الشيبِ
- ١٦ - يدق بمطرقتيها القضا  
ء، وتجري المقادير فى اللولبِ
- ١٧ - وتلك الأواعى بأيمانهم  
حقائب فيها الغد المختبى

١٨ - وفيها الذى إن يقم لا يعد

من الناس، أو يمض لا يحسب

١٩ - وفيها اللواء، وفيها المنا

ر، وفيها التبيع، وفيها النبى

٢٠ - وفيها المؤخر خلف الزحا

م، وفيها المقدم فى الموكب

٢١ - جميلٌ عليهم قشيب الثيا

ب، وما لم يجل، ولم يقشِبِ

٢٢ - كساهم بنان الصبا حُلَّةُ

اعزُّ من المخملِ المذهبِ

٢٣ - وابهى من الورد تحت الندى

إذا رف فى فرعاه الأهدب

٢٤ - واطهر من ذيلها لم يلمُ

من الناس ماشٍ، ولم يسحبِ



٢٥ - قطيع يُرْجِيهِ راعٍ من الدهـ

ر ليس بلين ولا صلبِ

٢٦ - أهابتُ هراوته بالرفا

ق، ونادتُ على الحيدِ الهُربِ

٢٧ - وصرف قطعائه فاستبد

ولم يخش شيئاً ولم يرهب

٢٨ - أراد لمن شاء رعى الجديد

ب، وانزل من شاء بالمخصب

٢٩ - وروى على ريهما الناهلا

ت، ورد الظماء فلم تشرب

٣٠ - والقى رقابا إلى الضاربي

ن، وذن باخرى فلم تضرب

٣١ - وليس يبالى رضا المستري

ح، ولا ضجر الناقم المتعب

٣٢ - وليس بمبقر على الحاضر

ن، وليس بباك على الغيب



٣٣ - فيا ويحكم! هل أحسوا الحيا

ة؟ لقد لعبوا وهى لم تلعب

٣٤ - تجرب فيهم، وما يعلمو

ن، كتجربة الطب في الأرنب

٣٥ - سقتهم بسم جرى في الأصو

ل، وروى الفروع ولم ينضب



- ٣٦ - ودار الزمان؛ فдал الصبا  
وشبُّ الصغارُ عن المكتبِ
- ٣٧ - وجدُّ الطلابُ، وكد الشبا  
بُ، وأوغلَ في الصعْبِ فالأصعْبِ
- ٣٨ - وعادت نواعمُ أيامه  
سنينَ من الدأبِ المنصبِ
- ٣٩ - وعُذِّبَ بالعلمِ طُلأْبُهُ  
وغصوا بمنهله الأعذبِ
- ٤٠ - رمتهم به شهواتُ الحيا  
ة وحبُّ النبَاهةِ والمكسبِ
- ٤١ - وزهوُ الأبوةِ من منجبِ  
يفاخِرُ من ليس بالمنجبِ
- ٤٢ - وعقلُ بعيدُ مرامى الطما  
ح، كبير اللبانةِ والماربِ
- ٤٣ - ولَوُعُ الرجاءِ بما لم تفل  
عقولُ الأوالى، ولم تطلبِ
- ٤٤ - تَنَقَّلَ كالنجمِ من غيهبِ  
يجوب العصورَ إلى غيهبِ
- ٤٥ - قديمُ الشعاعِ كشمسِ إنها  
ر، جديدُ كمصباحها المُلْهبِ

٤٦ - (أبو قراط) مثل (ابن سينا) الرئـ

س و(هومير) مثل (أبي الطيب)

٤٧ - وكلهمو حجر في البنا

ء، وغرس من المتمر المعقب



٤٨ - ثولفهم في ظلال الرخا

ء وفي كنف النسب الاقرب

٤٩ - وتكسر فيهم غرور الثرا

ء وزهو الولادة والمنصب

٥٠ - بيوت منزهة كالعتيـ

ق، وإن لم تُستّر ولم تُحجب

٥١ - يدانى ثراها ثرى مكة

ويقرب في الطهر من يثرب

٥٢ - إذا ما رأيتهمو عندها

يموجون كالنحل عند الرئي

٥٣ - رأيت الحضارة في حصنها

هناك وفي جندها الأغلب

٥٤ - وتعرضهم موكباً موكباً

وتسأل عن علم الموكب

٥٥ - دَعُ الحَظَّ يَطلُعْ بِهِ فِي غَدِ

فإِنَّكَ لَمْ تَدْرِ مِنْ يَجْتَبِي

٥٦ - لَقَدْ زَيْنَ الْأَرْضَ بِالْعَبْقَرَى

مُحَلَّى الْهَمَاوَاتِ بِالْكَوْكَبِ



٥٧ - وَخَدَشَ ظَفَرُ الزَّمَانِ الْوَجُو

هَ، وَغَيَّضَ مِنْ بَشَرِهَا الْمَعْجِبِ

٥٨ - وَغَالَ الْحَدَاثَةُ شَرْخُ الشَّبَا

بَ، وَلَوْ شِئْتَ الْمَرْسَفَى الشَّيْبِ

٥٩ - سَرَى الشَّيْبُ مَتْنِدَا فِي الرُّؤ

وَسَ سَرَى النَّارُ فِي الْمَوْضِعِ الْمَعْشِبِ

٦٠ - حَرِيقُ أَحَاظٍ بِخَيْطِ الْحَيَا

ةٍ تَعْجَبْتُ: كَيْفَ عَلَيْهِمْ غَبَى!!

٦١ - وَمَنْ تَظْهَرُ النَّارُ فِي دَارِهِ

وَفِي زُرْعِهِ مِنْهُمْ مَوْ يُرْعَبِ

٦٢ - قَدْ انْصَرَفُوا بَعْدَ عِلْمِ الْكِتَا

بِ لِبَابِ مِنَ الْعِلْمِ لَمْ يُكْتَبِ

٦٣ - حَيَاةٍ يَغَامِرُ فِيهَا امْرُؤٌ

تَسْلُحُ بِالنَّابِ وَالْمُخْلِيبِ

- ٦٤ - وصار إلى الفاقة ابنُ الغنى  
ولاقى الغنى ولد المتـرب  
٦٥ - وقد ذهبَ الممـتلى صـحةً  
وصحَّ السـقيم ولم يذهب  
٦٦ - وكم مُنجبٍ فى تلقى الدرو  
س تلقى الحـياة فلم ينجب  
٦٧ - وغاب الرفاقُ كأنْ لم يكنْ  
بهم لك عهدٌ، ولم تصحب  
٦٨ - إلى أنْ فنَّوا ثلثَ ثلثِ  
فناء السرابِ على السبـبِ



### الشاعر والقصيدة:

الشاعر هو أحمد شوقي \* المولود بالقاهرة عام ١٨٦٩ والمتوفى فيها عام ١٩٣٢؛ كان أبرز شعراء مدرسة الإحياء، وأبرز ناظميها. بايعه شعراء الأقطار العربية بما يسمى (إمارة الشعر) عام ١٩٢٧ فى خقل أقيم خصيصاً لذلك بدار الأوبرا المصرية حضرته وفود كثيرة التقاها الشاعر بنونيته الشهيرة التى يقول فيها:

كان شعري الغناء فى فرح الشرق

وكان العزاء فى أحزانه

قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح

وأن نلتقى على أشجانه

كلما أن بالعراق جريح

لمس الشرق جنبه فى عمانه

ويعد شوقي، مع حافظ إبراهيم وخليل مطران من لبنان؛ والرصافي والزهاوي من العراق<sup>(١)</sup> أهم الشعراء فى عصرنا الحديث الذين أعادوا

القصيدة التقليدية إلى جزالتها وقوتها بعد عصور الانسحاق والتردى في بواثن البديع والفسيفساء اللغوية بالعصر المملوكى والتركى. كما يعدون الجسور القوية التى عبرت عليها هذه القصيدة فى مسارها الطبيعى نحو التطور الذى بلغته فى شعرنا العربى الحديث.

درس الشاعر بالقاهرة، ونال إجازة الحقوق من فرنسا ونفى إلى إسبانيا (الأندلس) إبان الحرب العالمية الأولى وكتب فى هذه الفترة قصائده الأندلسية: (يا نائح الطلح) وموشح (صقر قریش) ومعارضته لسينية البحتري؛ ومعارضاته لابن زيدون ومسرحيته النثرية: (أميرة الأندلس)، وغيرها من الأعمال وعاد إلى القاهرة بعد أن وضعت الحرب أوزارها وظل مشاركاً بشعره فى أحداث العصر السياسية والاجتماعية والثقافية إلى أن توفى عن ثلاثة وستين عاماً مخلفاً وراءه نتاجاً ضخماً؛ تضمن شعره المجموع فى أربعة أجزاء بعنوان (الشوقيات) ومعالجته للمسرح الشعرى التى نجم عنها ست مسرحيات هى: (على بك الكبير) و(مجنون ليلى) و(مصرع كليوباترا) و(عنتره) و(قمبیز) و(الست هدى) فضلاً عن مسرحيته النثرية: (أميرة الأندلس) التى أشرنا إليها سلفاً. كما تضمنت آثاره كتاباً نشرها بعنوان: (أسواق الذهب) وأرجوزة طويلة هى: [دول العرب وعظماء الإسلام]. إضافة إلى ما اكتشف من شعره بعد وفاته وجمعه العلامة محمد صبرى السريونى تحت عنوان: (الشوقيات المجهولة).

أما القصيدة فهى (مصاير الأيام) من ديوانه [الشوقيات] الجزء الثانى، وهى إحدى قصائده القليلة التى تخرج عن إطار المناسبات؛ والتى خلا فيها الشاعر إلى ذاته<sup>(٢)</sup> يتأمل، ويكتب بعيداً عن قيود القصر والأغراض الشعرية المفروضة. وقد انطلقت القصيدة معبرة بلا قيود — إلا ما يفرضه الشكل التقليدى — عن رؤية شاملة لتصاريف الحياة وأقدارها. هذه الأقدار التى عقد لها الشاعر لواء البطولة فى القصيدة، متتبهاً آثارها المنعكسة على (الطفولة البريئة)<sup>(٣)</sup> تسعى فى أمن وطمأنينة؛ ويخطى مرتجفة أحياناً،

ترصدها عين لا تنام، وتبدأ الخطوات الأولى إلى مقاعد الدرس؛ وتتسع هذه الخطوات على دروب الحياة، تلتقى وتفترق، تجرى وتتعثّر؛ تتقدم وتتخلف، تومض آمال وتنطفئ مطامح؛ مطاردة يراقبها الشاعر في شتى مراحلها بعيني خياله من خلال ذلك المشهد البرئ وتتداخل المراحل إلى أن تتلاشى تلك الملامح كالسراب على اتساع صفحة الفياض الممتدة .. وبعد رحلة شاقة شائقة.

### النص: قراءة وتحليل:

انتقى الشاعر بحر «المتقارب» بإيقاع تفعيلته: [فعولن] ويتدفقها السريع على طول البيت الشعري، ويتواتر إيقاعها الذي يوحى بالسرعة والتدفق، والاتصال المتلاحق في الأبيات المدورة - وهي كثيرة في مثل هذا البحر - بشكل مطرد متلاحق يوحى نفسياً بالمطاردة؛ وهي ملائمة لأطراف رحلة الحياة، ومطاردة الأقدار لهؤلاء الصبية في رحلة الحياة: نحو الشباب فالكهولة فالشيخوخة .. فالموت. وقد يقرأ القارئ أبيات مقطع كامل من القصيدة متصلة متلاحقة - وبلا توقف - مما يوحى بسرعة تدفق الحياة وعدم توقفها. وهو معنى يؤكد الشاعر في القصيدة .

وقد قسم الشاعر القصيدة إلى ستة مقاطع: الأول، الأبيات (١ - ٢٠) والثاني (٢١ - ٢٤) والثالث (٢٥ - ٣٢) والرابع (٣٣ - ٤٧) الخامس (٤٨ - ٥٦) والسادس (٥٧ - ٦٨) والقصيدة، على هذا التقسيم؛ تضطرب بها بعض الأبيات، وينبغي لبعضها أن تدخل ضمن قسم آخر غير الذي جاءت فيه سياقاً وبناءً وهي ككل القصائد التقليدية كانت تحتاج إلى تكثيف أدق؛ ولو قسا الشاعر عليها قليلاً وحذف بعض زوائدها، لكانت من عيون الشعر العربي، ولكن لنقرأ القصيدة على ما هي عليه، وكما جاءت بتقاسيمها في ديوان الشاعر، سواء كان هو الذي قسمها، أو فعل ذلك جامعو الديوان؛ فلا شك فيها الكثير من العطاء ونحن هنا، لا نحاول شرحها، إنما نقدم قراءة وإضاءة لعمل شعري نراه جيداً إن لم نقل متميزاً.

● المقطع الأول (١ - ٢٠): بعد هذا المفتتح المدرسى (ألا حبذا..) وهو مناسب ولائق تماماً لافتتاح درس الحياة، وإن كان ثقيلًا إبداعياً؛ وبعد هذا التشبيه ببسمات الحياة وأنفاس الريحان تلك المقدمة التي لا تستغرق سوى أبيات ثلاثة يلتقط الشاعر الخيط الخفى ويبدأ من البيت الرابع رحلة المجهول. يتجلى ذلك فى استعماله (المبنى للمجهول) فى: (يُراح.. ويُغدى) ويمضى الشاعر فى تقديم لوحات قصيرة: الأولى (٤ - ٦) القطيع المنحدر نحو المجهول على مشرق الشمس والمغرب. الثانية (٧ - ٩) الأفراخ الزغب وهى تحاول النهوض والخطى المتعثرة. وإذا كانت هذه الأفراخ تروض الجناح فى البيت السابع، فلنا أن نرى جناحاً.. آخر فى البيت الثامن لا يؤتمن. وشتان بين الجناحين. وتبدأ جدلية الصور وتداخلها من هذين البيتين حتى تصل على سبيل المثال إلى نقله أخرى من البيت (١٥)

### تشول بإبرتها في الشباب

#### وتقذف بالسهم فى الشيب

ويلتقط الشاعر هذا التناقض فى البيت التاسع (العصافير الزغبية/المها المعريدة): وكذلك هذا الجرس (المطرب حيناً، الزاجر الناهى حيناً آخر البيت ١٣)، والأبيات (١٤ - ١٦) محاولة لتجسيد الحياة والأقدار فى صورة العقرب. ويستعمل الفعل (تشول) وهو من أقوى الأفعال الدالة على فعل العقرب إذا تاهبت للدغ. يقول المتنبي: (واصفأ الخيل وقد كرت بفوارس يرفعون القنا)

#### شوائل تشوال العقارب بالقنا

على أن هذه العقرب، وهى تشول بإبرتها للشباب، قد تقذف سمها فى الشيوخ. وتلك من المفارقات التى يلتقطها الشاعر ليوصل بحثه فى قانون الحياة...



الآيات من (١٧ - ٢٠) محاولة لاستجلاء المجهول من خلال حقائب الصغار. إنها لا تحوى دفاتر أو كتباً. إنها تضم (الغد المختبى) وكم هى كناية جيدة عن (المجهول) وما يخبؤه المستقبل لهؤلاء (الخليون من تبعات الحياة...).

● المقطع الثانى: (٢١ - ٢٤) فى رأينا أنه يعترض استرسال الشاعر خاصة إذا ما لاحظنا أن المقطع الأول فى (البيت ٢٠) ينتهى بلفظة (الموكب) وأن المقطع الثالث (البيت ٢٥) يبدأ ثانية بلفظة (قطيع) وهو ما يجعل المشهد متصلاً والرؤية متدفقة.

ولكن شوقى ربما أراد فنياً، أن يعمق هذا التضاد بين الحياة بما ساقه من صورها المجهولة ووضوح الصورة فى مشهد هؤلاء الصبية المتجلمين الناعمين البعيدين عما تحوك لهم الأقدار من مصائر. يؤكد ذلك مفردات الآيات [قشيب الثياب - بنان الصبا - المخمل المذهب - أبهى من الورد تحت الندى - الفرع الأهدب - إلخ..] .. وربما أراد أن يقطع - بلغة السينما - السياق بهذا المونتاج الفنى حين يثبت الكاميرا - لو صح التعبير - على هذا المشهد الجانبى الذى يعترض السياق.. وهو جزء منه أيضاً.

● المقطع الثالث: (٢٥ - ٣٢) وفيه تتوهج القصيدة فى أولى خطواتها نحو الذروة. يتناول الشاعر الصورة التى ألم بها إجمالاً فى البيت الرابع [القطيع] ويبدأ فى تفتيت جزئيات الصورة وتغذيتها من خلال اكتشافه قانون التضاد وتعميق المفارقة ورؤيته لثنائية الأشياء، وهذا سر من أسرار الشاعر العظيم أدركه المتنبى مبكراً وعزف على أوتاره طويلاً..

- القطيع/ والراعى المستبد، الهراوة القاهرة/ والمستكين والهارب..

- الجديب/ المخضب، الظماء/ المرتوية، القى/ ضن، الرقاب المضروبة/

أخرى لم تضرب.

- رضا/ ضجر، المستريح/ الناقم المتعب، الحاضرون/ الغيب كل هذا

فى إطار تصاريى الحياة ومفارقاتها فى محاولة جادة من الشاعر لاستكناه ما يحيط بها من غموض، وإزاحة ما يكتنفها من خبايا وججب..

● المقطع الرابع [٣٣ - ٤٧] ويبدأ بصيحة الشاعر: [فيا ويحهم!!] وعلى مدى الأبيات [٣٣ - ٣٥] يرى الشاعر جدية الحياة وجهامتها تواجه هؤلاء اللاهين اللاعبين، وتمدهم على طاولة التشريح!! ويبدأ الإيقاع السريع ينتظم القصيدة من البيت [٣٦ إلى نهاية المقطع] لتتنامى الرؤية، ويستعمل الشاعر أفعال متلاحقة [دار، فдал، وشب، وجد، وكد، وأوغل، وعادت.. وعذب.. إلخ] مع ملاحظة استعمال الشاعر التعقيب بـ (الفاء) و[دار الزمان، فдал الصبا] و[أوغل فى الصعب فالأصعب] (٤) ولا ينسى الشاعر رؤيته الثنائية للأشياء، ولا التضاد القائم فى الحياة [نواعم أيامه / سنين من الدأب المنصب]، [عذب بالعلم طلابه]، [غصوا بمنهله الأعذب] ثم يصل إلى جوهر النفس البشرية فى حكمة من غوالى حكم شوقى التى اشتهر بها.

## وزهو الأبوة من منجب

### يفآخر من ليس بالمنجب

ويذكرنا فى هذا البيت والأبيات التى تليه بحكمة المتنبى الخالدة:

لمن تُطلب الدنيا، إذا لم تُرد بها

### سرور محب أو إساءة مجرم!!

ويختتم الشاعر هذا المقطع بتلك الأبيات الثلاثة [٤٥ - ٤٧] التى تعرض لتلك الرؤية الحضارية التى أحسها شوقى وأدركها عن عطاء العقل البشرى، وتكامل الحضارة الإنسانية فى كل مراحلها وفى مختلف عطاءات أبنائها على تباين أجناسهم.

● المقطع الخامس: [٤٨ - ٥٦] يحاول شوقى أن يكسر حدة السياق، فلم ينس وظيفته التربوية، شاعراً اجتماعياً، ولم ينس دوره فى إطار مجتمعه

وعصره، فيعترض هذا السياق المتأمل المتدفق بهذه الأبيات التى تتناول [المدرسة] ويأتى حديثه عنها تقليدياً، ويتكى على خياله لتوليد الصور. فيقارنها بالعتيق ومكة ويثرّب، وإن كان البيت (٥٢) بواقعيته وصدقه أقرب إلى النفس وأعذب. على أن الشاعر لا يلبث أن يتخلص من تلك المهمة الثقيلة لينهى المقطع بهذه الأبيات:

## وتعرضهم موكباً موكباً

### وتسأل عن علم الموكب

### دع الحظ يطلع به فى غد

### فإنك لم تدر من يجتبى

وددت شخصياً - لو انتهى المقطع عند هذا البيت؛ فالنهاية كما يقولون - مفتوحة؛ والخيال متسع وشاسع أمام المتلقى والقارئ ولكن قاتل الله الشاعر الحكيم فى شوقى لقد جعله يزيد الحكمة الأخيرة وهو مولع بإنهاء مقاطع قصائده بالحكمة. وتلك - أى - الحكمة - إحدى خصائص شعره.

● والمقطع السادس والأخير: الأبيات (٥٧ - ٦٨) هى أبيات المواجهة، تبدأ بالفعل (وخدش) ثم (ظفر الحياة) هذا الفاعل البغيض ثم تأتى الصياغة الراقية [ وغيض من بشرها المعجب ] وهذه الصياغة شوقية النسيج - كما يقولون - وهى من خصائص شعره الذى يمتاز بالتحكم العجيب فى اللغة والدراية بأسرارها وجرسها ودقائق معجمها، بحيث يبدو الشعر عنده صناعة متمكنة خفية تنم عن ثقافة وممارسة خلاقة.

وتستمر المواجهة بين الحياة وأبنائها الذين شبوا عن الطوق. ويتلاشى المرد فى الشيوخ ويبعث الموتى فى الأحياء. ويسرى الشيب حريقاً فى الرؤوس. وتبرز الأنياب والمخالب لتعلن عن شريعة الحياة والقانون الذى اكتشفه الشاعر بعد لآلئ .. تنقلب الآيات ليغتنى المعدم ويفتقر الثرى..

وليلتهم - أى الموت - بدين القوم وصحيحهم، ليدب فوقه السقيم المعلول؛ وليكتشف البعض أن ما تعلمه دراسياً غير مجدٍ فى مواجهة الحياة - وكأن شوقى هنا يشير من طرف خفى إلى معاصريه، قائلاً إن علم المدرسة ليس وحده هو الناجع المجدى فى هذا الخضم المضطرب - ويغيب الرفاق الذين لم نكن نحسب أننا مفارقوهم، ويتوارى عهدنا بهم.. ويشيع البيت الأخير ذلك العهد الماضى العذب .. وهؤلاء الرفاق.. الذين..

### .... فنوا ثلثة ثلثة

#### فناء السراب على السبب

وتنتهى القصيدة التى - على ما فيها من نظرات صادقة فى الحياة ومصائرهما ومن رهافة الحس الإنسانى، وجدة الزاوية وذكاء التناول للموضوع - لم تلق - على كثرة من تعرض لشعر شوقى - من يلتفت إليها دارساً أو ناقداً. وربما جاءها سوء الطالع هذا من ذلك المطلع المدرسى الذى جاء مخالفاً لما عرف عن شوقى من براعة الاستهلال. ذلك المطلع المدرسى الذى لم ينج من يد معلمى النحو والبلاغة فى سنى الدراسة الأولى.

بقى أخيراً أن نلقت النظر إلى تلك النزعة الواقعية والتجريدية التى سيطرت على القصيدة فى وصف الحياة، والنابعة من موقف فكرى وتجربة حكيمة فى مواجهة الحياة، بعيداً عن التفجع والتحسر وإبداء الشكوى والألم فى كل ما عرفناه من شعرنا العربى إزاء موضوع الحياة والتبرم من الأقدار.



## هوامش:

\* في لقاء مع الأستاذ الشاعر حميد سعيد تناول حديثنا الشعر التقليدي وشعر مدرسة الإحياء. وكان لي رأي في شوقي اختلفنا حوله. وقد أشار الشاعر حميد سعيد إلى ذلك في الحوار الذي أجرته معه مجلة (فنون) في عددها الصادر في ٢٥ / ٤ / ٨٥. وكان هذا دافعاً لي أن أكتب عن شوقي وأتناول بعض قصائده، وإنتاجه بالقاء الضوء والتبنيه إلى انجازاته.

١ - يضاف إلى هذه الكوكبة اللامعة من فرسان القصيدة العربية، في عصر الإحياء، اسم الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري الذي اعترف لشوقي بالريادة ولم يخف إعجابه به وترسمه خطاه في حديثه بمجلة الطريق الذي أدلى به إلى الناقد الدكتور غالي شكرى في أوائل السبعينيات. ويمكن دراسة نتاج الجواهري في ضوء تأثيره بشوقي صياغة واقتفاء معانٍ.. على سبيل المثال قصيدته الشهيرة:

أتعلم أم أنت لا تعلم

بأن (جراح الضحايا فم)

وقصيدة شوقى فى عمر المختار (التى يذكر الجواهرى فى حديثه ذاك  
إعجابه بها):

ركزوا رفاتك فى الرمال لواء

يستنهض الوادى صباح مساء

ويقول فيها شوقى:

(جرح يصيح على المدى) وضحية

تتلمس الحرية الحمراء

٢ - قليلاً ما خلا شوقى إلى ذاته فى إبداعه، وحينما كان ينأى عن  
المناسبات التقليدية والتكليفات الإبداعية كان يأتى بالجديد المبتكر. ومن  
العجيب أن شوقى فى المقدمة التى كتبها للجزء الأول من ديوانه الصادر فى  
حياته كتب يقول:

«أولم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبى، مثلاً؛  
حياته العالية التى بلغ فيها إلى أقصى الشباب، ثم يموت عن نحو مائتى  
صحيفة من الشعر، تسعة أعشارها لمدوحيه والعشر الباقى وهو الحكمة  
والوصف للناس...».

والعجيب هنا أن وعى شوقى بذلك لم يصمد أمام إغراء وظيفته  
(الشاعر الرسمى) التى كانت حلم الشعراء، بما فيهم حافظ إبراهيم شاعر  
الشعب كما دُعى وأطلق عليه؛ لقد سلم شوقى بذلك، حين قال بأسف  
وأسى، فى المقدمة نفسها، عن مفهوم الناس للشعر والشاعر آنذاك:

«والقوم فى مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً فى مقام عال،  
ولا يرون غير شاعر الخديوى صاحب المقام الأسمى فى البلاد...».

ونحن لا نبرر لشوقي طموحه إلى تلك المنزلة، ولكن نبسط الظروف التي عاش فيها؛ ونضيف قائلين: إن شوقي لو خلا إلى ذاته، وأخرج ملاحظته عن المتنبي ووضعها حيز التنفيذ بالنسبة لإبداعه لجنينا منه الكثير لأدبنا العربي.

٣ - يعد شوقي الشاعر العربي الوحيد آنذاك الذي اهتم بالطفل والنشء العربي إبداعياً، نعم سبقته وواكبته محاولات مثل قصائد محمد الهراوي، ولكنه شوقياً كان أكثر موهبة وإخلاصاً فقد أدرك أثناء دراسته بفرنسا أهمية أن تكون هناك قصائد للأطفال وعاد متأثراً بحكايات لافونتين؛ وقد صاغ على لسان الحيوانات مجموعة قيمة من القصص والحكايات الشعرية - ليس هذا مجال تقويمها - ولكنها كانت النواة الأولى لمكتبة الطفل العربي.

٤ - العطف أو التعقيب بـ (الفاء) إحدى خصائص أسلوب شوقي وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض الأمثلة:

- في قصيدته (بعد المنفى) يصف وصول السفينة إلى ثغر الاسكندرية:

وقيل الثغر، فاتادت، فارست . . فكانت من ثراك الحرّ قاباً

- في قصيدته.. كبار الحوادث في وادي النيل:

قلّ لبان بني فساد فغالى . . لم يجز مصر في الزمان بناءً

- في أبياته في رثاء الإمام محمد عبده يقول:

هو الدهر: ميلاد، فشغل؛ فماتم:

فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوت





# تحولات الشاعر في مسرح صلاح عبد الصبور

إن الشعر هو صاحب الحق الوحيد في المسرح ...  
صلاح عبد الصبور

---



«.. ظل المسرح الشعري طموحا يخاليني سنوات حتى كتبت مسرحيتي «مأساة الحلاج». وكانت لي قبلها تجربة لم تتم في كتابة مسرحية عن «حرب الجزائر» ولكن طويت أوراقها لأنني وجدتني قد وقعت في أسر شكسبير. اذ خلقت شخصية «هاملتية». مثقف جزائري حائر بين القتل العادل والثقافة المتاملة. وقد كتبت هذه المسرحية الناقصة في بضعة مشاهد، فلما ايقنت من وقوعي تحت عربة شكسبير وبخاصة في مشهد يأبى فيه المثقف قتل خصمه وهو يصلي . صرفت النظر عنها ..»

هكذا يبدأ صلاح عبد الصبور حديثه عن تجربته في المسرح الشعري في الجزء الأخير من كتابه «حياتي في الشعر» الصادر عام ١٩٦٩ عن دار الآداب - بيروت . ولم تكن مسرحيته المجهضة عن «حرب الجزائر» هي التجربة الوحيدة في هذا الميدان . بل يحدثنا الشاعر عن محاولته الأولى لاستلهام التراث العربي مسرحيا من خلال قصة «المهلهل بن ربيعة» وكيف وقع ثانية تحت عربة شكسبير (.. فلم أكد أجيل بناءها في ذهني حتى رأيت أنني اقتررب قريبا مميتا من مسرحية «يوليوس قيصر»..)

وانطلق صلاح عبد الصبور يخطو إلى أرض المسرح الشعري مستلهما التراث العربي التاريخي منتقيا الصوفي الحسين بن منصور الحلاج بطلا لأولى مسرحياته، متوخيا - في وعي - أن يفلت من تحت عجالات عريات شكسبير - على حد تعبيره - (وان كنت لا أدري هل نجوت من غيرها من

العريات ..) (١) .

(١) بعد أن يموت الملك ص ١٦٠ .

ولكن ترى هل يغنى الحذر ٩.. ربما كان الشاعر باعترافه المستطرد هذا يشير بإحساسه الصادق إلى ما تناوله النقاد حول تأثيره فى ذلك العمل بشاعر كبير - لم ينكر صلاح عبد الصبور طوال حياته تأثيره به والاشادة بأثره . فيه - وهوت . س . اليوت فى مسرحيته : ( جريمة قتل فى الكاتدرائية ) من حيث اختيار كل منهما للبطل ( الحلاج / توماس بيكيت ) .. وربما من حيث الموضوع و البناء المسرحى أيضا واللغة الشعرية .

توالى بعد (مأساة الحلاج ١٩٦٤) أعمال صلاح عبد الصبور المسرحية : (مسافر ليل ١٩٦٩) - ليلى والمجنون (١٩٦٩) - (الأميرة تنتظر ١٩٧٠) (بعد أن يموت الملك ١٩٧٣) .

والناظر فى إنتاج صلاح عبد الصبور من المسرح الشعرى يلاحظ فى مسرحيتى (ليلى والمجنون) و (بعد أن يموت الملك) - أن بطل كل منهما شاعر بل اننا لا نكون مغالين اذا اعتبرنا الحلاج - بطل المسرحية الأولى - شاعرا أيضا وهو كذلك فعلاً - وقد اتخذ صلاح عبد الصبور نفسه من ذلك الصوفى العظيم قناعا .

إذن ليس الحلاج صوفيا فحسب بل شاعر أيضا تورقة الكلمة . وصلاح عبد الصبور ينسج المسرحية من فصلين : الكلمة - الموت . ولماذا نذهب بعيدا عن رأى صلاح عبد الصبور ونلتمس تفسيراً .. ألم يقل :

(هنا ألفت المسرحية قضية دور الفنان فى المجتمع . وكانت اجابة الحلاج هى أن يتكلم .. ويموت . فليس الحلاج عندى صوفيا فحسب ولكنه شاعر أيضا .. والتجربة الصوفية والتجربة الفنية تنبعان من منبع واحد . وتلتقيان عند نفس الغاية .. كان عذاب الحلاج طرعا لعذاب المفكرين فى معظم المجتمعات الحديثة . وحيرتهم بين السيف والكلمة، بعد أن يرفضوا أن يكون خلاصهم الشخصى باطراح مشكلات البشر والإنسان عن كواهلهم هو غايتهم ، وبعد أن يؤثروا أن يحملوا عبء الإنسانية عن كواهلهم .

.. وكانت مسرحيتى مأساة الحلاج معبرة عن الإيمان العظيم الذى بقى

لى نقيا لا تشوبة شائبة.. وهو الإيمان بالكلمة ..)



يأتى الشاعر - بلا قناع - فى مسرحية (ليلى والمجنون) ليمثل حضورا  
أقوى وأشد .. ورغم عجزه وحصاره يتدفق صوته شلالا منذرا بالخطر .

يا أهل مدينتنا

هذا قولى : انفجروا أو موتوا

ان الشاعر فى (ليلى والمجنون) يظل هائما بليلاء - ومن السخرية ان  
يختار له المؤلف اسم (سعيد !!) - أنه يظل على هامش الحياة. متهما بالنظر  
- مجرد النظر - إلى المستقبل يغازل الثورة ويتغنى لها .. لم يتجاوز (الغناء)  
إلى (الفعل) ولم يحقق شيئا لليلاء التى انتظرت طويلا ليتخطى حاجز العجز  
. ظل يتغنى هو . وظلت هى سابعة فى وهم الانتظار حتى اقتنصها (حسام)  
الانتهازى . فما كان على الشاعر الا أن ينتظر القادم من بعده ليخلص ليلاه  
من الشركس مكتفيا بإرسال رسائله إلى أنبيائه القادمين.

فى الوقت الذى تسقط فيه (ليلى) ويخون (حسام) يثور (حسان) فى  
اندفاع . وتختار (سلوى) الدير : (أول ما خطر ببالي حين احترق العالم فى  
قريتنا دير أذهب كى اطرق بابه..) انه الهروب من مواجهة العالم المحترق .

ويسدل الستار على الشاعر وهو يستل من جيبه قصاصة من الورق  
ضمنها رسالته الأخيرة إلى (لبنى الذى يحمل سيفاً)

يا سيدنا القادم من بعدى

أنا أصغر من ينتظرونك فى شوق محموم

لا مهنة لى .. اذ أنى الآن نزيل السجن

متهما بالنظر إلى المستقبل

يأتى الصوت نزيفا مهزوما .. مدانا مدينا .. وفى حاشية الرسالة  
يدعوه سعيد ان يحمل سيفه .. ويظل يردد :

أنا .. لا

## أنا وقت مفقود بين الوقتين عمر مفقود بين الماضى والمستقبل أنا .. أنا أنتظر القادم

ان (الحلاج) المصلوب جعل (سعيد) الشاعر فى «ليلى والمجنون» يطلب من القادم من بعده الا ينسى سيفه . ويأتى الشاعر فى (بعد أن يموت الملك) ليحقق تلك النبوءة. تحول مزماره إلى سيف يرفعه فى وجه الجلاذ . يققاً به عينة. إنه يتخطى بذلك دور المغنى سعيد ، ودور المصلوب الحلاج. فإذا اعتبرنا الشاعر فى «مأساة الحلاج» داعياً ومصلحاً ، وسعيداً فى «ليلى والمجنون» نبياً قعيداً منهزماً ، فإننا نرى الشاعر فى (بعد أن يموت الملك) قادراً على الدفاع عن الحلم . مسئولا عن تحقيقه . جديراً بأن تعقد عليه آمال وآمال . انه لا يتخلى عن الملكة ويفر بها بعيداً عن الموت . يتجاوز القول إلى الفعل فى مواجهته للجلاذ . بل ينتصر عليه رغم ضعف سلاحه أمام قوة الجلاذ الغاشم .

لم يكن الشاعر الا جزءاً من البلاط المتهرىء. ولم يكن دوره يتعدى تلقين محظيات الملك شعراً يتغنين به فى خلوته معهن . والملك يمن عليه أنه يأويه ويطعمه . والمليكان واهمان يحلمان بطفل لا يأتى. ويداعبان سراباً لا يتحقق. وتفيق الملكة على موت الملك. وتتسول طفلاً من حاشية لا تجيد غير الوهم والملقى . يرن صدى السؤال (هل تعطينى طفلاً؟) ويعجز الوزير ، والقاضى، والمؤرخ وتصل عيون الملكة إلى الشاعر .. ليهمس :

فلتعبرنى عينك يامولاتى ..

أنا مثلك لا يرضينى هذا المشهد

كلماتى يا مولاتى لا تصنع طفلاً

لكنى لا أملك إلا كلماتى

انها بذرة العجز الكامنة ، الإرادة المشلوله (عند سعيد) لكن الملكة التى يبدو أنها قد عرفت قدر اختيارها .. وكانت أكثر إيجابية من ليلى) .  
انك فما يبدو ستكون صديقى ..

ويكاشف الشاعر مليكته أنه شاهدهما بجوار النهر قبل الملك.. وينسلان بعيدا عن القصر الخرب .. ويعيدا عن الموت قريبا من الحياة.. البلاط لا زال يعيش فى وهم عودة الملك . الذى ينبعث من جثته صوت موهوم «أبغى الملكة جنبى» . وحين يرسل البلاط لإعادة الملكة كى تتمدد إلى جوار الملك المسجى يدافع الشاعر عن الحياة. عن المستقبل الذى تحلم به الملكة فى صورة طفل. يخرج زمواره (الذى هو رمز لغناء الشاعر وصوته) ويصرع الجلال . وتهلل الملكة لفروسية الشاعر . وتعانق فيه حلمها الذى أوشك على التحقق.

إن دور الشاعر فى «بعد أن يموت الملك» لا يقف عند الحلم . بل يتخطاه إلى تحقيق هذا (الوهم) ويكون الشاعر أداة لإنجازه (كواقع فى صورة طفل يهديه الشاعر للملكة..). كان من الممكن أن ينتهى دور الشاعر هنا ولكن صلاح عبد الصبور فى الفصل الثالث من (بعد أن يموت الملك) يعرض علينا حلولا ثلاثة يسعى الشاعر خلالها لإثبات حقه وحق ملكيته وابنه فى استعادة العرش المفقود . يتعامل الشاعر فى نبل وتسامح مع الحل الأول (شكوى الاقدار) فلا يسمح باقتسام الملكة بين الموت والحياة. وهو حل سخر منه المؤلف وأوسعته تهكما بلسان الراويات الثلاث المشتركة فى العرض . أما الحل الثانى (الانتظار) ففيه يجيء المستقبل فى هيئة ابن العشرين. طفل الأمس . ولد الشاعر والملكة ويهدم أركان القصر الخربة ويطرد منه البوم والبلاط المسترخى والمسجى فى انتظار عودة الملك من (هاديس) .. بعد أن يتفتت التاج بين أصابع الشاب الثائر (وهو وجه آخر من وجوه الشاعر عند صلاح عبد الصبور) .

إن ثلاثا من مسرحيات صلاح عبد الصبور تحتفل بدور الشاعر فى المجتمع.. بل إنها المسرحيات الثلاث الأطول لديه (★) .

وقف الشاعر مصلوبا على كلمته فى (مأساة العلاج).

هل عاقبنى ربى فى روحى ويقينى

اذ أخفى عنى نوره

أم عن عيني حجبته غيوم الألفاظ المشتبهه  
والأفكار المشتبهه  
هل أرفع صوتي أم أرفع سيفي؟ ماذا أختار؟  
أو سجيناً مهزوماً في (ليلي والمجنون) :  
رجل في ثوب مهرج مخروم ومعلق في عقله سلك  
تضغط يعلو، تضغط يهبط  
طبعاً في الأحوال العادية يهبط  
لكن لا يسقط أبداً أو يخرج من برواز السلك  
إلا أنه بعد رحلة خصبة شاقة.. وحين اختار السيف توجهته الملكة في  
(بعد أن يموت الملك) :  
تابعي الغاني في حبي  
الناسج لي أحلام المستقبل  
المتغني بالصباح الأجمل  
الصباح الأجمل..



إنها تحولات الشاعر في مسرح صلاح عبد الصبور؛ أو رحلته  
لاكتشاف دوره في الحياة .. ويا لها من رحلة شاقة مضيئة !!

---

\* توفي الشاعر صلاح عبد الصبور وترك في أوراقه بعد رحيله تخطيطاً مسرحية  
شعرية كتب منها فصلاً وأكثر من مشهد. وقد اختار (عنتره) الفارس الجاهلي بطلاً  
لها. وهو شاعر أيضاً .



مظاهرة السيدات:

الحسن الشيعي عند

جسارتهم في الفهم



لم تكن الحرب الأولى تضع أوزارها؛ حتى هبّ المصريون في الثامن من مارس ١٩١٩ يطالبون الإنجليز بالجلء عن مصر . في ذلك اليوم انطلقت شرارة الثورة بمجموعة من المظاهرات قادها الطلبة والمحامون وأصحاب الحوانيت وصغار التجار. ولدة أسبوع استمرت المظاهرات والإضطرابات والامتناع عن الحضور إلى المحاكم والمكاتب ودواوين الحكومة ؛ ثم مالبت أن انضمت جموع العمال والمثقفين وأقاموا المتاريس في الشوارع وحفروا الخنادق دفاعاً عن الأحياء الشعبية؛ واستخدموا الحجارة والعصى والأدوات الحادة في مواجهة جنود الاحتلال - كما يروى المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي - واندلع لهيب الثورة ايعم مصر كلها فهوجمت القطارات العسكرية وقطعت المواصلات ودُمرت مخازن قوات الاحتلال . وكانت الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط شارة بارزة على صدر تلك الثورة. على أن العلامة الفارقة في تاريخ مصر الاجتماعي والسياسي هي خروج المرأة المصرية السافر - في ذاك الزمن - لشارع - لنشارك في ملحمة النضال - انطلاقاً النساء في هذه المظاهرات .. وتعرضت لهن قوات الاحتلال . العسكرية وجاء صوت شاعرنا في قصيدته (مظاهرة السيدات) .. ليسجل لنا هذا الجانب من لوحات ثورة ١٩١٩ .

## مظاهرة السيدات

خرج الغواني يحتجج - بن؛ ورحت ارقب جمعهنه  
فإذا بهن تخذن من - سود الثياب شعارهنه

فطلعن مثل كواكب	يسطعن فى وسط الدجنه
وأخذن يجتزن الطريق	ق ودار(سعد) قصدهنه
يمشين فى كنف الوقا	ر، وقد أبْنُ شعورهنه
وإذا بجيش مقبل	والخيل مطلقة إلا عنه
وإذا الجنود سيوفها	قد صوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنا	دق والصوارم والاسنة
والخيل والفرسان قد	ضربت نطاقاً حولهنه
والورد والريحان فى	ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا	عات .. تشيب لها الأجنه
فتضعض النسوان والنسوان	وان ليس لهن مُنَّه ..
ثم انهزمن .. مشتا	ت الشمل نحو قصورهنه
فليهن الجيش الفخو	ر بنصره .. وبكسرهنه
فكانما الألمان . قد	لبسوا البراقع بينهنه
واتوا ب (هندنبرج) مخ	تفيا بمصر .. يقودهنه
فلذاك خافوا بأسه	هن .. وأشفقوا من كيدهنه

النص المختار للشاعر حافظ إبراهيم ؛ الملقب بشاعر النيل ؛ والمولود من قبيل المصادفة فى (ذهبية) وهى (عوامة) صغيرة كانت ترسو على شاطئ النيل فى صعيد مصر ، وكان يسكنها أبوه، أحد المهندسين المشرفين على الرى فى قناطر (ديروط). ولد حافظ إبراهيم حوالى عام ١٨٧٢؛ إذ لم يُعرف تاريخ ميلاده بالتحديد ؛ وقد توصل دارسوه إلى تحديد هذا التاريخ من سجل خدمته فى (دار الكتب المصرية) ؛ التى عين رئيساً للقسم الأدبى بها ؛ فى الفترة من ١٩١١ إلى أن أحيل إلى المعاش فى الشهر الثانى من عام ١٩٣٢ قبل حوالى خمسة شهور من وفاته التى كانت فى ٣١/٧/١٩٣٢ .

فى الرابعة من عمره توفى والده؛ فانتقل إلى القاهرة مع والدته، ليعيش فى كنف خاله. الذى ألحقه بالتعليم الابتدائى. وحين نقل خاله للعمل بـ (طنطا) انتقلت الأسرة معه؛ وهناك التحق حافظ بـ (المعهد الأحمدي) ومن هنا بدأت علاقته القوية والوثيقة باللغة. وبدأ يحفظ جيد الشعر ويسمُر به بين أصدقائه ولم ترق حياة حافظ لخاله؛ ذلك أنه أهمل دراسته ولم يكملها، فبرم به؛ وسرعان ما بادلته حافظ الملل. وانتهت صفحة من حياته ببيتين تركهما لخاله؛ يئمان عن الألم المشوب بالسخرية؛ وهى السمة التى تطالعا فى النص المختار، كما تفصحان عن غيظ مكتوم اكتسى قناع التهكم.. وأخيراً فى الشطر الأخير منهما ذلك الحس الشعبى الذى كان سمة مميزة فى شعر حافظ طوال حياته.. ترك حافظ لخاله هذين البيتين:

ثقلت عليك مؤونتي                      إنى أراها واهيه  
فأفرح.. فإنى ذاهب                      متوجه فى داهيه

طوى حافظ خلفه صفحة من حياته، وودع مكتب المحاماة الذى التحق بالعمل به فى طنطا واستقبلته القاهرة.. وبدأ اسمه يتردد فى منتديات الأدب ومجالسه، تلك التى عجت بها القاهرة فى أعقاب الثورة العرابية وقد يستهلك منا الكثير من الوقت أن نتقصي حياة حافظ المتقلبة فى تلك الفترة؛ والتى كانت نقيضاً لحياة معاصره ومناقسة (شرقى)؛ ولكن من الضروري ألا ننفل الإشارة الى التحاقه بالكلية الحربية، وصدامه مع ضابطه الإنجليزى فى السودان. وتسريحه من الخدمة بعد ذلك. ليعود إلى القاهرة ليواجه الفراغ ورقة الحال. وليجد مجالسها ومنتدياتها ترحب بشاعريته وظرفه.

فى هذه المنتديات تعرف إلى الشيخ محمد عبده وصار أحد مريديه؛ كما تعرف إلى وجوه الثقافة والأدب والسياسة فى مصر كأحمد لطفى السيد وسعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى كامل وغيرهم. وساعده أحمد حشمت باشا؛ ناظر المعارف؛ على أن يجد وظيفة فى دار الكتب، تلك الوظيفة التى أنقذته مادياً واجتماعياً؛ وإن تكن حدثت من انطلاقة شاعراً معبراً عن آمال وطموحات مجتمعه؛ ذلك أنه حرص على تلك الوظيفة حرصاً شديداً. فلم يقل من الشعر ما يُغضب به أحداً من ذوى السلطان؛ كما كان يفعل قبل تقلده لها. فهو كما يقول أحمد أمين فى مقدمة ديوانه : [.. كان فى شعره سجل الأحداث] و [كان يقف موقف الصحافة الوطنية والخطباء الوطنيين وقادة

الرأى الاجتماعيين] .و [ميزة حافظ الكبرى أنه تبلورت فى شعره آمال أمته .. أولاً؛ وآمال الشعب العربى .. ثانياً..]

هكذا كانت وظيفة حافظ الشاعر.. ولكن الشاعر بعد تعيينه فى دار الكتب ينشر - على سبيل المثال - قصيدة (مظاهرة السيدات) التى نتناولها بالتحليل؛ فى منشور بدون توقيع خلال الثورة. وبعد مرور عشر سنوات ، وفى عام ١٩٢٩ ينشرها فى الصحف باسمه، بعد أن أمن عاقبة نشرها؛ ويروى الأستاذ أحمد أمين أنه حثه على نشر قصيدته [قد مر عام يا سعاد وعام..] والتى هاجم فيها وزارة إسماعيل صدقى؛ فأبى حتى أن يحتفظ بنسخة منها.. قائلاً: (أنى أخاف السجن.. ولست أحتمله..). ومن اللافت للنظر ، ومن المؤسف معاً أن يطالع القارئ هذه القصيدة الثائرة فى ديوان الشاعر الجزء الثانى؛ تحت عنوان (فى شؤون مصر السياسية) وقد قُدم لها بكلمات جاء فيها [قالها فى عهد وزارة اسماعيل صدقى وقد نظمها حافظ بعد إحالته إلى المعاش سنة ١٩٣٢ وكانت تبلغ مائتى بيت.. لم نعر منها إلا على هذه الأبيات..] ثم تأتى القصيدة فإذا هى أحد عشر بيتاً. ولا غرو فالشاعر نفسه خاف أن يحتفظ بنسخة منها !!



لم تكن المعركة بين دعاة السفور وأنصار الحجاب قد خمد أوارها بعد حين انطلقت النساء - سافرات - فى ثورة ١٩١٩ لتحسم تلك المعركة، ويلتقط حافظ إبراهيم هذا الملمح فى قصيدته (مظاهرة السيدات) وفى بساطة ومباشرة يحشد لنا الشاعر مجموعة من الصور المكسوة بغلالة شفافه من السخرية . يتخير لها الشاعر إيقاع مجزوء بحر الكامل بسلاسة موسيقاه.

خرج الغوانى يحتجج	ن؛ ورحت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تحذن من	سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب	يسطعن وسط الدجنه
وأخذن يجترزن الطرريق ودار (سعد) قصدهنه	
يمشين فى كنف الوقس	ر؛ وقد أبّن شعورهنه

ويتخيرُ الشاعر بحذق ومهارة روى (النون) الملحقة بالضمير (هن) العائد على السيدات.. ليتأكد مع نهاية كل بيت أن بطولة القصيدة معقودة للنساء.. وأن (هن) أى السيدات المغزل الذى تدور حوله خيوط القصيدة.. ويلتقط فى ذكاء مجموعة من المتناقضات يسجل بها الفارقة وقبل أن نشعر فى رصد تلك الثنائيات المتضادة نلفت النظر إلى فعلى : (خرج) و (أرقب) فى البيت الأول. يبدأ الشاعر القصيدة بالفعل (خرج) . وهو فعل لتقرير حدث الخروج الذى تم. حافظ إبراهيم لا يعول كثيراً على ما يسميه البلاغيون (براعة الاستهلال) وهو يقتحم الحدث اقتحاماً . وهو فى هذا على النقيض من شوقى الذى كان يتأنق فى مطالع قصائده ويولع بالتصريح . والفعل الثانى (أرقب) فعل سلبي فى مواجهة خروج الغوانى الحدث الإيجابى. وحين يحرص الشاعر على أن يكون فى وسط الأحداث بقوله و (رحلت) تكون إدانته لنفسه، وللرجال ، وكأنما هذا الاعتراف يأتى فى محاولته لتطهير النفس. إنه حرصه على الوظيفة جعله يقف عند حد (المراقبة) فى وقت (خروج) النساء. وقديما قيل [ أذل الحرص أعناق الرجال ] .

ولنلاحظ أيضاً أنه يطلق فى البيت الأول لفظ (الغوانى) على السيدات، وهو هنا موفق غاية التوفيق، ونختلف هنا مع الأديب عبد الرحمن فهمى فى دراسته (مفاهيم شعرية عند حافظ إبراهيم) حيث يرى : [ أن لفظ «الغوانى» غير دقيق فى وصف السيدات اللاتى خرجن متظاهرات. فهن لسن غوانى بأى مقياس من مقاييس القدماء والمحدثين. ]<sup>(١)</sup> ويرى أن اللفظ موفق من حيث رنين الموسيقى. ويعزو اختيار الشاعر له إلى هذا السبب. اختلافنا مع هذا الرأى إنما يأتى من هذه الإشارة الذكية فى استخدام الشاعر لهذا اللفظ (الغوانى) دالاً على السيدات.. فلعله من طرف خفى أراد أن يحيلنا إلى تراثنا العربى.. وإلى قول شاعر (المرأة) العربى عمر بن أبى ربيعة :

**كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول**

فالسيدات الغانيات اللاتى كتب عليهن جر الذبول .. يخرجن للقتال.. هذا ما يريد أن يقوله حافظ باختباره لفظ (الغوانى) ..

الغوانى يطلعن فى ظلمة الموقف الحالك كواكب ساطعة .. تشبيهه متوارث وتقليدى يذكرنا بأبيات أبى نواس (يا قمراً أ أبرزه مأمم ،، الخ) هؤلاء النساء يمشين فى كنف الوقار مسفرات عن وجوهن وشعورهن . ولا ننسى أن المجتمع آنذاك تضطرم فيه النخوة والغيرة .. حتى السيدات خرجن .. وأبن عن شعورهن .. يالللجراة!! ثم تأتى بقية القصيدة وفيها يصف حافظ تلك المواجهة غير المتكافئة بين الغوانى وجنود الاحتلال .. يلتقط حافظ الثنائيات المتضادة : أولاً (النساء فى مواجهة الرجال) وثانياً (النساء السافرات العزلاوات فى مواجهة الجنود المدججين بالأسلحة) ويؤكد ذلك بمجموعة من الألفاظ والتراكيب الأسلوبية [يمشين فى كنف الوقار/ والخيل مطلقة الأعنة]: [المدافع والبنادق المصوبة للنحور/ الورد والريحان هو السلاح المضاد] ثم يستعمل (إذا الفجائية) فى ثلاثة أبيات متتالية :

وإذا بجيش مقبل	والخيل مطلقة الأعنة
وإذا الجنود سيوفها	قد صُوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنا	دق والصوارم والأسنة

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى المعركة الحامية الوطيس فيوجزها ساخرأ فى هذا البيت :

وتطاحن (الجيشان) سا عات تشيب لها الأجنة  
 التهكم فى كلمة (الجيشان) يقوده إلى المدلول الشعبى فى لفظة (النسوان) فى البيت التالى :

وتضعضع النسوان والنس —وان ليس لهن منه  
 الحس الشعبى عند حافظ يقوده إلى هذه اللفظة (النسوان) دالاً على السيدات اللائى كُن (الغوانى) عندما خرجن فى البيت الأول، وهُنَّ (نسوان) بلامئه أى بلا قوة عندما انهزمن وتضعضعن.. وهن عُن مشتتات الشمل إلى قصورهن ولكن حافظ (المراقب) يثار لهن ساخرأ :

فليهن الجيش الفخو	ر، بنصره .. وبكسرهنه
فكانما الألمان قد	لبسوا البراقع بينهنه



## فلذاك خافوا بأسهــــن ، وأشفقوا من كيدته

ولا يغفل حافظ هنا ثنائية أخرى : [الألمان والإنجليز] ومواجهتهما في الحرب العظمى فيشير إلى منازلة القائد الألماني (هندنبرج) للإنجليز ساخرًا منهم. ولا يتخلى الحس الساخر عن حافظ حتى البيت الأخير. ولننظر صياغته لعبارة [.. وأشفقوا من كيدته] .. وإلى ما فيها من موروث ديني وشعبي .



يعتبر حافظ إبراهيم؛ مع زميله : أحمد شوقي و خليل مطران من ركائز مدرسة الإحياء في الشعر العربي الحديث . وقد تقاسموا المكاتبة والألقاب، حظى حافظ بلقب (شاعر النيل) وبإيع شوقي بإمارة الشعر وحاز مطران لقب (شاعر القطرين) وإذا كان مطران أكثرهم محاولة في مجال التجديد فإن حافظ بديباجته الشعرية أكثرهم محافظة وأجزلهم عبارة؛ كما أكد دارسوه .

يتجلى ذلك في مفهومه لوظيفة الشعر ورؤيته لهذا الفن. فهو (سجل الأحداث) كمل يقول أحمد أمين . إذ لم يترك حافظ مناسبة قومية أو وطنية أو اجتماعية إلا وأسهم بقصيدة في إحيائها . والمتصفح لديوانه يجده مقسماً بنمطية محبطة حول: (السياسات الاجتماعية - الإخوانيات) وما إلى ذلك من أغراض تقليدية. بل إن دراسة أجراها أحمد طاهر حسين حول (المعجم الشعري عند حافظ إبراهيم) خلّصت إحصائياً إلى : [.. أن المدائح والتهاني شغلت ١٥٤٦ بيتاً؛ والمراثي ١٣٧٨ بيتاً؛ والسياسيات ١١٤١ بيتاً؛ والاجتماعيات ٨٠٢ بيتاً من مجموع أشعاره البالغة ٥٨٤٢ بيتاً شعرياً..] (٣)

ولذا تطالعنا في قصائده عناوين مثل : [دار رعاية الأطلقال؛ ملجأ الأيتام؛ افتتاح مدرسة البنات؛ دعوة إلى الإحسان؛ حريق ميت غمر .. الخ].. إذن فالشاعر عند حافظ إبراهيم (مصلح اجتماعي) حيناً؛ و (نفير يدعو الأمة إلى اليقظة) حيناً آخر .. وهو في ذلك لا يخرج عن فهم مدرسة الإحياء لدور فن الشعر؛ وفي عيهم لجانب من رسالته.



تتجلى فى النص المختار روح حافظ المرحه وحسه الساخر، وهى سمة تتناثر فى ثنايا شعره؛ وينفرد بها عن نظيره شوقى ، الذى ذهب مذهب الجد فى قصائده فعنى بعبقرية الصياغة؛ ولم تظهر سمة التهكم إلا فى قصائده التى صاغها للأطفال على ألسنة الحيوان، وإذا ندت منه السخرية فإنما يأتينا فى وقار الحكيم كقوله فى قصيدة (مشروع ٢٨ فبراير) :

يا فاتح القدس خلُ السيف ناحية ليس الصليب حديدا كان بل خشبا  
وتأتى سخريته أحيانا متوخية الحجة والمنطق كما فى قصيدته: (توت عنخ أمون) :

أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوك مكفينا ؟؟  
فإذا أردنا أن ننتخب من شعر حافظ ما يدل على شيوع هذه الروح؛  
وتلك السمة فى شعره أعيتنا وفرة النماذج ؛ وقريباً من النص المختار، ننتقى  
من قصيدته (استقبال السيرغورست) عند مجيئه إلى مصر معتمداً للدولة  
الإنجليزية خلفاً للورد كرومر؛ صاحب مأساة دنشوائى؛ يقول ساخرأً من  
تولية الإنجليزية لـ (دنلوب) مشرفاً على سياسة التعليم فى مصر؛ وكانوا  
يعلنون أنه من العباقرة فى هذا المجال :

هَبُوا (دنلوب) أرحبكم جنانا	وأقدركم على نزع الحقود
وأغلى من (غلادستون) رأيا	وأحكم من فلاسفة الهنود
فإننا لا نطيق له جواراً	وقد أودى بنا أوكاد يودى
بحمد الله .. ملككم كبير	وأنتم أهل مرحمة وجود
خذوه فامتعوا شعبا سوانا	بهذا الفضل والعلم المفيد !!

لقد غلبت على شعر حافظ إبراهيم تلك الروح الشعبية المفعمة بمرارة  
الآلم الممزوج بالسخرية . ومنذ أن تنقل الشاعر بين المجالس والمنتديات؛ تلك  
التى انعكس أثرها عليه أسلوبياً . وهو يتقاسم مع جمهوره تلك الروح . وقد  
حرص حافظ أن يكون أميناً على هذا الجمهور .. ومعه . مستعيراً أسلوبه  
وأدواته؛ وروحه أيضاً .. يقول محمود تيمور فى كتابه (دراسات فى القصة

والمسرح) إنه كان جريصاً على شهود المحافل لتي يلقى فيها شاعر النيل، حافظ إبراهيم (قصائد الشعبية) - هكذا يصفها تيمور - ويضيف «لم يكن جمهور حافظ من المثقفين خاصة . وإنما كان خليطاً من طبقات الشعب. ولست أنسى حفلاً شعبياً شهدته في حديقة الأزبكية لذلك العهد، أنشد حافظ فيه إحدى روائعه. وكان بين جمهور السامعين كثيرون من «ذوى الجلابيب» وهم يطربون للشعر . ويحتاجون للإنشاد ويصيحون في تهليل وإعجاب ..»

ربما كان مثل هذا النص يفسر تلك (الروح الشعبية) في شعر حافظ؛ كما يفسر أيضاً ورود الكثير من الألفاظ - غير العربية - أو العامية التي تتداولها الألسن في حياتنا اليومية خلال شعره . وربما عد ذلك جناية للجمهور على الشاعر .. أسلوبياً .. بقدر ما أثرى وأشاع روحاً نابضة بالحيوية في المعنى.



لم يبعد حافظ بشخصيته الشاعرة كثيراً عن شخصيته في الحياة العامة بل ربما تطابقت الشخصيتان تطابقاً مذهلاً. واتحد (الوجه) مع (القناع)، الوجه الإنساني بالقناع الفني. بحيث أصبح من الصعب تمييز أحدهما على الآخر. فقد كانت سخرية حافظ اللاذعة في حياته مثلما هي في شعره؛ ولعل تلك الحادثة له مع خليل مطران تؤكد ذلك .

فقد نما إلى علم خليل مطران أن رئيس الوزارة آنذاك توعدته وتهدهه فثار الشاعر لكرامته ونظم أبياتاً مطلعها :

**أنا لا أهاب .. ولا أرجئ فرسى مهياة؛ وسرجى**

وحين لقيه حافظ إبراهيم قال له : «أى فرس ؟ .. وأى سرج .. !!؟؟»

يا أخى قل :

**« كتفى مهياة .. وخرجى .. »**

لقد كان حافظ إبراهيم واحداً من مجموعة من ظرفاء هذا العصر ، نذكر منهم عبد العزيز البشري؛ وإمام العبد؛ ومحمد المويلحي وغيرهم ممن

قال فيهم حافظ :

فكم لنا من مجلس طيب      يشتاقيه (هارون) أو (جعفر)  
نلعب باللفظ كما نشتهي      ونضمر المعنى .. فلا يظهر  
ونصدر النكتة محبوبكة      عن غيرنا في الحسن لا تصدر

وقد أجاد حافظ إبراهيم توظيف (النكتة المحبوبة) و (المفارقة اللاذعة) في شعره؛ والاجتماعى منه خاصة .. فى قصيدته (الحث على تعصيد مشروع الجامعة) يقف داعياً إلى اصلاح المجتمع بنشر العلم .وقد ارتفعت الأصوات آنذاك بإنشاء جامعة اهلية وأنشد حافظ قصيدة طويلة فى حفل أقيم لهذا الغرض عام ١٩٠٨، يحث سراة القوم ألا يقتصر دعمهم للمشروع على الكلمات والخطب .. إنما يدعوهم إلى ردم الهوة بين (القول) و (الفعل) ويلتقط هذه الصورة الساخرة من البيئة الشعبية التى عاش وفيأ لها :

ودونكم مثلاً أوشكت أضربه

فيكم ؛ وفى مصر، إن صدقا، وإن كذبا:

سمعت أن امرءاً قد كان يالفه

كلب ؛ فعاشا على الإخلاص واصطحبا

فمر يوماً به ؛ والجوع ينهبه

نهباً؛ فلم يبق إلا الجلد والعصبا

فظل يبكى عليه حين أبصره

يزول ضعفاً؛ ويقضى نحبه سغباً

يبكى عليه وفى يميناه أرغفة

لو شامها جائع من فرسخ وثباً ..

فقال قوم؛ وقد رقبوا لذى ألم  
 يبكى؛ وذى ألم يستقبل العطبا :  
 ما خطب ذا الكلب؟ قال : الجوع يخطفه  
 منى .. وينشب فيه الناب مغتصبا  
 قالوا - وقد أبصروا الرغفان زاهية - :  
 هذا الدواء .. فهل عالجته .. فأبى ؟  
 أجابهم؛ ودواعى الشح قد ضربت  
 بين الصديقين، من فرط القلى، حجبنا  
 لذلك الحد لم تبلغ مودتنا  
 أما كفى أن يرانى اليوم منتحبا ؟؟  
 وذى دموى على الخــــــدين جارية  
 حزننا؛ وهذا فؤادى يرتعى لهبا  
 أقسمت بالله إن كــــانت مودتنا  
 كصاحب الكلب؛ ساء الأمر منقلبنا  
 أعيذكُم أن تــــــكونوا مثله، فنرى  
 منكم بكــــاء؛ ولا نلقى لكم دأبا ..  
 إن تقرضوا الله فى أوطــــانكم ، فلكم  
 أجر المجاهد .. طوبى للذى اكتتبا

• • •

- 
- (١) مفاهيم شعرية عند حافظ / عبدالرحمن نهمى: مجلة فصول / شوقى وحافظ/  
 ج٢ / المجلد الثالث - العدد الثانى ١٩٨٣ - ص ٦٩ .  
 (٢) المعجم الشعرى عند حافظ / أحمد طاهر حسين : المصدر نفسه ص ٢٩ .



---

الحس الساخر  
في شعر  
صلاح عبد الصبور

---





فى مقال بعنوان «كتابان تعلمت منهما» ضمن سلسلة مقالات نشرها الشاعر الراحل تحت عنوان «مشارف الخمسين» بمجلة الدوحة القطرية، كتب صلاح عبد الصبور عن تأثره بأبى العلاء المعرى: (.. وحين قرأت أبا العلاء محا من فؤادى كل ما عداه. فكأنه ختم عليه ألا يحل به سواء. وأدركت أنى لو عشت فى زمانه لحرصت على أن أكون أحد تلاميذه أو خدامه. أقرب إليه طعامه؛ وأقوده فى مشيته، وأميط الأذى عن ثوبه. ولعلى أجنى لقاء ذلك علماً أو أدباً أو خلقاً..)<sup>(١)</sup>.

ولقد صاحب الشاعر الراحل أبا العلاء زمناً طويلاً، وأدمن النظر فى آثاره ولزوميته، وظلت الطبعة القديمة التى اقتناها من اللزوميات تدعوه من حين لآخر وتغريه بالرجوع إليها، (.. كثيراً ما أعود إلى أبى العلاء عندما ينتابنى الحنين إلى صوته الوداع الكسير..)<sup>(٢)</sup>.

وقد كان عطاء أبى العلاء قيماً ووفيراً، أخذ منه الشاعر فيما أخذ ذلك الولع بالحكمة، وغذا فيه أبو العلاء نزعة التأمل حتى غرته هموم كونية صبغت شعره فى جانب كبير منه بطابع فلسفى؛ وتسلسل الحزن إلى قصائده سافراً حيناً أو تحت قناع شفيف من التهكم الساخر حيناً آخر.

والدارس لآثار صلاح عبد الصبور الشعرية، وبعض كتاباته النثرية، لابد أن تستوقفه أو تسترعى انتباهه تلك الروح النقادة النثرية الساخرة،

التي يعلق بها من حين لآخر على موقف أو حدث بما يشكل رؤية فكرية في قالب شعري نافذ حتى يطالعنا أحياناً بفكاهة عارضة فإنها تكون «فكاهة أسيانة» على حد تعبيره؛ إذ إن هذه الفكاهة ليست بقصد الإضحاك، بل تتجاوز ذلك إلى ما تثيره من تفكير يبعث على المقارنة والاصحاح والتأمل؛ إنها فكاهة تكدر الذهن، وتطلقه من ركوده وتبعث فيه جمرة التساؤل الطموح؛ إنه في ذلك يضع نفسه على أرضية استاذة المعري الذي يقول عنه عمر فروخ:

(.. والمعري قدير في التهكم، والنقد مما يجعله أقرب إلى الأدباء منه إلى الفلاسفة. ويكاد يكون هذا التهكم شائعاً في أكثر ازومياته. وأكثرهم المعري على العادات السائدة والمعتقدات الموروثة. وعلى رجال السياسة والإدارة؛ ولم ينبج منه واضعو الشرائع..)<sup>(١)</sup>.



حين نحاول تقصى روح التهكم الساخر في شعر صلاح عبد الصبور تطالعنا نماذج كثيرة من (فكاهاته الأسيانة) .. في ديوانه (١٩٧١) (الناس في بلاد) نجد هذا البيت الساخر:

وفي الجحيم دُحرجت روح فلان

نجد تلك الفكاهة الدامعة تعقياً على هذا (الفلان) الذي:

بنى فلان واعتلى وشيد القلاع

وأربعون غرفة قد ملئت بالذهب اللامع

وفي مساء واهن الأصدااء جاءه عزير

يحمل بين إصبعيه دفترأ صغيراً

ومد عزير عصاه

بسر حرفي «كن». بسر لفظ «كان»

... وفي الجحيم دُحرجت روح فلان<sup>(٤)</sup>

إنها نهاية المطاف؛ إن استعمال الفعل (دحرج) وبناءه للمجهول، وذلك التنكير الساخر باستعمال لفظ (فلان) الذى شيد وبنى نُحرجت روحه إلى الجحيم فى لحظة مصيرية أرادتْها المشيئة الإلهية، شئ يبعث فى النفوس ابتساماً شاحباً!!

وإذا كان الشاعر فى ديوانه الثانى «أقول لكم» يسخر من الوعاظ مثيرى الدموع ببضاعتهم المشجية - إذا كان يسخر منهم بتعبير دارج:

وقفت أمامكم بالسوق كى أحياء، وأحييكم  
لا أبكى، وأبكيكم  
وما غنيتُ بالموتى لأصنع من جماجمهم  
عمامة وعظ.

- إذا كان هنا يسخر بأسلوب مباشر وصورة شائعة، فإنه فى موضع آخر من القصيدة نفسها والديوان نفسه يتخذ من أساليب بلاغية، كالكناية والتورية، أداة للتفنن فى إبداء موقفه المتهكم الساخر فى مقطع (من أنا)<sup>(٥)</sup> يقول:

وأعلم أنكم كرماء  
وأنكم ستغتفرون لى التقصير.. ما كنت أبا الطيب  
ولم أرهب كهذا الفارس العملاق أن أقتنص المعنى  
ولست أنا الحكيم رهين محبسه بلا أرب  
(لأنى لو قعدت بمحبسى لقضيت من سغب)  
ولست أنا الأمير يعيش فى قصر بحضن النيل  
ي naïغيه مغنيه  
وملعة من الذهب الصريح تطل من فيه

لن نقف عند البيت (لأنى لو قعدت بمحبسى لقضيت من سغب)؛  
فالتهم الذى فيه لا يخفى. ولكن لا أستطيع الفكك من فكرة ملحاح لا  
أستطيع أن أقرأ هذه الأبيات إلا فى ضوئها، وهى تلقى إشعاعاً على  
(الأسلوب الفنى للسخرية) فى هذا الموضع.. لا أظن أن صلاح عبد الصبور  
يقصد (بالفارس العملاق) فى البيت الثالث إلا العقاد. وهو يورى فلا يقصد  
حكيم المعرفة حين يقول (الحكيم رهين محبسه)، بل يعنى أستاذنا الدكتور طه  
حسين ذلك أن أمير الشعراء أحمد شوقى ومحمد عبد الوهاب هما  
المقصودان بالأبيات الأخيرة فى هذا المقطع. يقودنى إلى هذا التفسير أن  
شوقى كان خصماً قوياً لصلاح عبد الصبور فى معركة الشعر الجديد التى  
احتدمت فى أوائل الستينيات، كان شوقى خصماً بما أرساه ورسخه  
من عمود الشعر الكلاسيكى. إنه على حد تعبير صلاح عبد الصبور  
(معبد شوقى الذى كانت قوائمه من الحجر الصوان)<sup>(٦)</sup>. فإذا كان صلاح  
عبد الصبور فى معركته التى قاتل فيها ببسالة يعرض بشوقى الذى توفى  
سنة ١٩٣٢ فما يمنعه من أن يعرض بهذين العملاقين اللذين تصدى له  
أولهما وأنكره ثانيهما؟

هذه القصيدة، التى نحن بصددھا، وردت فى ديوان (أقول لكم)،  
الصادر عام ١٩٦١، أى فى إبان المعركة بينه وبين العقاد وكان الموقف بينهما  
شديد اللدادة.

يقول صلاح عبد الصبور: (لقد تبادلنا الكتابة العقاد وأنا - على  
صفحات الصحف، وكان يصطنع فى الرد على لهجة السخرية والتهوين من  
شأن خصمه. أما فى المحافل الأدبية فقد كان يصر على عدم وجودى  
كشاعر، وكنت ألقى هذه المبادرة ضاحكاً. ولا أريد أن أفسد صورته فى  
نفسى...) (٧).

أما عن الموقف بينه وبين الدكتور طه حسين فقد كان.. (كنت تلميذ  
طه حسين فى الجامعة، وكان من خصاله - يرحمه الله - أن يقرب إليه من

يهمسون فى أذنه. وقد همس أحدهم فى أذنه حين كتبت بعد سنوات من تخرجى كتابى (ماذا يبقى منهم للتاريخ) أننى هاجمته فى هذا الكتاب. ولما كان رحمه الله «مستطيعاً بغيره» - كما قال أبو العلاء المعرى - فإنه لم يتحقق من صحة ما همس به أحدهم فى أذنه. وظلت علاقاتنا بين التجاهل والمجاملة حتى مات..<sup>(٨)</sup>.

من هنا، والموقف هكذا بين هؤلاء الأقطاب، نرى أن الفارس العملاق المقصود فى هذا المقطع هو العقاد، وليس أبا الطيب كما يتبادر للوهلة الأولى.

وما دام أسلوب العقاد - رحمه الله - التهوين والإقلال من الخصم فليوجهه الشاعر المجدد بعدم النص على اسمه، مستعملاً الأساليب البلاغية من كناية وتورية، وليضم إليه شوقياً وطه حسين، ما دام الأخير يتجاهله. ولنلاحظ حديثه عن العملاقين وما به من روح تشبه إلى حد كبير ما يترقرق خلال النص الشعرى الذى أوردناه. والذى يختتمه الشاعر بسخرية. وكأنه يصرخ بهم (خذونى معكم إلى قمة المجد... والتاريخ):

**وقفت أمامكم بالسوق يا أهلى**

**شفيعى أنتمو للشيخ، هذا الأبد المرهوب**

**لكى يحفظ فى واعية الأيام**

**اسما ساذجاً للغاية**

**يجنب (الفارس العملاق)**

**والشيخ الضرير**

**وحامل الراية**

وإذا كانت السخرية هنا معبرة عن موقف الشاعر الفكرى فى معركته مع هؤلاء العمالقة، فإنه يطيب لصلاح عبد الصبور فى موقف آخر أن يعرض

بشوقى، ساخراً من صياغته وفكره وبيته الرومانسى المشهور، مؤكداً تجاوز  
إيقاع الحياة الموار لهذا الملل الرتيب،

نظرة فابتسامة فسلام

فكلام فموعد فلقاء

فى تهكم فنى - إن صح هذا التعبير - يسخر صلاح عبد الصبور من  
هذه التضاريس الغرامية فى علاقة الحب:

الحب يا رفيقتى قد كان

فى أول الزمان

يخضع للترتيب والحسبان

«نظرة. فابتسامة، فسلام

فكلام، فموعد، فلقاء.

اليوم يا عجائب الزمان

قد يلتقى فى الحب عاشقان

من قبل أن يبتسما<sup>(٩)</sup>

فى ديوانه الثالث «أحلام الفارس القديم» يتخذ النضج الفنى عند  
الشاعر شكل قصيدة القناع التى كانت مدخل الشاعر إلى عالم الدراما  
الشعرية، على حد تعبيره<sup>(١٠)</sup> وفى قصيدة «مذكرات الملك عجيب بن  
الخصيب» نرى صورة فلسفية ساخرة لهذا (الملك المجنون) الذى سقط من  
حالق كما يسقط البهلوان من قمة الكون فى الشبكة<sup>(١١)</sup>. ولعل روح التهكم  
تتجلى أوضح ما تكون فى المقطع الخامس من هذه القصيدة. الذى يبدأ على  
هذا النحو: <sup>(١٢)</sup>

مات الملك الغازى  
 مات الملك الصالح  
 صاحت أبواق مدينتنا صيحاً ملهوفاً  
 وقف الشعراء أمام الباب صفوفاً  
 وتدحرجت الأبيات الوقفاً  
 تنبكي الملك الطاهر حتى فى الموت  
 وتمجد أسماء خليفته الملك العادل

ليست هناك صورة تفيض بالسخرية والتنديد بالامتهان مثل صورة هؤلاء الشعراء وقوفاً أمام الباب الملكى صفوفاً. وثانية تأتى اللفظة المضحكة (وتدحرجت) لتعبر عن قيمة هذا الشعر ونوعيته. ويستمر هذا المقطع الساخر إلى أن تتملل أفاعى الملل فى نفس الملك العجيب:

ما أضجر هذى القافية الميمية  
 لن يسكت هذا الشاعر حتى يفنى قافية الميم



لقد تقصى كثير من الدارسين تأثير أبى العلاء فى فكر صلاح عبد الصبور وشعره وكلهم حاصرتهم الروح الجادة وصرامة الفكر لدى الشعاعين، يقول د. لويس عوض (١٣):

(.. كذلك يشترك صلاح عبد الصبور والمعري فى اعتبار حادث الميلاد النكبة الأولى، إذا كان حادث الموت هو النكبة الثانية حين يقول المعري عن ميلاده إنه جناية (هذا جناه أبى على/ وما جنيت على أحد). ولكن بينما نجد أن المعري يبني تتشاؤمه على أسباب موضوعية، صحيحة أو باطلة، منها حقيقة الزوال، ومنها سوء ظنه بطبيعة الإنسان ودوافعه ونوازعه ومنها

تشككه فى إمكان اليقين، نجد أن صلاح عبد الصبور يبنى تشاؤمه على شئ آخر يختلف عن ذلك كل الاختلاف؛ يبنى تشاؤمه على امتناع (الوصول) أو على ما يمكن أن نسميه الطلاق البائن بين الأرض والسماء..)

ولم يلتفت الدارسون إلى أن هذه الروح التشاؤمية التى سرت فى شعر صلاح عبد الصبور، تأثراً بأبى العلاء، تسرب معها هذا الحس الساخر الذى كان يتمتع به حكيم المعرة، بل إننا نرى ظلالاً من أبياته مثل:

إذا كان جسمى للتراب أكيلة

فكيف يسر النفس أنى بادن؟

أو:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ فديت

ما بالها قطعت فى نصف دينار

أو:

زيادة الجسم عنت جسم حامله

إلى التراب. وزادت حاقراً تعباً

هذه الروح نجدها فى شعر صلاح عبد الصبور، وهى وإن تسربت إلى الشاعر من خلال إعجابه المتزايد باللزميات وشغفه بقراءتها، إلا أنها غدتها خبرة ثقافية وحياتية عكست عليها الكثير من روح الدعابة عند شاعرنا الراحل.

إن قراءة سريعة لقصيدة حكاية المغنى الحزين<sup>(١٤)</sup> بشكلها المتقاطع وعناوينها الفرعية المتداخلة، ومحاولة الشاعر المخلصة لخلق شكل درامى - إلى حد ما - لقصيدته تلك؛ إن قراءة سريعة لمثل هذه القصيدة تضعنا على أعتاب (الكوميديا السوداء) عند صلاح عبد الصبور، تلك التى بلغت ذروتها فى مسرحية «مسافر ليل».. يقف الشاعر فى هذه القصيدة مغنياً حزيناً بين



يدى: (عصبة الأماجد. الأشاوس. الأحامد، الأحاسن) ولا يخفى ما في  
صيغة هذا الجمع، وما في تلك الصفات، من استخفاف، يرد هذا في مقطع  
بعنوان (عود إلى ما جرى في ذلك المساء)، يبلغ الشاعر فيه ذروة التهكم  
والسخرية والاستخفاف يقول

في ذلك المساء

يا سادتي الأماجد، الأشاوس، الأحامد، الأحاسن

يا زينة المدائن

يا أنجم السارى

مفرقين في البلاط تزدادون روعةً وحسناً

.....

فإن تجمعتم

فنور كل كوكب يخامر النور الذى يبثه رفيقه

ولا يذوب فيه

(أقولها صدقاً، ولا أزيد فيه..)

.....

الله ما أعظمكم، وما أرقكم، وما

أنبلكم، وما أشجعكم؛ وما

أخبركم بالخيال والطعان والضراب والكمائن

والفتح والتعمير والتدمير والتحبير والتسطير

والتفكير والتخريب والتجريب والتدريب والألحان

والأوزان والألوان والبناء والغناء والنساء

والشراء والكراء والعلوم والفنون واللغات والسمات..

وباختصار

أنتم هدية السماء للتراب الأدمى،

نحن حفنة الأموات

وشارة على اقتدار الله أن يخلق أمثالاً من الفانين

«ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم فى عشرين»

....

أقولها صدقا. ولا أزيد فيه

أقسم بالموتى الذين يخبشون تحت جلدى

.....

القارئ لهذا المقطع من القصيدة يحس بأزمة هذا المغنى الحزين الذى يرى الحقيقة ولا يعبر إلا بضدها مؤكداً أنه (يقولها صدقاً!! ولا يزيد فيه) صيغة ما أعظم ما أفعل ما أنبل.. ثم هذا التداعى الموسيقى الصوتى (التعمير - التدمير - التحبير - التسطير)، (التخريب - التجريب - التدريب... إلخ).

ثم هذه السخرية الذكية من خلال بيت أبى نواس الشهير وتضمينه تضميناً جديداً (١٥) .

إن أزمة المغنى الحزين، التى تجلت فى المقطع الأخير (اعتراف تأخر عن أوانه):

كنت أحس سادتى الفرسان

أنكمو أكفان

## وكان هذا سر حزنى

هى الوجه الآخر للعملة. وليس التهكم والسخرية والاستخفاف إلا قناعاً شفيفاً (الحزن لا يفنى ولا يستحدث..) وهو التهكم نفسه الذى يطالعنا عند أبى العلاء، والذى يقول عنه عمر فروخ (١٦).

(.. على أن هذا التهكم ليس من الهزل والتعريض، بل من الإصابة فى المقارنة بين الصحيح وغير الصحيح، وبين المعقول وغير المعقول؛ وتهكمه لا يبعث على الضحك بل على التفكير. إنه الحقيقة المرة نفسها، مسوقة فى قالب شعري، ولا ريب فى أن فهم تهكمه يحتاج إلى ثقافة وإطلاع حتى تدرك موضع النكتة منه..).



فى مسرح شيكسبير تطالعنا صورٌ شتى لبلاط الأمراء والملوك بما فيها من إغراءات ودسائس وأحقاد وطموحات وتردد، فى (هملت) و(الملك لير) و(ماكبث). وكما هى قاتمة تلك الصورة، وفى شعر صلاح عبد الصبور ومسرحه نرى نقيضها. إن البلاط ورجاله هنا يثيران السخرية والفكاهة التى تدمى (نكاء القلب المتألم)؛ فهو يتهكم دائماً على البلاط ورجاله. فى «حكاية المغنى الحزين» يقول على لسان المغنى:

وموقفى يا سادتى فى آخر الممر

أربعة نحن من أصحاب

مهرج البلاط، والمؤرخ الرسمى والعراف، والمغنى

وكلنا بدون أسماء ولا سيوف

وكلنا مؤجر بالقطعة

## ونستعير ثوبنا المذهب الأطراف

### من خزانة السلطان

### وبيننا صداقة عميقة كالفجوة<sup>(١٧)</sup>

وفى مذكرات الملك عجيب بن الخصيب:

### قصر أبى فى غابة التنين

### يضح بالمنافقين والمحاربين والمؤدبين<sup>(١٨)</sup>

ومن هؤلاء «الرسام» عشيق الملكة؛ والشاعر الذى لن يسكت حتى يفنى قافية الميم. ولنا وقفة - بعد قليل - عند البلاط فى مسرحيته (بعد أن يموت الملك..).

ويقودنا ذلك إلى الحس الساخر فى مسرح صلاح عبد الصبور ولما كان (المسرح لا يكتب إلا شعراً..)<sup>(١٩)</sup> - على حد تعبير الشاعر؛ و(الشعر هو صاحب الحق الوحيد فى المسرح..)<sup>(٢٠)</sup> فقد جاءت (مأساة الحلاج) مسرحية الشاعر الأولى، معبرة عن الإيمان العظيم بالكلمة، طارحة خلال عرضها لعذاب الحلاج، عذاب المفكرين وحيرتهم بين السيف والكلمة. وعلى الرغم من أن المسرحية مأساة تنتهى بصلب الصوفى العظيم، إلا أننا من خلال بعض مواقفها نتعرف على ذلك الحس الساخر الذى يعمق الإحساس بثقل المأساة، ويعرئ من خلال التناقض الحاد بين الساخر والحزين فى نفس الشاعر تلك المرارة التى تخلفها هذه المحاكمة الطاغية فى ختام المسرحية.

فى المنظر الأول من المسرحية يلتقى التاجر والفلاح والواعظ فى ساحة من ساحات بغداد. وبعد تسكع قصير يقفون أمام الشيخ المصلوب ويدفعهم الفضول إلى سؤال المارة عن قصته. ولكل منهم وجهة نظره فى الإفادة من الإجابة<sup>(٢١)</sup> :

**التاجر:** نعم، فقد يكون أمره حكاية طريفة  
أقصها لزوجتي حين أعود في المساء  
فهى تحب أطباق الحديث فى موائد العشاء  
**الفلاح:** أما أنا فإننى فضولى بطبعى  
كاننى قعيدة بلهاء  
وكلما نويت أن أكف عن فضولى  
يغلبنى طبعى على تطبعى  
**الواعظ:** وحبذا لو كان فى حكايته  
موعظة وعبرة  
فإن ذهنى مجذب عن ابتكار قصة ملائمة  
تشد لهفة الجمهور  
أجعلها فى الجمعة القادمة  
موعظتى فى مسجد المنصور

هؤلاء الثلاثة يدفع بهم الشاعر إلى المسرح من أن لآخر معلقين فى  
برود وحماسة لا تخلو من دلالة الإدانة. بل إن الشاعر يسخر من خلالهم  
بتلك النماذج على شاكلتهم مديناً مواقفهم. إنهم لا يختلفون عن السواد  
الأعظم الذى قال فيه شوقي بإجمال: (خلق السواد مضللاً وجهولاً)، والذى  
يسخر منه صلاح عبد الصبور ومن روح القطيع حين يقول على لسان  
المجموعة:

**المجموعة:** صفونا صفاً صفا  
الأجهر صوتاً والأطول  
وضعوه فى الصف الأول  
ذو الصوت الخافت والمتوانى

وضعوه فى الصف الثانى  
أعطوا كلا منا ديناراً من ذهب قانى  
قالوا: صيخوا.. زنديق كافر  
صحنا: زنديق.. كافر  
قالوا: صيخوا فليقتل، إنا نحمل دمه فى رقبتنا  
صحنا: فليقتل إنا نحمل دمه فى رقبتنا  
قالوا: امضوا.. فمضينا  
الأجهر صوتاً والأطول  
يمضى فى الصف الأول  
ذو الصوت الخافت والمتوانى  
يمضى فى الصف الثانى

وفى المنظر الثالث من الفصل الأول، وبعد ثرثرة ولغط من الثلاثى:  
التاجر والفلاح والواعظ، وحين يظهر الحلاج بدائه: إلى إلى يا غريباء (٢٣)  
يتساءل التاجر: من هذا الشيخ:

الفلاح: يهدينا - فيما يزعم - لله  
شيخ مجذوب كم نلقى أمثاله  
فى سوق الشحاذين  
التاجر: هيا نذهب

فلقد خلفت ابنى فى دكانى  
وهو ضعيف العقل  
إن جاعته جارية حسناء  
أعطاهما ما قيمته خمس قطع  
بثلاث أو أربع  
الفلاح: وأنا قد بعث الحنطة فى السوق اليوم

وأريد العودة لعيالي في ظاهر بغداد  
بالمال سليماً قبل الليل  
لو أبطأت لقادتني رجلاي  
للخمارة، حيث أذيب تقودي  
في كاس، أو أدفنها في تكة سروال

لا تخلو هذه الأبيات من تهكم وسخرية وهنا، وبذكاء شديد، يلتقط  
الشاعر هذه الفكاهة ويصعدها درامياً، فيقول على لسان الواعظ:

الواعظ: جازاك الله فما قلته  
قد ألهمني عظة الأسبوع القادم  
ما أحلاها من موعظة مسبوكة  
عن فلاح باع الحنطة في السوق  
أغواه الشيطان  
فرنا بالمال.. وعاد ليلقى الصبية جوعى  
فبكى.. و..  
سيلهمني الله الباقي  
وساجعل عبرتها ونهايتها:  
احذر كيد النسوان

بل إننا نرى ذروة هذه المأساة تتجسد في موقف عابر أثناء وجود  
الحلاج في السجن، فالحلاج يستصرخ ربه:

الحلاج: نوراً يا صاحب هذا البيت  
السجين

الثاني: اطلب من حارسنا الطيب مصباحاً أو شمعاً (٢٤)

.... ثم تأتي المحاكمة الهزلية التي لا نطيل في الوقوف عندها أو سردها، ولكن نذكر القارئ بحوار أبي عمر الحمادي وابن سليمان في صدر المنظر الثاني من الفصل الثاني. ولعل ما بهذا المنظر من حس ساخر وتهكم هو الذي حدا بناقد مثل جلال العشري إلى أن يقول:

(إننا نشهد في هذا المنظر الأخير محاكمة يسودها الطابع التراجيكيوميدي بحق. تراجيديا إنسان يموت، ومهزلة قضاة يجدلون من أحكام الشرع حبل المشنقة. إنهم يزيفون العدل، ويشوهون وجه الحق، ويعبثون بعقول العامة، ولا هم لهم إلا مرضاة السلطان..) (٢٥).



في «ليلى والمجنون» يتهم «حسان» على أفكار «سعيد» (٢٦):

حسان: ستنزل مريضاً بالأسلوب إلى أن تدهم هذا البلد  
المنكوب كارثة لا أسلوب لها  
ولقد ننسى عندئذ حين توزع ريح الكارثة  
المجنونة  
نار النكبة كبطاقات الأعياد  
أن تنقذ بضع قصاصات من شعرك  
ولقد تتوسد كومتة قدما الجلال  
وهو يدحرج في أسلوب همجي  
هذا الرأس العامر بالأسلوب

وهكذا يعود فيستخدم الفعل (يدحرج)، ويأتي التعليق الساخر أو الدعابة ذات الدلالة مرة ثانية من زياد، (حيث يتحدثون عن خشبة المسرح):



سعيد: لكنى لا أرضى يا أستاذ

فأنا لم أعلُ الخشبة قط

زياد: لا تفزع..

فستدخل فيها حين تموت

أو تعلوها إذ تشنق

ولن نتقصى في المسرحية - حتى لا نطيل - تلك المواضع التى تنم عن روح نقادة ساخرة، ولكننا نكتفى بأن نشير إلى الأسلوب الساخر الذى صاغ به الشاعر (الخبر النثرى) الذى يقرأه زياد فى جريدة من الجرائد (٢٨)، ودلالة هذا الخبر وتعليق الأستاذ عليه. كذلك لا يفوتنا أن نلم سريعاً بتلك الحوارية بين زياد وسعيد فى بداية المنظر الثانى فى الفصل الثانى من المسرحية. بعد أن يترنم سعيد ببيت إليوت:

حسان: ما معناه

سعيد: معناه أن العاهرة العصرية

تحشو نصف الرأس الأعلى بالحدلقة البراقة

كى تعلو من قيمة نصف الجسم الأسفل

معناه أيضاً

زياد: أنا لم نصبح عصريين إلى الآن

حتى فى العهر

\*\*\*

أما «مسافر ليل» و«الأميرة تنتظر» (٢٩) - وقد ظهرا معاً فى طبعة واحدة - فقد قال عنهما الدكتور لويس عوض: ما بين المسرحيتين وحدة من نوع ما: وحدة فى المنهج والأسلوب، ووحدة فى اللحظة الشعرية أو فى (الجو)، برغم أن إحداهما ملهاة والأخرى مأساة. ثم يقول - وهذا ما يعيننا

هنا - «فصلاح عبد الصبور يعبس حين يضحك، وهو أيضاً قادر على الضحك وسط ظلام المأسى» (٣٠).

ولن نقف عند مسافر ليل، فهي كلها كوميديا سوداء. إن عامل التذاكر (علوان بن زهوان بن سلطان) عثرى السترة هو الإسكندر وهتلر وجونسون الذى يواجه عبده بن عبد الله أبو عابد وعباد من أسرة عبدون؛ وبالحا من مواجهة تبعث على الأسى والسخرية.

نكتفى - ونحن نعرض لهذه المسرحية - أن نثبت صدر التذييل الذى كتبه الشاعر عن معالجته لها . يقول صلاح عبد الصبور:

[.. لو كان لى أن أخرج هذه المسرحية - وهذا فرض ساعود إليه فيما بعد - لقدمتها فى إطار من (الفارس). إذ إننى أريد للمتفرج أن يخشى عامل التذاكر ضاحكا، وأن يشفق على الراكب ضاحكا، وأن يحب الراوى ويزدريه ضاحكا كذلك:

.. فلست أريد فى هذه المسرحية أن أقدم أشخاصاً بقاماتهم الصحيحة السليمة، ولكنى أريد أن أقدم نماذج من البشرية. واتخاذ النموذج أساساً للعمل المسرحى يعنى درجة من التجريد. تماماً مثل الفكاهة أو النكتة، حين تجعل محوراً نموذجاً يواجه نموذجاً آخر فتكشف بهذا التجريد لب التناقض] (٣١) ..

رأينا كيف استطاع صلاح عبد الصبور بحسه الساخر أن يبتدع (الفكاهة الأسبانية) من خلال الموقف المسرحى أو الدعاية العابرة ذات الدلالة المؤثرة، كموقف السجين والحلاج، وتعليقات التاجر والواعظ والفلاح. أو سخرية زياد وحسان وسعيد. وفى شعره ومسرحه تطالعنا أحياناً صور كاريكاتورية للعالم من خلال أقنعة. فمنذ أن كتب قصيدة «الظل والصليب» جاء فيها:

ورعوس الناس على جثث الحيوانات

ورعوس الحيوانات على جثث الناس (٣٢)

- كتب بعد ذلك قصيدة (القناع) التى يرى فيها العالم من خلال حلم  
الملك عجيب بن الخصيب مرة:

حين رأيت رأى العين طائراً برأس قرد  
و حين أراد أن يقول كلمة نهق  
كان له ذيل حمار

....

رأيت فى المنام أننى أقود عربية  
تجرها ست من المهارى  
تجوب بى الوديان والصحارى  
وفجأة تحولت خيولها قطاطاً (٣٣) ..  
إلى آخر الحلم.

أو من خلال الصوفى بشر الحافى مرة ثانية:  
كان الإنسان الأفعى يجهد أن يلتف على الإنسان الكركى  
فمشى بينهما الإنسان الثعلب  
عجباً .. زور الإنسان الكركى فى فك الإنسان الثعلب  
نزل السوق الإنسان الكلب (٣٤) ..  
على أن هذا العالم أقرب إلى الكاريكاتير فى تصويره منه إلى  
الكابوس. ويتجلى فى قصيدته «حديث فى مقهى»:  
أمضى عندئذ أتسكع فى الطرقات  
أتبع أجساد النسوة  
أتخيل هذا الردف يفارق موضعه ويسير على شقيقه

حتى يتعلق في هذا الظاهر  
أو هذا النهدي يطير ليعلو هذا الخصر  
(وأعيد بناء الكون) (٢٥) ..

إنه تشكيل جديد، يولع به الشاعر حين يريد (إعادة بناء الكون) سأمًا  
منه وملأ، لا يخفى ما في هذا التعبير من استخفاف وتندر.

وهذا التشكيل الكاريكاتوري يدعونا أن نقف عند بعض الشخصيات  
في مسرح صلاح عبد الصبور، إنه يجيد رسم شخصيات مسرحه بعامة،  
ويتفنن في حذق بالغ في استظهار أبعاد شخصياته المرحية بصفة خاصة.  
إننا نستطيع أن نرى أنماطاً ونماذج في شعر صلاح عبد الصبور ومسرحه.  
تصادفنا في شخصيات (الشاعر، والدرأويش والمنافق، والجلاد، والملك،  
والخياط ... إلخ).

ويكفيها هنا أن نستدل على قدرته على رسم أبعاد الشخصية المرحية  
بنموذج الخياط في مسرحيته (بعد أن يموت الملك)؛ وقد كان الشاعر الراحل  
يعتز بهذه الشخصية التي ابتدعها ويعجب برسمه لها:

الخياط: دلوني يا سادتي نجوم المجد  
هل أنا في حلم أو في يقظة  
هل أنا حقاً في حضرة مولانا البدر المتجسد  
تنهل عيني من رائق أنواره  
ها أنذا أقرص نفسي كي أتأكد  
لكن النور يعشى عيني الذاهلتين  
الملك (مبتسماً): عندئذٍ فلتصفع نفسك  
فلعلك تتأكد

أو دعنى أصفك أنا  
الخياط (مقرباً وجهه): مولاي .. أكرم هذا الخدا  
ثم يقدم الخياط لمولاه قطعة مخمل:  
الخياط: مولاي.. أرسل لى صهرى خياط أمير بلاد الغرب  
قطعة مخمل. ما كدت أراها حتى.. أه  
كان لقاء يا مولاي .. أحسست يلقى فى أضلاعى  
يتوثب  
ومددت يدي فى وله كي أتمسها لمس النسمة  
للأغصان  
حين استترخت فوق الرغب الناعم كفاى  
الراعتان  
داهمنى تيار الرعدة يتغلغل فى جسدى المتهب.  
ثم تدفق شئ فى أطرافى كالدّم حين تحركه الحمى  
وتفتح باطنها فى خجل للمامسى الحذرة  
إذ نبضت فى كفى شعيرات دافئة تتمدد تحت  
الرغب الأشهب  
فاشتدت بى الرعدة وانبهرت أنفاسى الحذرة  
ملت إليها لأقبلها، فانكشيت، وهى تقول:  
أنا بكر لم ألتف على ساقى بشرى من قبل.  
الملك: أو هذا ما قالتها القطعة؟  
الخياط: هذا ما سمعته أذنائى، وحقك يا مولاي  
عندئذ قلت لها:  
إنك أعلى قدراً من أن تلتفى فى ساقى بشرى  
مخلوق من طين ودماء

لا يأتلف النور سوى بالنور الوضاء  
وساحملك لمولانا البدر الأنور  
وجمت عندئذ، وارتعد الزغب الناعم فى استحياء  
المالك: وجمت!  
الخياط: أو حقك يا مولاي، هذا ما كان  
وجمت واهتز الهدب الوسنان  
ثم أجابت في صوت خجلان:  
لكن مولانا ذو تاريخ مروي فى العشق  
وأنا ساذجة لا أعرف شيئاً من ألعاب الخلان  
قلت لها: لا تخشى شيئاً، ودعى لى هذا الشان  
سيداعبك اليوم مقص الفن  
يتحسس أطرافك، ويميل على وسطك  
حتى يتدور عطفك، ويبرز ما تحت الجلد الناعم  
من وهج العرق  
فانسابت عندئذ فى أقدامى وهى تقول:  
شكلنى أرجوك  
حتى يحظى جسمى المشتاق، وقلبي المنهوك  
بملاسة الغالى فى العشاق  
إذ توشك أن تمرقنى الأشواق.  
لكنى جئت بها بكرة ساذجة يا مولاي  
إن راقتم فاعهد لى برعايتها حتى تنضج فى  
بضعة أيام  
المالك: المهنة خياط  
واللهجة لهجة نخاس أو قواد (٣٦) .

إن هذه الشخصية المنافقة تنضم إلي بلاط متعفن يجمع المؤرخ والقاضى، والشاعر الذى يلحن المحظيات أناشيد العشق الملكية ، والوزير، والمنادى، وكلها شخصيات تثير طوال الفصل الاول من المسرحية ذلك الضحك المرير، الذى يفجره القاضى أبو عمر الحمادى وهو على منصة القضاء وبين يدي العدالة حين يخاطب ابن سليمان:

أحكى لك قصة

بالأمس لقيت صديقى القاضى الهروى  
وهو كما تعلم رجل مغرور بقريحتة وذكائه  
فسألتة:

«ما أجدى ما يطعن من طعن عن الطعن»  
فاحتار ولم يفهم  
فأعدت القول لكى لا تبقى للقاضى حجة  
«ما أجدى ما يطعن من طعن عن الطعن»  
فتبلد وتحمم

كحصان ابن زبيبة عنتر (٣٧) ..

إنه إحدى النماذج التى يتهمك عليها ومن خلالها الشاعر الراحل وينتقد بسخرية عادات ومواقف لا تنجو من بصيرته النافذة أو روحه الساخرة الناقدة.



ولم تكن هذه الروح الساخرة لتسرى فى شعر الشاعر دون نثره فكثيراً ما تصادفنا في عباراته النثرية، بل إننا نجده فى سلسلة «مشارف الخمسين»، تحت عنوان (جماعة الضحك القديم)، يرسم صورة شخصية فذة

لصديقه إبراهيم السروجى. ونجد فى هذه القطعة النثرية روحاً أقرب إلى روح المازنى وأسلوبه فى رسم مثل هذه الشخصيات (٢٨) :

(كان أول من قدمنى إلى عالم الضحك العقلى الصافى هو إبراهيم السروجى عليه ألف رحمة وسلام. وربما كان لا يعرف السروجى حق المعرفة إلا أنا، وعديد من الموتى، وقليل من الأحياء، كان إبراهيم السروجى أحد أعلام المدينة، بخفة ظله وحياته التى يختلط هزلها بجدها؛ أما نحن فقد عرفناه كما كان ينبغى له أن يعرف.

كنت فى الخامسة عشرة من عمرى، وكان مسعأى إليه فى دكانه، حيث كان يعمل فى صناعة السروج لحمير الريف وأحصنة عربات الحنطور التى كانت هى «تاكسيات» ذلك الزمان. وكانت النكتة الأثيرة لإبراهيم حين يهل عليه أحدنا هى أن يقول:

«قوم لا خد مقاسك واصنع لك جاكته»

كان إبراهيم السروجى لا يعمل فى دكانه إلا ساعة أو بعض ساعة. ثم ما يلبث أن يدركه الملل، فيمد يديه إلى كتاب مطوى تحت أداة صناعته من الجلد والخيش، ويقرأ فيه حتى يهل عليه واحد من أتباعه. وفى دكان إبراهيم السروجى سمعت لأول مرة أسماء نيتشه وشوبنهاور وجون ستيورات مل ... إلخ...).

على أنه مما يلفت النظر فى شعر صلاح عبد الصبور موقفه من الحكمة وسخريته منها وتهكمه على مريديها. فهو فى قصيدة (أقول لكم) سيموت من سغب لو قعد إليها فى محبسه.

وفى قصيدة موت فلاح (٢٩) :

لم يكن كدأبنا يلغظ بالفلسفة الميتة

لأنه لا يجد الوقت

وفى «ليلى والمجنون» يسخر من أسلوب الحكمة والعنعات، حيث يقول

زياد:



زياد: عنى، عن أمى، عن جدى يرحمه الله  
قال: من نـام فشـف فمات  
مات شهيداً. وتحول فى أعطاف الجنة مصطبة  
يتكى عليها رضوان (٤٠) .

وعلى لسان زياد أيضاً فى حديثه عن والده:

زياد: لكنى ما كنت أطيق الصبر  
إن كنت ذكياً - من يومى -  
أتوقع ما سيعثره من در  
وخصوصاً إن عاوده داء كان يعاوده مرات خمساً  
فى اليوم  
حنان: ما اسم الداء؟  
زياد: داء الحكمة (٤١) .  
إن التأمل والحكمة أفسدت أيامه فأوسع أهلها تهكماً وسخرية. وفى  
(مرثية صديق كان يضحك كثيراً) (٤٢) :

مات صديقى أمس  
إذ جاء إلى الحانة لم يبصر منا أحداً  
ألقى فى مقعده (مختوماً) بالبهجة  
حتى انتصف الليل  
لم يبصر منا أحداً  
سالت من ساقيه البهجة  
وارتفعت حكمته حتى مست قلبه  
فتسم بالحكمة

وفى «حكاية المغنى الحزين» اعترضته الجنة:

أنت ألم أدفئك أمس  
(كانت لكهل أشيب حكيم  
ومات إذ ساموه أن يغترف الحكمة بالقلوب  
إن إنها تدحرجت من ساقه لبطنه  
لرأسه، كالخوف، كالعطن) (٤٣)

ولم تنفعه الحكمة و(الفتانة الصغراء)، فى «الشعر والرماد» (٤٤) كانت  
الحكمة التى سخر منها وأوسعها تهكما تأتية بيقينها النهائى:

أعطتنى مانيلا شيئاً من حكمة مانيلا  
أعطتنى أن الفم لم يخلق إلا للضحك الصافى  
الجدلان  
أعطتنى أن العينين  
مرأتان يرى فى عمقهما العشاق ملامحهم  
حين يميل الوجه الهيمان على الوجه الهيمان  
أعطتنى أن الجسم البشرى  
لم يخلق إلا كي يعلن معجزته  
فى إيقاع الرقص الفرحان  
درس عرفته روحى بعد فوات الأزمان  
بعد أن انعقد الفم بضلالات الحكمة والحزن  
وأرعى ستر القلق الكافى فى نافذة العينين  
وتصلب جسمى فى تابوت العادة والخوف

بعد أن احترقت أو كادت بهجة عمرى  
 إذ رمت الأيام رماة حياتى في شعرى  
 درس عرفته روى بعد فوات الأزمان ..

إن إحساس صلاح عبد الصبور المرفف بالواقع ووعيه الدائم به، واستعداداته الطبيعي للتأمل، كل ذلك جعل إحساسه حاداً بالمفارقة. وقد استطاع ببصيرته النافذة وأسلوبه الناقد وحسه الساخر، أن يتقصى كثيراً من أبعاد النفس البشرية معبراً عنها في صدق وشفافية. يلتقى في هذه الميزة - الحس الساخر اللاذع - فضلاً عن أبى العلاء بكاتب إسبانيا العظيم سيرفانتس الذي يقول عنه بريتون راسكو (٤٥) :

(.. ثمة أناس فطروا على النظر إلى الأشياء في ضوء من الفكاهة الضاحكة؛ أناس لا يستطيعون فهم الآثار الأدبية التصويرية إذا بدت في ثوب من الانفعالات المفجعة أو في فن من العواطف الرقيقة المجنحة وهذا ليس معناه أنهم عاجزون عن الإحساس بالانفعالات إحساساً يبلغ من قوته وحدته ألا ينقذهم من عواقبه إلا أن يضحكوا؛ لا أن يضحكوا ذلك الضحك الهستيري. ولكن ذلك الضحك اللطيف الساخر، الذي يتيح لهم فرجاً مما في أعماقهم من ضيق ..).

وقد كان صلاح عبد الصبور واحداً من هؤلاء العظام.



## هوامش:

- (١) مشارف الخمسين. مجلة الدوحة، قطر.
- (٢) المصدر نفسه.
- (٣) حكيم المعرة عمر فروخ. مطبعة الكشاف. بيروت ١٩٤٤ ص ١٨.
- (٤) ديوان (الناس في بلادى) دار العودة. بيروت. طبعة الثالثة ١٩٧٣ ص ٣١.
- (٥) ديوان (أقول لكم) دار الآداب ببيروت طبعة الثالثة ١٩٦٩ ص ٧٧.
- (٦) مشارف الخمسين. الأربعة الكبار - مجلة الدوحة. قطر.
- (٧) مجلة (المجلة - الشرق الأوسط) العدد ٣٥ فى ١١ / ١٠ / ٨٠ ص ٦٦.
- (٨) المصدر نفسه.
- (٩) قصيدة (الحب فى هذا الزمان) - ديوان (أحلام الفارس القديم) - دار الآداب . بيروت طبعة ثانية ص ٤٠.
- (١٠) حياتى فى الشعر - دار إقرأ ١٩٨١ - ص ١٤٣.
- (١١) المصدر نفسه ص ١٤٢.
- (١٢) مذكرات الملك عجيب بن الخصيب - ديوان أحلام الفارس القديم. ص ١٩.
- (١٣) د. لويس عوض: الثورة والألب - دار الكاتب العربى ١٩٦٧. ص ١٠٨.
- (١٤) ديوان (تأملات فى زمن جريح) - دار العودة، بيروت ١٩٧١.
- (١٥) يقول أبو نواس:  
وليس على الله بمستنكر  
أن يجمع العالم فى واحد
- (١٦) عمر فروخ: حكيم المعرة ص ١٩.
- (١٧) تأملات فى زمن جريح. ص ١٨ قصيدة (حكاية المغنى الحزين).
- (١٨) أحلام الفارس القديم. ص ٨٦ قصيدة (مذكرات عجيب بن الخصيب)
- (١٩) حياتى فى الشعر. ص ١٥٩.
- (٢٠) المصدر نفسه . ص ١٥٩.
- (٢١) مأساة العلاج - دار روز اليوسف ١٩٨٠. ص ٨.
- (٢٢) المصدر نفسه . ص ٩.
- (٢٣) المصدر نفسه . ص ٤١.
- (٢٤) المصدر نفسه . ص ٥٦.
- (٢٥) جلال العشرى: ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب. طبعة ثانية ١٩٨١. ص ٢٥٤.
- (٢٦) ليلى والمجنون - الهيئة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧٠. ص ١١.
- (٢٧) المصدر نفسه . ص ٣٠.
- (٢٨) المصدر نفسه . ص ٣٤.
- (٢٩) الأميرة تنتظر - دار النهضة العربية ١٩٧٣.

- (٣٠) لويس عوض: الحرية ونقد الحرية - الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠، ص ١١١.
- (٣١) مسافر ليل والاميرة تنتظر - دار النهضة العربية ١٩٧٣ ص ١٠١.
- (٣٢) ديوان (أقول لكم)، ص ٧١ - قصيدة (الظل والصليب).
- (٣٣) ديوان (احلام الفارس القديم)، ص ٩٤ - قصيدة (عجيب بن الخصيب).
- (٣٤) المصدر نفسه ص ١٠٥ - قصيدة (الصوفى بشر بن الحافى).
- (٣٥) ديوان (تأملات فى زمن جريح) ص ٧١ قصيدة (حديث فى مقهى).
- (٣٦) بعد أن يموت الملك - دار العودة بيروت ١٩٧٦ ص ٢٧، ص ٢٨.
- (٣٧) مأساة الحلاج، ص ٨٤.
- (٣٨) مشارف الخمسين: (جماعة الضحك القديم) - مجلة الدوحة عدد ٦٠ ديسمبر ١٩٨٠.
- (٣٩) ديوان (أقول لكم)، ص ١١، قصيدة (موت فلاح).
- (٤٠) ليلى والمجنون، ص ٢٣.
- (٤١) المصدر نفسه، ص ١٩.
- (٤٢) ديوان (شجر الليل) - دار الوطن العربى، طبعة أولى ١٩٧٢، ص ٧٥.
- (٤٣) ديوان (تأملات فى زمن جريح)، ص ١٧ قصيدة (حكاية المغنى الحزين).
- (٤٤) ديوان (الإبحار فى الذاكرة) - دار الوطن العربى - طبعة أولى ١٩٧٩، قصيدة (الشعر والرماد) ص ٢٥.
- (٤٥) برتون راسكو: عمالقة الأدب/ ج ٢/ سلسلة الألف كتاب ص ١٠٢.





---

**.. والآباء يحصدون الشعرا!!**  
**دراسة حول**  
**مراثى الأئب فى الأءب العربى**

---





حفل أدبنا العربي على اختلاف عصوره ومراحله بالعديد من القصائد الباكية التي وقف فيها الشاعر راثياً فقيداً له، ولعله من فضول القول أو التزيد أن نورد أمثلة من هذه القصائد، وإن كان يمكننا أن نذكر - في هذا الصدد - قصائد ابن الرومي في رثاء أبنائه، كذا نشير إلى قصيدة أبي نؤيب الهذلي: (أمن المنون وريبها تتوجع) وقد حظيت هذه القصائد - وهي أكثر من أن تحصى - بدراسات واهتمام النقاد، وكان الشاعر والدأ - في حضوره الإبداعي - أغزر إنتاجاً من الشاعر ابناً، حيث ندرت - فيما نعلم - القصائد التي رثى فيها الشعراء آباءهم. على أن هذا القليل ربما كان كافياً لمثل هذه الدراسة التي تتناول أهم هذه القصائد. وقد تبين من خلالها أن الأبناء يضرسون بالموت، أما الآباء فيحصدون الشعر.

في البداية كان حجر «صغير» ارتطم بسطح الماء، فانتسعت دائرة وكانت قصيدة أبي العلاء المعري وقصيدة إيليا أبي ماضي في رثاء والديهما. كانت القصيدتان متلازمتين، على الرغم من انتماء الأولى إلى القرن الخامس الهجري، والثانية إلى القرن الثالث عشر. ورغم نبوغ المعري في (معرة النعمان) وظهور أبي ماضي في المهجر الأمريكي، رغم الفوارق الكثيرة زمانياً ومكانياً وحضارياً بينهما، أمسك شاعر المهجر الكبير بتلابيب فيلسوف المعرة الضريب وأبى إلا أن يعارضه، ومن هنا جاءت خاطرة التلازم. ولم تلبث الدوائر أن اتسعت وافترت عن دوائر أخرى، ومضت خلالها

قصائد لشوقي، وأبى القاسم الشابي، ونزار قباني، وبمنكبيهما تزام  
شاعران معاصران هما الرائدان عبد الصبور وحجازي. وتداخلت الدوامات  
وتشابكت.. وثار سؤال:

هل يمكن أن نرصد ظواهر التطور على فن الشعر من خلال دراستنا  
لغرض من أغراضه - وهو الرثاء - على حد تقسيم القدماء؟

فالمغرض الشعري، كما يقول المصطلح النقدي القديم، هو الرثاء، الذي  
تعرفه كتب الأدب العربي بأنه: (ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يخلط  
بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت: كأن عدماً به كيت أو ما يشاكل  
هذا ليُعلم أنه ميت. وسبيل الرثاء أن يكون شاهر التفجع بين الحسرة  
مخلوطاً بالتلف والاسف) (١).

هذا عن الغرض الشعري، أما الشعراء فينتمون إلى أجيال مختلفة  
وعصور أدبية متفاوتة ومدارس فنية متباينة.

ثار السؤال. ومض لبرهة ثم سرعان ما اختفى. فلسنا بصدد تفضيل  
شاعر على آخر كدأب العقاد القدماء في مثل هذه المقارنات، وإنما رضىنا  
لمحاولتنا تلك المتواضعة أن يحسب لها لفت النظر وإلقاء الضوء على تلك  
القصائد. وحسبها ذلك شرفاً.

هامل لواء الرثاء أيضاً:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من  
هم الحياة، وخلفاء ذليلاً  
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما  
وبحسن تربية الزمان بديلاً  
إن اليتيم هو الذى تلقى له  
أماً تخلت، أو أباً مشغولاً

هكذا عرّف شوقي (اليتيم) انطلاقاً من مفهومه للأبوة. هذا المفهوم الذى أدركه امرؤ القيس منذ أربعة عشر قرناً. فكما كان امرؤ القيس (حامل لواء الشعراء إلى النار...!!) كان أول من رثى والده من الشعراء. وكم كان الرثاء مؤلماً. تلقى الشاعر نبأ مصرع والده وهو لاهٍ عابث - كما تقول الراويات - فقال عبارته التى تنزف ألماً وتقطر حسرة.. (لا صحو اليوم.. ولا سكر غدا.. اليوم خمر .. وغدا أمر..) ثم أضاف (ضيعنى صغيراً.. وحملنى دمه كبيراً..). رثاء عاجل مريع.. فيه شخصية امرؤ القيس العريضة الصادقة مع ذاتها فى مواجهة حقيقة مرة داهمت وعيه المخمور.. رثاء فيه الإشفاق على نفسه من عبء مستقبل الثأر.. وكم كان العبء ثقيلاً. وإذا التفتنا إلى العبارة (ضيعنى صغيراً) أحسنا بالمرارة التى ذاقها الشاعر والتقى خلال حروفها بمفهوم شوقي لليتيم والأبوة. وعلى كل فقد اتخذ الشاعر العرييد مقتل والده والثأر له قضية متوهجة فى النصف الثانى من حياته التى اختلف حولها مؤرخو الأدب.

### سوت العالم:

ويفجع أبو العلاء بفقد والده، وكان فتى يافعا، يتحدى محنته ويملا الدنيا بما سقط من زنده، بمثل قوله:

ألا فى سبيل المجد ما أن فاعل

عفاف وإقدام وحزم ونائل

أو قوله:

ورائى أمام، والأمام وراء

إذا أنا لم تكبرنى الكبراء

أو قوله:

أفوق البدر بوضع لى مهاد

أم الجوزاء تحت يدى وساد؟

يموت الوالد العالم. المعلم الأول للشاعر الضريع، فيفجع الفتى المتوهج  
العزيمة المتأجج الهمة. ويسقط الثلج على النار!!... كان ذلك عام ٣٩٥هـ.  
وقبل سفره إلى بغداد، وعودته المنكسرة منها ليعتزل الناس في محبسه  
الثانى. وتجيئ هذه القصيدة من (سقط الزند) وفيها ذلك الحس المتوهج  
المتقد، وفيها أيضاً بذور التأمل العلانى الأولى:

نقمت الرضا، حتى على ضاحك المزن  
فما جادنى إلا عبوس من الدجن

فليت فمى، إن شام سننى تبسما  
فم الطعنة النجلاء تدمى بلا سن  
قصيدة تبدأ بالنقمة، حيث لا يرضى الشاعر إلا بالعباس من الدجن،  
وحيث وطأة الفجيعة التى تجعله يدعو، ويتمنى، ويتعهد ألا يبتسم  
(وهيئات!!) بل تجعل اتساع فمه لضحكه مرادفا للطعنة الدامية النجلاء ..  
ثم يقول:

أبى، حكمت فيه المنايا .. ولم تزل  
رماح المنايا قادات على الطعن  
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى  
وسهد المنى والجيب والذيل والردن  
فياليت شعرى هل يخف وقاره  
إذا صار احد فى القيامة كالعهن  
وهل يرد الحوض الروى مبادرا  
مع الناس، أم يابى الزحام فسيتانى  
ججاً زاده من جرأة وسماحة  
وبعض الحجا داع إلى البخل والجبن

يموت العالم الوقور.. فهل يخف وقاره يوم القيامة؟ (يوم تصير الجبال  
كالهين المنفوش) .. نلاحظ ثقافة أبى العلاء الدينية، كما نلاحظ بدايات  
اهتماماته اللغوية وولعه بالبديع التى بلغت أوجها فى اللزوميات:

فليت قمى إن شام سنى تبسما  
فم الطعنة النجلاء (٢) تدمى بلا سن  
ولنلاحظ - أيضاً - نفسية أبى العلاء المتحفزة واعتداده بنفسه وأبيه:

وهل يرد الحوض الروى مبادرا  
مع الناس، أم يابى الزحام فيستانى؟  
ثم تبدأ تأملات أبى العلاء فى الحياة:

على أم دفر غضبة الله إنها  
لأجدر أنثى أن تخون وأن تخنى  
كعاب، دجاها فرعها، ونهارها  
محيا لها قامت له الشمس بالحسن  
كان بنيتها يولدون ومالها  
حليل، فتخشى العار إن سمحت بابن

هل هو موقفه من المرأة؟ أم موقفه من الحياة؟ أم من كليهما معا؟ هل  
هو تأثره بأستاذه المتنبى الذى ولع به ولوعاً - فى هذه السن - فيلتقط الخيط  
من رثائه - المتنبى - لأخت سيف الدولة الصغرى:  
أبدا تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا  
شيم الغانيات فيها، فلا أدري لذا أنت اسمها الناس أم لا؟  
أو من قوله - أى المتنبى - :

فذى (الدار) أخون من مومس  
وأخضع من كفة الحابل

تفانى الرجال على حبها  
وما يصلون على طائل  
هذا عن الحياة الدنيا - امرأة لعبوا كما رأها - أما الموت فيبقى لغز  
الألغاز .. ويحظى من أبى العلاء بتلك الوقفة:  
جهلنا فلم نعلم - على الحرص - ما الذى  
يراد بنا، والعلم لله ذى المن  
إذا غيب المرء استسر حديثه  
ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى  
تضل العقول الهبرزيات رشدها  
ولم يسلم الراى القسوى من الإفن  
وربما يكون العجز أمام لغز الموت مدعاة للتهالك على الحياة. إلا أن  
الشاعر يعجب من هذا الحرص والإقبال عليها، ونعجب نحن أيضا من  
حرص المعرى المبكر على العلم!!  
وجدنا أذى الدنيا لذيذا، كأنما  
جنى النحل أصناف الشقاء الذى نجنى  
وخوف الردى أوى إلى الكهف أهله  
وكلف نوحا وابنه عمل السفن  
وما استعذبتهم روح موسى وأدم  
وقد وعدا من بعده جنتى عدن

حتى الأنبياء الذين وعدوا بالجنان، لم يستعذبوا الموت!!، بعد هذه  
التأملات يعود الشاعر إلى أمجاد والده البلاغية، ويدعو لقبيره، داره  
الجديدة، بالسقيا .. ثم يتساءل عن مصير الموتى، ويعذبه البحث عن اليقين  
فى أمرهم:

طلبت يقينا من جهينة عنهمو  
فلم تخبريني يا جهين سوى الظن  
فإن تعهدينى لا أزال مسائلاً  
فإنى لم أعط اليقين فاستغنى



وتتصاعد نبرة الحزن رويداً رويداً .. بعيداً عن عقلانية أبى العلاء، ذلك  
حين يتأكد من وحشة الحياة بدون هذا الوالد .. فيجئ صوته الشجى:

لقد مسخت قلبى وفاتك طائراً  
فأقسم ألا يستقر على وكن  
يقضى بقايا عيشه وجناحه  
حنيث الدواعى فى الإقامة والظعن  
كان دعاء الموت باسمك نكرة  
فرت جسدى، والسم ينثث من أذنى  
فيا قبر واهٍ من ترابك لنا  
عليه، واهٍ من جنادك الخشن



ثم تكون نهاية القصيدة بهذه الفكرة المتوارثة، المتكررة فى كل المراثيات  
ألا وهى أن يقسم الراثى للمرثى ألا ينساه:

فهل أنت إن ناديت رمسك سامع  
نداء ابنك المفجوع بل عبدك القن

سأبكي إذا غنى ابن ورقاء بهجة  
وإن كان ما يعنيه ضد الذى أعنى  
ونادبة فى مسمعى كل قيئة  
تغرد بالحن البرئ عن اللحن  
واحمل فيك الحزن حيا، فإن أمت  
وألقتك، لم أسلك طريقا إلى الحزن  
وبعدك لا يهوى الفؤاد مسرة  
وإن خان فى وصل السرور فلا يهنى  
والقصيدة تظهر إلى حد بعيد معنى البنوة والأبوة عند أبى العلاء فى  
تلك الفترة المبكرة من حياته حيث لم يكن أصابها الوهن بعد. كان معنى  
مقدساً لم تتسرب إليه بعد ما يردده فى اللزوميات:  
على الولد يجنى والد، ولو أنهم  
ولاة على أمصارهم خطباء  
وزادك بعدا من بنيك، وزادهم  
عليك حقوداً أنهم نجباء  
يروون أبا القاهم فى مؤرب  
من العقد ضاعت حله الأرباء  
ولم يكن تسلل إليه هذا الصدى الحاد:  
تواصل حبل النسل ما بين آدم  
وبينى، ولم يوصل بلامى باء  
تثاعب عمرو إذ تثاعب خالد  
بعدوى فما أعدتني الثوباء



ونتساءل بعد هذه القراءة السريعة لتلك القصيدة الباكية.. أليس من العجيب ألا تُحسب هذه القصيدة لشاعر المعرة .. ونعنى قصيدته فى رثاء أبيه وتتقهقر ليمحوها - عبر الزمن - بيته الذى لا يُذكر أبو العلاء إلا ورافقه قوله:

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد..!!

أليس فى ذلك غبنٌ شديد لقيمة وفاء الابن لأبيه؟



دروع نمطية فى المرحر:

وقصيدة أبى ماضى لا تخرج كثيرا عن نونية المعرى، فهذا النص (هاجر) فى ذاك - إذا شئنا مصطلحا عصريا - وإن شئنا قلنا إن (معارضة) أبى ماضى لقصيدة أبى العلاء جاءت امتدادا لها.. وإذا أغضينا قليلا عن (السلاسة) التى تغلف قصيدة أبى ماضى فى مواجهة (الجزالة) التى تلف قصيدة أبى العلاء فلن يلاحظ القارئ أى اختلاف .. ولنقرأ:

طوى بعض نفسى إذ طواك الردى عنى  
وذا بعضها الثانى يفيض به جفنى  
أبى خاننى فيك الردى، فتوقضت  
مقاصير أحلامى كببت من التبن  
وكانت رياضى حاليات ضواحا  
فاقوت وعفى زهرها الجزع المضى  
وكانت دنانى بالسرور مليئة  
فطاحت يد عمياء بالخمير والدين  
فليس سوى طعم المنية فى فمى  
وليس سوى صوت النواذب فى أذننى

ولا حسن فى ناظرى، وقلمما  
 فتحتهما من قبل إلا على حسن  
 أبحت الأسى دمعى وأنهبته دمى  
 وكنت أعد الحزن ضربا من الجبن  
 فمستنكر كيف استحالت بشاشتى  
 كمستنكر فى عاصف رعشة الغصن  
 يقول المعزى ليس يجدى البكا الفتى  
 وقول المعزى لا يفيد ولا يغنى



هل هناك معنى مستهلك لم يجئ به الشاعر؟؟ ليس هناك فضل للشاعر  
 فى تلك الأبيات سوى نظمه لتلك المعانى العادية فى إيقاع عمودى رتيب..  
 على أن تأثير أبى العلاء فى الشاعر يتجلى خلال تلك الروح التأملية والنزعة  
 الفلسفية التى حفلت بها أبيات القصيدة التالية، ولا يفوتنا أن نذكر أن أبا  
 ماضى كان مؤهلا روحيا وفكريا لتلك النزعة التأملية ولتقرأ مجموعاته  
 الشعرية وقصيدته (الطلاسم) لتؤكد هذا الرأى:

يقول المعزى ليس يُجدى البكا الفتى  
 وقول المعزى لا يفيد ولا يغنى

شخصت بروحى حائرا متطلعا  
 إلى ما وراء البحر أدنو وأستدنى  
 كذات جناح أدرك السيلُ عشها  
 فطارت على روع تحوم على وكن  
 نلاحظ هنا تأثير أبى العلاء فى بيته:

لقد مسخت قلبى وفاتك طائرا  
 فاقسم ألا يستقر على وكن

ويلتقط الشاعر فكرة عابرة - وهى وفاة والده فى غيبته - وهى لاشك  
كفيلة بإثارة الوجدان فيبدع فى تصوير تلك الخصوصية:

فواها لوانى كنت فى القوم عندما  
نظرت إلى العُهد تسالهم عنى  
ويا ليتما الأرض انطوى إلى بساطها  
فكنت مع الباكين فى ساعة الدفن  
لعلى أفى تلك الأبوة حقها  
وإن كان لا يوفى بكيل ولا وزن



والشطر الثانى هنا انتهى عند قوله: (وإن كان لا يوفى..) وجاء قوله:  
(بكيل ولا وزن) لإقامة الوزن وإتمام القافية.. ثم تأتى هذه الأبيات:

فأعظم مجدى كان أنك لى أب  
وأكبر فخرى كان قولك: ذا ابنى  
أقول لو أنى كى أبرد لوعتى  
فيزداد شجوى كلما قلت: لو أنى  
أحتى وداع الأهل يحرمه الفتى  
أيا دهر هذا منتهى الحيف والجبن  
أبى.. وإذا ما قلتها.. فكاننى  
أنادى وأدعو: يا ملاذى ويا ركنى  
لمن يلجأ المكروب بعدك فى الحمى  
فيرجع ريان المنى ضاحك السن



ثم يسهب الشاعر فى مدح والده ويبدأ فى نسبة الصفات الحسنة  
والحميدة إليه، مؤكدا توصيف القدماء لفن الرثاء، وبطريقة الشعر الجاهلى

يرى الوالد (جرئ على الباغي) .. (عيوف عن الخنا) .. كريما .. لييبا ولا يزال  
يعزف على هذا الوتر المتاكل الرتيب النغم .. حتى يسلم بالموت:



برغمك فارق الربوع، واننا  
على الرغم منا سوف نلحق بالظعن  
طريق مشى فيه الملايين قبلنا  
من الملك السامى إلى عبيده القن  
نظن لنا الدنيا وما فى رحابها  
وليست لنا إلا كما البحر للسفن  
تروح وتغدو حرة فى عبابه  
كما يتهاذى ساكن السجن فى السجن  
وزنت بسر الموت فلسفة الورى  
فشالت وكانت جعجات بلا طحن<sup>(٤)</sup>  
فاصدق أهل الأرض معرفة به  
كاكثرهم جهلا يريج بالظن  
فذا مثل هذا حائر اللب عنده  
وذاك كهذا ليس منه على أمن  
فيا لك سِفرا لم يزل جد غامض  
على كثرة التفصيل فى الشرح والمتن  
ثم يكون السلام والوداع الأخير، ويجئ تقليديا:  
على ذلك القبر السلام فنذكره  
أريج به نفسى عن العطر تستغنى



أتري، أضاف الشاعر جديداً إلى سفر الموت؟  
لا نظن ذلك وإن حاول جاهداً أن يجعل لدموع الإنسانية مذاقاً جديداً!!

### شوقي بين بساطة الرؤية وقناعة التعبير:

كان لشوقي ولع خاص بالمعارضات. عارض البحتري وأبا تمام والنواسي والشريف الرضي وابن زيدون والحصري القيرواني والبوصيري .. وغيرهم. وحين رثى والدته - وكان منفياً بالأندلس - قال:

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما  
أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى  
معارضاً بها ميمية شاعر العربية الأكبر - المتنبي - في رثاء جدته:

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذمّاً

فما بطشها جهلاً، وما كفُّها حلماً

على الرغم من هذا الولع الشديد بالمعارضات إلا أن شوقياً حين رثى والده لم يعارض أحداً، وصدر في رثائه عن نفسه فجاءت قصيدته عن والده من أجمل ما قيل في رثاء الأب. وقد نتساءل: لماذا لم يعارض شوقي - حين رثى والده - أبا العلاء - مثلاً - على أساس أنه عارض فحول الشعراء ممن زاحمهم بمنكبيه وشاركهم في روائع آثارهم؟

من المعروف أن المعارضة - كما يعرفها الدارسون .. (هي أن ينظم الواحد على مثل ما خالفه) <sup>(٥)</sup> وهي في مفهومها الشائع البسيط تستوجب اتفاق شاعرين في مزاجهما الفني أو تقاربهما، تستوجب أيضاً اقترابهما نفسياً. وحتى في حالة اختلافهما فكرياً فإن الإطار الفني الواحد يسد تلك الثغرة. وإذا صح فلا بد أن طيف المعري لم يخطر ببال شوقي آنذاك لأنهما مختلفان تماماً في نظريتهما حول معنى الأبوة. هذا الخلاف يجسده شوقي ويرصده في قوله:

بينى وبين أبى العلاء قضية  
فى البر أسترعى لها الحكماء  
هو قد رأى نعمى أبيه جناية  
وأرى الجناية من أبى نعماء (٦)



ولعل ذلك يدل على فهم شوقى وإدراكه الواعى لمعنى الأبوة. وهذا ما يتضح لنا من قصيدته التي نحن بصدددها - بعكس أبى العلاء الذي كان حكمه ذاتيا يقطر مرارة نابعة من محنته ومأساته.

يذكر شوقى فى مقدمة الجزء الأول من الشوقيات عن والده - أنه بعد وفاته فتش فى أوراقه:

(فكان لى عجباً أن وجدت بين أوراقه كثيراً من مشئت منظومى ومنثورى، ما نشر منها وما لم ينشر. قد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص. والكل خط يد المرحوم. وقد لفته فى ورقة كتب عليها هذه العبارة: «هذا ما تيسر لى جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم فى أوروبا. فكنت كأنى أراه. وإنى أمره أن يعتنى بشئونيه، وربما لا يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب..» (٧).

وبعيدا عن رأى الوالد فى ابنه (أنه آخر من يعنى بالشعر والآداب) وما فى ذلك من مجافاة وتعسف وجور على الواقع. صدم الشاعر بوفاة مثل هذا الوالد. فما عسى الشاعر أن ينطق. يبدو أن المفاجأة عقدت لسانه وفكره. فلم يرثه على الفور. وبعد لى جاءت هذه النفثات ولنلاحظ أن شوقياً لم يبدأ قصيدته بالتصريح - على ولعه به - :

ســــــــالونى: لِمَ لَمْ أرث أبى  
ورثاء الأب دين.. أى دين!!

أيها اللوام .. ما أظلمكم  
 أين لى العقل الذى يسعد.. أين؟  
 يا أبى.. ما أنت فى ذا أول  
 كل نفس للمنايا فرض عين  
 هلكت قبلك ناس وقرى  
 ونعى الناعون خير الثقلين  
 غـاية المرء وإن طال المدى  
 أخذ يأخذه بالأصغرين  
 وطبيب يتولى عاجزا  
 نافضا من طبه خفى حنين  
 إن للموت يدا إن ضربت  
 أوشكت تصدع شمل الفرقدين  
 تنفذ الجو على عقبانه  
 وتلاقى الليث بين الجبلين  
 وتحطُّ الفرخ من أيكته  
 وتنال الببغا فى المئتين



قد لا نحظى بجديد فى ملف قضية الموت، ولكن هذه النفثة التى تتميز بالسلاسة تنم عن حرفية الشاعر الكبير، تلك التى تتمثل فى اختياره لهذا البحر الشعري المناسب بتفعيلاته (فاعلاتن فاعلاتن) وهو الرمل. ثم انتقائه لهذا الروى المنقبض الساكن. فالبيت يجرى فى سهولة ويسر ثم ينقبض عند النون الساكنة التى تسبقها ياء ساكنة هى الأخرى. وكأنما هى قبضة الموت قبل قبضة (السكون). وإذا كانت الأفكار التى تناولها الشاعر ليس فيها جديد: فالوالد ليس أول من مات، والموت كأس وكل ذائقها، والرسل تموت، والموت لغز ينفذ العلم والأطباء أيديهم أمامه عاجزين، ولا عاصم منه

وإن طال الأجل. إذا كان هذا معاداً ومكرراً. فإن الشاعر لا يلبث أن يعثر  
على معنى أحسن الدخول إليه والتعبير عنه، وربما يكون لب القصيدة  
ومحورها الفكرى:

أنا من مات، ومن مات أنا  
لقى الموت كالانا مرتين  
نحن كنا مهجة فى بدن  
ثم صرنا مهجة فى بدنين  
ثم عدنا مهجة فى بدن  
ثم تلقى جثة فى كفنين  
ثم نحيا فى (على) بعدنا  
وبه نبعث أولى البعثتين  
أنظر الكون؛ وقل فى وصفه  
كل هذا أصله من أبوين  
فإذا ما قيل: ما أصلهما؟  
قل: هما الرحمة فى مرحمتين  
فقدا الجنة فى إيجادنا  
ونعمنا منهما فى جنتين  
وهما العذر إذا ما أغضبنا  
وهما الصفح لنا مسترضيين  
ليت شعرى أى حى لم يدن  
بالذى دانا به مبتدئين  
وقف الله بنا حيث هما  
وأما الرسل.. إلا الوالدين

•••



ربما تكون الفكرة قد بدأت عند شوقي فى شكل مقابلات لفظية قد يعجب لها ويضطرب البلاغيون وبعض المتفلسفين (أنا من مات/ ومن مات أنا).. ربما .. لكنها لم تنته هكذا أبدا.. لقد انتهت إلى تصور جيد لجدلية الحياة - كما يراها شوقي، فى فهمه الواعى لفكرة الأبوة ودورها - يحيا الوالدان فى الابن.. لا فناء.. والأبوة رسالة وليست جناية.. بل يتعدى شوقي هذا المعنى الخارجى .. إلى الأعم والأشمل:

**فقدنا الجنة فى إيجادنا**  
**ونعمنا منهما فى جنتين**  
وهذان الأبوان:

**وقف الله بنا حيث هما**  
**وأما الرسل.. إلا الوالدين**



فكرة الخطيئة تلبس وجها جديدا مضيئا فيه التضحية والفداء، ثم يتوج الشاعر هذا المعنى النبيل حيث يضعهما فى مرتبة الرسل ويستثنيهما دونهم من الموت:

**وقف الله بنا حيث هما**  
**وأما الرسل.. إلا الوالدين**



فإذا كان ظهور الأنبياء على الأرض اختتم بوفاة الرسول (صلعم) فالأنبياء خالدون على الأرض، ليس بالديانات ولكن فى رسالات الوالدين. معنى جديد يضيقه شوقي وتوليد بارع. ولا يفوتنا هنا أن تشير إلى بيت شوقي فى الهمزية النبوية مخاطبا الرسول (صلعم):

وإذا رحمت فانت (ام أو أب)

هذان فى الدنيا (هما الرحماء)

إنهما الرحماء جميعا..

وفى رأى أن جزءا آخر من القصيدة جدير بالاهتمام. ذلك أنى أرى فيه شوقيا وقد وضع يده مبكرا على خاصية من الخصائص التى أجيد استعمالها فى الشعر الحديث. هذه الخاصية هى تناول جزئيات الحياة اليومية فى واقعية وبساطة فى التعبير. يلتقط شوقى فئات المأدبة الإنسانية المقامة عبر ساعات الزمن. وأجاد وصفها وتصويرها فى بساطة وعمق وتوظيفها فى نسيج القصيدة العام.

ما أبى إلا أخ فارقته

وده الصدق وود الناس مین

طالما قمنا إلى مآدبة

كانت الكسرة فيها كسرتين

وشربنا من إناء واحد

وغسلنا بعد ذا فيه اليدين

وتمشينا يدي فى يده

من رآنا قال عنا: أخوين

نظر الدهر إلينا نظرة

سوت الشر فكانت نظرتين

يكاد هذا الشعر يصبح نثرا لفرط واقعيته وبساطته. ويرقى لذروة الشعر - ربما - لهذه الأسباب أيضا، وليلاحظ القارئ الأفعال: (قمنا، شربنا، وغسلنا، وتمشينا) فضلا عن تلك الروح الشعبية الغريبة عن شوقى ذى الديباجة الشعرية الجزلة. والشاء - كغيره - لا يفوته أن ينسب الموت

إلى الدهر. بعد أن أعياه العجز والطلب:

**نظر (الدهر) إلينا نظرة**

**سوت الشر فكانت نظرتين**

وهو يعود - على عادة شوقي فى رثائه - ليسأل المرنى عن الموت  
ويشبهه بكأس (وهو تشبيه تقليدى موروث):

**يا أبى.. والموت كأس مرة**

**لا تذوق النفس منها مرتين**

ويعد والده بجمود عينه عن البكاء:

**لا تخف بعدك حزنا أو بكا**

**جمدت منى ومنك اليوم عين**

**انت قد علمتني ترك الأسى**

**كل زين منتهاه اليوم شين**

وهكذا يلتقى شوقي مع شاعرينا السابقين فى رؤيتهم لفساد الحياة  
برحيل الأب والنسليم بلغز الموت وعجز الإنسان أمامه. وينفرد شوقي عنهما  
ببعض التجلد والموضوعية. تلك الواقعية التى جعلته لم يطل الوقوف أمام  
القبر فهو يعرف أن الحياة تسير ولا تتوقف برحيل أحد وأن القبر - على  
حد تعبيره فى مجنون ليلى - وإن أودعناه أثمن ما عندنا:

**يُزار كَثِيرًا، فدون الكَثِير**

**فغبا، فيُنسى، كان لم يُزرا!**

**فى انتظار العودة المستحيلة:**

من التسليم بواقعية الموت إلى الهروب برومانسية مفرطة فى مواجهته  
يكون موقف نزار قبانى لدى رحيل والده. فإذا كان المعرى وأبو ماضى

وشوقى سلموا تسليما مطلقا بموت الوالد. فإن نزار قباني يرفض هذا الموت  
 رفضا مطلقا فى قصيدته (أبى..<sup>(٨)</sup>) وهى من الشعر العمودى الذى يجيده  
 نزار فضلا عن براعته فى الشعر الحديث (ذى التفعلية). أول ما يفاجئنا به  
 نزار هذا الاستفهام الاستنكارى والتساؤل الذى يومض للحظة ثم ينطفئ  
 بالنفى القاطع:

أمات أبوك؟

ضلال أنا لا يموت أبى

ففى البيت منه روائح رب، وذكرى نبى\*

لا يكتفى الشاعر بالنفى، بل يتقدم فى سرد دلائل هذا النفى ويقدم لنا  
 عالم الأب وهو عالم حى فى حلم نزار الهروبى:

هنا ركنه، تلك أشـيـاؤه

تفتق عن الف غصن صبى

جريدته، تبغـه، مُتْكَاه

كان أبى بعد لم يذهب

وصحن الرماد، وفنجانـه

على حاله بعد لم يشرب

ونظارتاه، أيسلو الزجـا

ج عيونا أشف من المغرب

بقاياـه فى الحجرات الفسا

ح بقايا النسور على الملعب

أجول الزوايا عليه فحيث امر،

أمر على معـشـب

أشد يديه، أميل عليه  
أصلى على صدره المتعب  
أبى لم يزل بيننا،  
والحديث حديث الكئوس على المشرب  
يسامرنا، فالدوالي الحبالى  
توالد من ثغره الطيب  
أبى خبرا كان من جنة  
ومعنى من الأرحب الأرحب  
وعينا أبى ملجأ للنجوم  
فهل يذكر الشرق عينى أبى؟  
بذاكرة الصيف من والدى  
كروم.. وذاكرة الكوكب

بهذا الإيقاع (الراقص!!) من بحر المتقارب ترفض القصيدة شكل الرثاء  
التقليدى، بتأودها فى موسيقىة هذا البحر، كما يرفض مضمونها واقع موت  
الأب. فتتسق مع رفض الشاعر للموت.. فهذا الأب ما زالت أشياءه تنبض  
بالحياة وفنجان قهوته لم يشرب وجريدته الصباحية على حالها والقصيدة  
تتميز على سابقاتها بالصورة الفنية الجيدة التى تشهد لنزار بالشاعرية  
المتألقة:

ونظارتاه، أيسلو الزججا  
ج عيوننا أشف من المغرب  
بقاياها فى الحجرات الفساد

ح بقايا النفسور على الملعب  
على أن الموت يتسلل - رغم أنف نزار - إلى القصيدة ولننظر إلى قوله:  
(كان) التى تعترض الحلم الهروبى .. حيث يقول:

أبى (خبيرا كان) من جنة  
ومعنى من الأرحب الأرحب  
وعينا أبى ملجأ للنجو  
م .. فهل (يذكر) الشرق عيني أبى؟  
إنه الموت الحقيقية الأولى التى لا يمكن نفيها .. لا يكابر نزار فى  
مواجهتها إلا من منطلق حبه الشديد لذلك الوالد الذى يصفه نزار - نثرا -  
فيقول:

(.. إذا أردت تصنيف أبى، أصنّفه دون تردد بين الكاشرين لأنه أنفق  
خمسین عاما من عمره يستنشّق روائح الفحم الحجري، ويتوسّد أكياس  
السكر والواح خشب السحاحير وكان يعود إلينا من معمله فى زقاق معاوية  
كل مساء تحف به مياه المزاريب الشتائية كأنه سفينة مثقوبة. وإنى لأتذكر  
وجه أبى المطفى بهباب الفحم وثيابه المبقعة بالبقع والخروق. كلما قرأت كلام  
من يتهموننى بالبرجوازية والانتماء إلى الطبقة المرفهة والسلالات ذات الدم  
الأزرق..)<sup>(٩)</sup>.

أبى يا أبى إن تاريخ طيب  
وراءك يمشى فـ لا تعجب  
على اسمك نمضى فمن طيب  
شهى المجانى إلى طيب  
حملك فى صحو عيني حتى  
تخيل للناس أنى أبى  
أشيلك حتى بنبرة صوتى  
فكيف ذهب ولا زلت بى؟  
إذا فلة الدار أعطت لدينا  
فسفى البيت ألف فم مذهب

## فتحنا لتموز أبوابنا

### فلا بد في الصيف يأتي أبي

بهذه الغنائية الشفافة؛ وهذا التأكيد - المستحيل - يختتم نزار قصيدته،  
ولسوف ينتظر، وأبوابه مفتوحة؛ سينتظر طويلاً.. وهيئات..!!

### شاعر الواقع والاعتراف:

بعيدا عن نافذة نزار المفتوحة وشرفته التي تنتظر عودة الأب الراحل،  
تشمخ قصيدة ناحلة لشاعر رقيق، وهي على نحوها تتحدى بواقعيته  
وصدقها حلم نزار الهروبي، بل وأحلام الشعراء الهائلة. إنها لذلك الشاعر  
الشاب الذي قال عن والده: (.. أنه أفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلمني  
أن الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في هذا الوجود..) (١٠).

وحين توفي هذا الوالد لم يستطع الشاعر أن يرثيه، وأصيب بمرض  
خطير أدى إلى موته عام ١٩٣٤.. وقبل وفاته كتب الشاعر التونسي أبو  
القاسم الشابي هذا (الاعتراف) (١١) الواقعي الخطير:

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي

ومشاعري عمياء بالأحزان

أنى ساظما للحياة، واحتسى

من نهرها المتوهج النشوان

وأعود للدنيا بقلب خافق

للحب والأفراح والألحان

ولكل ما في الكون من صور المنى

وغرائب الأهواء والأشجان

حتى تحركت السنون، وأقبلت

فتن الحياة بسحرها الفتان

فإذا أنا زلت طفلاً مولعاً  
بتعقب الأضواء والألوان  
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها  
ضرب من البهتان والبهتان  
إن ابن آدم في قرارة نفسه  
عبد الحياة الصادق الإيمان

قصيدة الشابي مثل قصيدة شوقي كتبت بعد فترة من وفاة الوالد،  
ثمانية أبيات لا غير مشحونة على واقع التجربة وصدق المعاناة أكد الشاعر  
فيها على زيف العهد الرومانسي الذي يقطعه الشعراء المثكلون على أنفسهم  
في إغماء الحزن والمشاعر عمياء عن استبصار المستقبل. يؤكد الشاعر أن  
مرارة الواقع وشهد الحلم وجهان لعملة واحدة هي الحياة. وأن الإنسان  
مهما جرفه الحزن بعيداً فلا بد أن يعود بقلب خافق ليعب من نهر الحياة  
المتوهج النشوان.. إذن فالمقاومة عبث والهروب أيضاً.. حيث لا جدوى من  
الصمود أمام التيار الجارف للأضواء والألوان لأن ابن آدم:

.. في قرارة نفسه  
عبد الحياة الصادق الإيمان

شعر جديد.. ومذاق آخر:

كان على شعر التفعيلة، في إطاره الجديد أن يخوض معركة الكبرى  
لتحقيق حضوره في الساحة الأدبية المعاصرة، كان عليه أن يخوض معارك  
فنية فرعية حول الموضوعات الشعرية (الأغراض على حد تسمية القدماء).  
وكانت القصيدة التقليدية في إطارها النمطي أرحب استيعاباً للبكاء والتفجع  
- المطلوبين في الرثاء - حيث يكون البيت الشعري - الذي هو وحدة القصيدة  
- أكثر ملائمة لشحنه بالعبارة والمثل والعظة والحكمة:



أيتها النفس أجملى جزعا  
إن الذى تحذرين قد وقعا

...

فاختر لنفسك بعد موتك ذكرها  
فالذكر للإنسان عمر ثان

...

وإذا المنية أنشبت أظفارها  
الفيت كل تميمة لا تنفع

وكان على الشعر الحديث أن يقفز - فيما قفز - على هذا الحاجز  
وكان عليه أن يحتال على ذلك بحيل فنية جديدة لم تكن مطروقة السبل قبل  
ذلك، وإلا ففيم التجديد؟

فى عمل فنى مثل (شنق زهران) <sup>(١٢)</sup> لصلاح عبد الصبور كانت  
الخيوط الدرامية، وعنصر الحكاية وترديد صيغة الراوية: (كان يا ما كان)  
من تلك الحيل الفنية البارعة للالتفاف على سطحية التناول للحدث من  
الخارج. وكان الحدث هنا مستوحى من تاريخ مصر المعاصرة. وهو ليس  
حدثا ذاتيا ألم بالشاعر وهى أيضاً ليست بقصيدة رثاء عادية. وإنما هى  
بكائية ذات مذاق جديد.

ولما كان الشعر الحديث خروجاً على الشكل القديم.. كان على شاعر  
مثل أحمد عبد المعطى حجازى أن يتناول رثاء والده تناولاً غير تقليدى  
وكانت قصيدته (رسالة إلى مدينة مجهولة) <sup>(١٣)</sup> هى نفثته الحزينة التى شيع  
بها ذلك الوالد الريفى البسيط ولعل اسم القصيدة يعكس هنا ثنائية التضاد  
فالوالد (الريف) فى مواجهة الابن (المدينة). وهى قصيدة رثاء لعالم بكر  
وليس لوالد الشاعر فقط، وكل صورها ومفرداتها تشيع عالماً يغيب عن  
عينى الشاعر.. بعيداً كشراع مثقوب. حيث الريف ببيكارته وحيث المدينة  
تفض تلك البكارة فى قسوة بشعة. ومن الحيل الفنية الحديثة أن تتخذ

القصيدة - كما هو واضح من عنوانها - شكل الرسالة. ومن هنا تأتي قربة  
المأخذ قوية التأثير حيث تكون قادرة تماماً على التواصل بين الإبن الجريح  
والأب الفقيد. بالتالى تكون قادرة على استيعاب هذا الشعور الفياض بما فيه  
حرارة البث والألم.

والرسالة إلى مدينة (مجهولة السبيل) .. (مجهولة العنوان والدليل) إنها  
مدينة الموت.. عنوان الفقيد الجديد والرسالة حزينة .. لأنها .. (سترتضى أمام  
هذه المدينة.. بغير رد..) بعد إفتتاحية باكية.. يبدأ الشاعر نزيهه. فيقول:  
أبى..

وكان أن ذهبتي دون أن أودعك..  
حملت لحظة الفراق كلها معك..  
حملت آلام النهاية، احتبست أدمعك..  
أخفيت موجعك..  
فوجهك الحمول كان آخر الذى حملته معى..  
يوم افترقنا.. لا يزال مضجعى..  
يراك.. حينما أراك.. بسملة على الظلام..  
تنير لى مسالك الأيام..  
وتفرش الطريق بالسلام.. بالسلام..

وكما حمل الوالد آلام النهاية كلها معه عند الرحيل. كان الشاعر يحمل  
وجه الوالد الصابر معه فى رحلة الحياة. ويصطحب الشاعر والده إلى عالم  
الحياة/ عالم الموتى.. كلاهما على رحيل وسفر..

أبى..  
وكان أن عبرت فى الصبا البحور  
رسوت فى مدينة من الزجاج والحجر  
الصيف فيها خالد، ما بعده فصول..

بحثت فيها عن حديقة فلم أجد أثر..  
وأهلها تحت اللهب والغبار صامتون  
ودائماً على سفر..  
لو كلموك.. يسألون: كم تكون ساعتك؟؟  
مضيت صامتا موزع النظر  
رأيتهم يحترقون وحدهم فى الشارع الطويل  
حتى إذا صاروا رماداً فى نهايته..  
نما سواهم فى بدايته..  
وجدت ساق الوليد فوق جثة الفقيد..  
كان من مات قضى ولم يلد..  
ومن أتى.. أتى بغير أب..

من هنا تخرج القصيدة الحديثة إلى آفاق رحبة، بعيدا عن محدودية  
المباشرة وتقليدية التناول فتضع يدها على أبعاد الملحمة الإنسانية وعذابات  
البشرية فى صراعها المرير وجدلية الحياة فى ديمومتها الخالدة:

حتى إذا صاروا رماداً فى نهايته  
نما سواهم فى بدايته

وجدت ساق الوليد فوق جثة الفقيد..

أين هذه الحميمية والحرارة من قول أبى العلاء بلسان الواعظ المعتبر:  
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد...!!  
أو من قول المتنبي:

يدفن بعضنا بعضا، ويمشى

أواخرنا على هام الأوالى..؟؟

ولا يكتفى الشاعر بحكمه السريع على أقرانه من الأحياء، وهو يتجول  
فى رحابة المسألة.. سرعان ما يحس بقسوة هذا الحكم. فهم إخوان الألم

والشقاء وهم الضحايا مثله.. المؤلفة قلوبهم على الأحزان..  
فجعت فيها يا أبى.. كرهتهم فى أول النهار  
وفى المساء قارب الظلام بين خطونا  
رأيتهم.. واروا وراء الليل موتاهم  
وانهمرت دموعهم واخضل مبكاهم  
وامتدت الأيدي، وأجهش الطريق بالبكاء  
قلت لهم:  
يا أصدقاء  
عبرتُ فى الصبا البحور  
حملت كأس عمرى الصغير فارغا  
لمن يصب فيه قطرتى سرور  
طفت بدور  
طردت مرة.. وقيل لى تفضلُ مرتين  
مر الزمان.. كل ليلة سنة  
لم اغفُ فيها غير ساعة..  
وغفوة الغريب لا تطول  
وفى السهاد يرحل الخيال.. يعرف الكثير  
زماننا بخيل..  
أواه.. نحن لا نريد غير أن نظل..  
نريد ما يقيم ساقنا لنشهد الحياة..  
ونعبر البحور خلف حلمنا الضئيل  
ونعرف الغربة فى الصبا والخوف أن نجوع فى الصباح  
لكنما زماننا بخيل  
يبخل حتى بالوداع حينما يفرق الطريق بين صاحبين  
مات أبى يا أصدقاء..

الغرباء ودعوه، بينما أنا هنا  
لمحتهم، فى الضفة الأخرى ظلالا، فى غروب الشمس تنحنى،  
على القبور،  
وما وجدت زورقا يُقلنى،  
لم أستطع وداعه فى يومه الأخير..

لا يفوتنا أن نلفت النظر إلى الأبيات الأخيرة من هذا المقطع التى تشمل  
لوحة فنية لموكب جنائزى رهيب.. ربما شاهدناه منفذاً على شاشة السينما  
فى فيلم (المومياء) لشادى عبد السلام. حيث تبدو الشخصوص فى القصيدة  
(ظلالا فى الضفة الأخرى).. وكأنهم مرسومون بـ (السلويت).. ولنلاحظ الجو  
العام (فى غروب الشمس).. وبطريقة (الفلاش باك) بلغة السينما يعود  
الشاعر فيذكر لوالده رفته وحنانه. فهذا الوالد الفقيد لا يفتأ يجئ لولده –  
الذى يصر على أنه ما زال طفلا – هذا الوالد يطل من عالم الموت بإيماءة ..  
أو فى لحن تائه فى الليل يجئ.. أو عبر طفل تائه يسير وحده – وهى من  
الحالات الإنسانية التى تفجر المشاعر وتصهرها وجدانيا – ويشكو الشاعر  
لأبيه الامة التى ما زالت أكبر منه. وحين تثقل الأحزان روحه يدعوه والده،  
وكالعادة يستجيب الوالد الشفوق وتكون هذه اللوحة الحركية العذبة التى  
أجاد الشاعر رسمها:

ومثلما كنتَ تعود فى أماسى الشتاء

تأتى إلى..

عباعتك..

لا تفتأ الرياح تستثيرها..

تشدها إلى الوراء..

كأنها شراع مركب يصارع الأنواء..

ووجهك الحمول يفرش الرضا على العناء..

وفى يديك من نبات الأرض ما جمعته

وفى اللسان رفرفت تحية المساء..  
ومثل غيم فى لياالى الصيف، يترك السماء للقمر  
تنقشع الأحزان من روى وأحضنك  
بجفن عيني أحضنك..  
وأستضيفك المساء كله.. حتى السحر..

هذه الزيارة الحانية، وعباءة الشيخ الطيب تتجاذبها الريح كشراع  
مرهق من سفر بعيد، والبساطة فى - (وفى يديك من نبات الأرض ما  
جمعتة).. وتحية المساء التى ترفرف على شفة الشيخ.. وتزداد القصيدة  
اقترابا وتوهجا.. حين يستسمح الشاعر والده ويخاطبه بلهجة المعتذر عن  
عصيانه وأوامره ووصاياه.. فقد استطاعت المدينة أن تغزوه.. ولم يستطع  
الصمود لأكثر من ذلك..

أبى..  
أقول يا أبى عذرا  
وقعت فى هوى بُنيّة هنا  
وأنت كم حذرتنى من نسوة المدن  
لكننى رأيتها كأنها أنا..  
فقيرة، حزينة، مات أبوها يا أبى  
وتقرأ الشعر  
أحببتها.. لكن طريقها طويل..  
وكل أحبابى طريقهم طويل..

ونظن أنه استطاع إلى حد بعيد اقناع والده بهذه الفتاة!!.. فهى مثله:  
فقيرة حزينة. وتقرأ الشعر.. وهى يتيمة مثله مات أبوها.. ولعل من المفيد هنا  
أن نلفت النظر إلى استعماله لفظ (بُنيّة) وهى لفظة درج البسطاء الريفيون  
على استعمالها فى وصفهم للبنات الصغيرة البسيطة.. ولعله باستعمالها -  
بما فى ذلك من صدق وواقعية وبساطة .. أراد أن يستميل الوالد ويطمئنه أنه

ما زال ينطق اللغة نفسها .. وتقرب القصيدة من نهايتها:

زماننا بخيل

والله كم أوحشتنى .. سنه

مضت على دون أراك

وسوف تنقضى سنة

أخرى.. وتنقضى سنين

ولا أراك..

وربما أنساك..

بواقعية مرة يقرر الشاعر هذه الحقيقة التى أسماها الشايبى:  
(اعتراف) .. وحين يصل الشاعر إلى حافة البحر الكبير.. النسيان.. تلفظ  
القصيدة أنفاسها الأخيرة.

رسالتى إليك يا أبى حزينة فى البدء والختام..

فإن أهاجت شوقك القديم للكلام..

هب لى لقاء فى المنام..

.. وكما انتظر نزار قبانى فى شرفته المفتوحة حضور والده؛ يبقى  
(الحلم) أملا فى اللقاء عند حجازى.. وربما كان ذلك أكثر واقعية وأقرب إلى  
التحقق والحدوث. إلا أن الشاعر لا يعول عليه كثيراً.. فالحلم باطل الأباطيل  
.. أمام واقع كاسر.. هو الموت.

رثاء والد .. لم يمته!!

لم يكن والد الشاعر صلاح عبد الصبور قد توفى حين كتب الشاعر  
قصيدته (أبى) المنشورة فى ديوانه الأول (الناس فى بلادى). وحين تعرض  
الناقد الأستاذ محمود أمين العالم للقصيدة فى مجلة (الآداب) البيروتية -  
على ما أذكر - ألمح إلى ذلك وتناول قضية التجربة الشعرية بين الواقع  
والخيال<sup>(١٤)</sup>.

والقراءة الأولى لهذه القصيدة تستبعتها من دائرة بحثنا الذي يشمل القصائد التي نُظمت في رثاء الأب. ذلك أن هذه القصيدة لا تتعرض لرثاء والد الشاعر. إنما تجول في آفاق إنسانية أرحب تتخذ من مصرع إنسان ما.. في ظروف ما.. موضوعا لبكائية على لسان (ابن ما..). فخصوصية العلاقة وحميمية الحدث تظل معلقة في الفراغ. وإن جهد صلاح عبد الصبور في سد هذه الثغرة بمجموعة من التقارير والصور الواقعية البسيطة مؤكداً على الحدث.. يبدأ صلاح عبد الصبور قصيدته:

وأتى نعى أبى هذا الصباح  
 نام (فى الميدان) مشجوج الجبين  
 حوله (الذؤبان تعوى والرياح)  
 و(رفاق) قبلوه خاشعين  
 وب (أقدام) تجر (الأحذية)  
 و(تدق الأرض) فى (وقع منفرد)  
 (طرقوا الباب) علينا

وأتى نعى أبى..

قبل أن نشرع فى تأمل القصيدة، والغوص فى أعماقها نلفت النظر إلى التأكيد على استبعادها كقصيدة رثاء بالمعنى الذى تناولنا به سابقاتها فى هذه الدراسة. وحتى لا نقع فى براثن الفهم الضيق لمفهوم الرثاء، وامتدادا لما رآه الشاعر من فهم رحب وإنسانى لبكائية إنسان راحل.. قد يكون بطلا مناضلا فى ميدانه - كما يبدو من نص القصيدة - كأن يكون جنديا مثلاً. نرى أنه من المفيد - بل من الأجدى - أن نتناولها بأسطين بين يدي القارئ هذه الإضاءة حول تلك القصيدة.

وبعيدا عن المعلومة التى سبق أن أوردناها عن والد الشاعر وامتداد حياته إلى عهد قريب. يستطيع القارئ، وبجهد بسيط، أن يدرك من خلال



مفردات القصيدة وأسلوبها أن هذه القصيدة لم تكتب في والد الشاعر. وإلا ما هو (الميدان) الذي نام فيه والد الشاعر وهو (مشجوج الجبين) !!؟؟ .. ومن هم (الرفاق) الذين قبلوه خاشعين؟.. يمكن أن تكون هذه البكائية - على سبيل المثال - لأحد المناضلين.. سقط شهيدا في ميدان القتال. التف حوله الرفاق في العراء.. بينما قام بعض من رفاقه بنعيه إلى أهله.. ذات صباح.

فإذا أضفنا إلى هذا. أن المناخ الفكري والثقافي في أوائل ومنتصف الخمسينيات، زمن كتابة القصيدة، كانت تسود فيه فكرة الدعوة للسلام، وعلت فيه الأصوات بنذ الحروب والتخويف والتبصير بأضرارها ومساوئها. إذ كانت الحرب مشتعلة الأوار في شرق آسيا وكوريا وكانت أخبار الضحايا والشهداء وصور المأسى تملأ وسائل الإعلام. كذلك كان هناك شهداء مصريون لم تجف دماؤهم بعد في معارك القناة قبل الجلاء. وكانت هناك جماعات تُؤسّس للنداء بالسلام مثل (جماعة أنصار السلام). وبعد ذلك كله كانت هناك آثار أدبية إبداعية تدعو للسلام ونبذ الحرب. ولعل قصيدة الشاعر الراحل عبد الرحمن الشرقاوي - الذي كان صديقاً لصلاح عبد الصبور - (رسالة من أب مصري إلى الرئيس ترومان) تلك القصيدة الذائعة الصيت ربما تسلّلت إلى وجدان صلاح عبد الصبور فكانت قصيدة (أبى) التي ربما تناول فيها الشاعر موضوعه الحرب وأثارها دون أن يصرح بذلك - لاعتبارات رآها الشاعر آنذاك - ومن خلال معالجة فنية راقية وبعيدا عن مزلق المباشرة كتب الشاعر قصيدته.

فنيا نعود إلى القصيدة، ولا نستطيع أن نتجاهلها، يُرفع الستار عن مشهد الوالد المشجوج الجبين، والرفاق يقبلونه في خشوع. تنتقل عينا الشاعر (الكاميرا) إلى أقدام تجر الأحذية، وأذناه إلى الإيقاع المنفر على الأرض يصك السمع والطرقات على الباب، ثم تكون المفاجأة.. ويكون النعي.

البكائية هنا، رغم عدم وقوع الموت كحدث حميم بالنسبة للشاعر، تتميز بإيقاع حزين يأتيها من إيقاع بحر الرمل وربما تشبعت القصيدة بالحزن

الشجى الذى كان سمة طاغية على شعر عبد الصبور. وربما تسلل إليها  
الحنن من خلال التصوير الصادق لهموم القرية المصرية ومشاعر أبنائها من  
الريفيين البسطاء، وربما تسرب هذا الحزن من اسقاطات الشاعر لشاعره  
وأحاسيسه على عناصر الطبيعة.. يقول صلاح:

كان فجرا موعلا فى وحشته  
مطر يهمى وبرق وضباب  
ورعود قاصفة  
قطة تصرخ من هول المطر  
وكلاب تتعاوى  
مطر يهمى وبرق وضباب  
وأتيانا بوعاء حجرى..  
وملائنا ترابا وخشب  
وجلسنا  
نأكل الخبز المقدد...  
وضحكنا لفكاهه  
قالها جدى العجوز  
وتسلل..  
من ضياء الشمس موعد..  
فتفاءلنا .. وحيينا الصباح..  
وبأقدام تجر الأحذية  
وتدق الأرض فى وقع منفرد  
طرقوا الباب علينا  
وأتى نعى أبى

إن تتابع الصور بطريقة المونتاج السينمائى وتقاطعها - بحدة - يعمق  
الإحساس بالصورة. وبالتالي تصبح جزئياتها قادرة على تفجير الشعور

بقسوة المفاجأة (التفاضل بالصباح والأشعة المتسللة فى موعدها الذى لا يتأخر والذى يفرح له القرويون) ثم مجئ الأقدام المنهكة التى تدق الأرض (الإيقاع المنفر) ويكون طرق الباب (وما يحمله هذا الطرق المفاجئ لساكنى الدار من نبأ حزين..). يمهّد الشاعر لهذه الترتيلة الجنائزية الإيقاع فى ختام كل مقطع حيث ينتظر الموت مهما أوغلنا فى الهرب.. ولججنا فى الحياة..!! هذا الموتيف الحزين الذى يعنى التسليم بالقضاء.. بحيث يدور كل مقطع - كالمغزل - حول نفسه فى دوائر متداخلة .. تضيق .. وتضيق .. حيث ينتهى إلى هذه البيّرة السوداء القاسية:

وبأقدام تجر الأحذية  
وتدق الأرض فى وقع منقّر  
طرقوا الباب علينا  
واتى نعى أبى.

ويمضى الشاعر فى بكائيه، ويذكر، ككل مغترب، وكما ذكر حجازى قبله وكلاهما نزح إلى القاهرة من ريف مصر، كيف بدأ رحلة الفراق والاعتراب عن والده - وهو يمر سريعا بهذا الموقف ولا يبدع فيه كحجازى - وكيف خنق الدمع لفظة (يا أبى) فوق شفاهه الصغيرة.. ثم

ثم جمعتُ حياتى  
وهى بعضٌ من أبى..

ثم يتسامل:

لِمَ يبدو الموتُ فى منزلنا  
قدراً لا يخطئ..؟

ويتناول الشاعر جزئيات حياته، ويعود بالذاكرة إلى دعايات ذلك الوالد

الريفى القوى المزمو بقوته:

وأبى يثنى ذراعه  
كهزقل  
ثم يعلو بى إلى جبهته  
ويماغى  
تارة رأسى وطوراً منكبى

إنها ذكريات حميمة تصهر المشاعر فى لحظة وجدانية عارمة.. ويا لها  
من فجيعة حين يفيق الوجدان على كارثة الفقد..

جئْتُ الريحُ على نافذتى  
فى مساء.. فتذكرت أبى..  
وشكت أُمى من علتها  
ذات فجر.. فتذكرت أبى..  
عقر الكلب أخى..  
وهو فى الحقل يقود الماشية  
فبكينا..  
حين نادى: يا أبى..

.....

القطيع..  
غاب راعيه وطالت رحلته  
وهو فى بيداء لا ظل بها..

وبهذه اللقطات المتتابعة السريعة. وبتلك الجمل البرقية القصيرة المكثفة،  
وبتلك (الموتيفة): وبأقدام تجر الأحذية ... إلخ. ينهى الشاعر قصيدته الباكية  
الرائية لوالد.. لم يمت.. حتى تاريخ كتابة هذه القصيدة!!

## هوامش:

- (١) العملة لابن رشيق - ج ٢ - باب الرثاء.
  - (٢) لعل هذه الصورة: (فم الطعنة النجلاء) استهوت شعراء كباراً معاصرين.. ويمكن أن تكون هذه الصورة عند أبي العلاء هي التي أوجت لشوقي قوله في رثائه لعمر المختار:  
(جرح يصبح على المدي) وضحية  
تلمس الحورية الحمراء  
ومن قول شوقي، وقبله المعري، خرج قول الشاعر العربي الكبير محمد مهدي الجواهري:  
أعلم أم أنت لا تعلم  
بأن (جراح الضحايا لم)
  - (٣) ديوان (الخمائل) دار العلم للملايين ص ١٠٩.
  - (٤) ربما كان تأثير أبي العلاء في أبي ماضي لا ينف خلال هذه القصيدة عند المعارضة - بما تفرضه على الشكل - فقط بل يتعدى ذلك إلى التركيبات اللغوية داخل القصيدة أيضاً . دليلنا على ذلك استعمال أبي ماضي لـ (جمعيات بلا طعن) ومن المعروف أن هذا التعبير استعمله أبو العلاء حين استمع إلى نموذج من شعر ابن هانئ الأندلسي، وبالتحديد قصيدته التي مطلعها:  
(أصاغت فلقت وقع أجرد شيطم .. إلخ) فقال: (أسمع جمعية ولا أرى طحنا) .. وقد صدر الاستعمال عن اللاوعي في ذهن الشاعر أبي ماضي .. وإذا راجع القارئ القصيدتين سيجد أن ٩٥٪ من قوافي أبي العلاء مكررة في قصيدة أبي ماضي بأسلوب التناول نفسه.
  - (٥) خصائص الأسلوب في الشوقيات - محمد الهادي الطرابلسي - منشورات الجامعة التونسية ص ٢٤٠.
  - (٦) ديوان شوقي - ج ٢ شرح وتعليق د. أحمد الحواشي ص ٢٠٣.
  - (٧) مقدمة الجزء الأول من الشوقيات، سنة ١٨٩٨.
  - (٨) المجموعة الشعرية الكاملة لنزار قباني - ج ١.
  - (\*) قلنا: إن القصيدة من الشعر العمودي ولكن ثم ملاحظة لابد من إثباتها؛ لا تغيب عن القارئ الحصيف أو الدارس للمهتم؛ وهي أن الأبيات الأولى من القصيدة؛ إذا قرأناها بعيداً عن (السطر الشعري الحديث) ستبدو كذلك:  
أما أبوك؟ ضلال أنا، لا يموت أبي  
ففي البيت منه روائح رب، ونكري نبي.
- وسنلاحظ أن كل بيت من هذين البيتين تتقصد تفعيلات من تفعيلية بحر (المقرب) الذي يأتي في شكله التام بتكرار (فعولن) ثمان مرات مقسمة على شطري البيت. بينما يأتي البيتان المذكوران بتكرار التفعيلة ست مرات في البيت. أي أن البيت يتكون من ست تفعيلات (فعولن). وهو بهذا الشكل يمثل إحدى صورتين مجزوء هذا البحر. [المزيد من المعلومات يراجع كتاب: موسيقى

- الشعر بين الاتباع والإبتداع/ د. شعبان صلاح ص ٣٦ .[١٠].
- (٩) قصتي مع الشعر - نزار قباني، ص ٢٩ ، ٣٠ .
- (١٠) كتاب الخيال الشعري عند العرب - الإهداء.
- (١١) ديوان: أغاني الحياة - الدار التونسية للنشر ص ٢٥٧ .
- (١٢) ديوان: الناس في بلادى لصلاح عبد الصبور.
- (١٣) ديوان: مدينة بلا قلب لأحمد عبد المعطى حجازي.
- (١٤) هاشم والد الشاعر الراحل حياة طويلة. ويعد كتابة هذه القصيدة بأكثر من عشرين عاماً توفى والد الشاعر في أوائل الثمانينيات، وقبل رحيل ابنه الشاعر بعام على وجه التقريب...
-

## إضاءات

- نشرت هذه الدراسات كلها في الصحف والدوريات المصرية والعربية؛ وفيما يلي - عونا للقارئ وتوثيقاً - بيان باماكن النشر وتاريخه:

المقال أو الدراسة	مكان النشر	العدد والتاريخ
١ - طه حسين والانتحال في الشعر.	جريدة صوت الكويت.	٨ / ١ / ١٩٩٢.
٢ - ليس نقداً.. ولكن!!	جريدة الجمهورية العراقية.	١٨ / ١ / ١٩٨٥.
٣ - ملامح نفسية للجندى الاسرائيلي.	مجلة قضايا عربية.	١١ و ١٢ فبراير ومارس ١٩٧٦.
٤ - شعرنا العربي الحديث ودعوة للنقد.	» » »	٩ ديسمبر ويناير ٧٥ / ١٩٧٦.
٥ - دالية المتنبي.. قصيدة المديح قصيدة للعالم.	» الحرس الوطني السعودية.	١١٨ و ١١٩ يونيو و يوليو ١٩٩٢.
٦ - بشارة الخوري: الهوى والشباب.	» » »	١٠٥ مايو ١٩٩١.
٧ - عمر أبو ريشة: كبرياء الألم.	» » »	١٢٢ أكتوبر ١٩٩٢
٨ - نزار قباني: بين قضايا المجتمع والمرأة	مجلة قضايا عربية.	٦٠٥ أكتوبر ونوفمبر ١٩٧٧
٩ - المقالح : الكتابة بسيف على بن الفضل.	» فصول القاهرية.	العدد الرابع / المجلد الأول يوليو ١٩٨٧.
١٠ - صلاح جامين عبث الحلم و سطوة الإبداع.	» فنون العراقية.	٢٩٥ مايو ١٩٨٧.
١١ - شوقي والحياة: مصاير الأيام.	» الطليعة الانبيية العراقية.	٤ أبريل ١٩٨٦.
١٢ - صلاح عبد الصبور: تحولات الشاعر.	» المسرح القاهرية.	١٤ سبتمبر ١٩٨٣.
١٣ - الحس الساخر في شعر صلاح عبد الصبور.	» فصول القاهرية.	العدد الأول / المجلد الثاني أكتوبر ١٩٨١.
١٤ - الأبناء يحصدون الشعر.	» الحرس الوطني السعودية.	١٣٩، ١٤٠ مارس وأبريل ١٩٩٤.

● مقال [دراسة الأدب العربي .. والهزم المقلوب] يناقش ما اثاره د. عبد القادر القط في حديث اجراه معه الأستاذ جهاد فاضل ونُشرَ بمجلة (افاق عربية) العراقية ولم يتسن لي الحصول على نص الحديث لإثباته وفق المقال توثيقاً وإنصافاً.

● مقال [.. ليس نقداً.. ولكن] كُتِبَ ونُشِرَ في بغداد. ولهذا المقال قصة لا بد من توضيحها. فقد نشرت جريدة الجمهورية العراقية بعدها الصائِر يوم الجمعة ١١ / ٨ / ١٩٨٥؛ وكنت حديث العهد بالعمل في بغداد بمجلة افاق عربية؛ مقالاً بقلم الدكتور . على جواد الطاهر يرثى فيه الأستاذ الناقد مصطفى عبد اللطيف السحوتى؛ ويقدّر ما اثنى علىّ الراحل، إلا أنه في معرض الإشادة بموقفه من الأدباء والشعراء العرب، تجنّى على الناقد والأنباء المصريين واتهمهم بأنهم لا يكتبون إلا عن أنفسهم ولا يرحبون بأى إبداع عربى آخر!!.. [كم كنت أود لو كان مقال د. الطاهر متوافراً وقت جمع مادة هذا الكتاب لإثباتها بين يدي القارئ ولكن يكفى الإشارة إلى المصدر والتاريخ.. في الوقت الحالى..] المنى هذا الحيف الذى لحق بالنقد المصرى ورجاله باتهامهم فى قوميتهم وموضوعيتهم.. وكان هذا المقال الذى أتركه بين يدي القارئ.. بقى أن أذكر للقارئ أن الناقد العراقى الصديق حاتم الصكر والأستاذ ماجد السامرائى مسؤول الصفحة الأدبية بجريدة الجمهورية آنذاك، وهما من تلاميذ الدكتور الطاهر؛ أشفقاً علىّ من نشر هذا الرد.... ولكن بعد نشره ولقائى بالدكتور الطاهر الذى تقبل ما جاء بالمقال وأثنى علىّ ما جاء فيه؛ بعد هذا؛ أكبر هذا الموقف ..

●



## المحتويات

### — إهداء

٧ — مقدمة ، أسفه إنه زمن الشعر أيضاً .....

- ● القسم الأول ، نبش في الذاكرة أقيانيا وهموما ..... من ١٣ - ٧٨
- طه حسين : الانتحال في الشعر ..... ١٥
- دراسة الأدب العربي والهرم المقلوب ..... ٢٣
- شعرنا العربي الحديث ودعوة إلى الدراسة والنقد ..... ٣٣
- ليس نقداً ... ولكن !! .....
- الجندي الإسرائيلي :
- ملامح نفسيه في مرآة محمود درويش ..... ٥٩
- النبش في ذاكرة الشعر ..... ٧١

- ● القسم الثاني ، تقاسيم (وتريات مرثية) ..... من ٧٩ - ٢٩٢
- دالية المتنبي : قصيدة المديح / قصيدة العالم ..... ٨١
- بشاره الخوري : الهوى والشباب ..... ٩٧
- عمر أبو ريشة : كبرياء الألم ..... ١١١

١٢٧	..... نزار قباني : بين المرأة وقضايا المجتمع العربى
١٥٣	..... ● عبد العزيز المقالح : الكتابة بسيف الثائر على بن الفضل
١٦٧	..... ● صلاح جاهين : عبث الحلم و سطوة الإبداع
١٧٧	..... ● شوقي والحياة : مصائر الأيام
١٩٩	..... ● تحولات الشاعر فى مسرح صلاح عبدالصبور
٢٠٧	..... ● مظاهر السيدات : الحس الشعبى عند حافظ إبراهيم
٢٢١	..... ● الحس الساخر فى شعر صلاح عبدالصبور
	..... ● الآباء يحصدون الشعر :
٢٥٣	..... دراسة حول مراثى الأب فى الأدب العربى
- ٢٩٣	..... - إهداءات

**مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب**

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٩٢٥

I.S.B.N 977-01-4018-x



- أحمد عنتر مصطفى
- صدرت له المجموعات الشعرية التالية :
- مأساة الوجه الثالث.
- مزايا الزمن المعتم.
- أغنيات دافئة على الجليد.
- الذي لا يموت أبدا.
- حكاية المداخن المعلقة.
- تحت الطبع :
- زيارة أخيرة إلى قبو العائلة (شعر)
- السيد (مسرحية شعرية)
- قطرة ضوء (قراءت تراثية)

## إنه زمن الشعر .. أيضاً .. !!

يزعم المولعون بالتقسيم التضاريسي الحاد بين الأجناس الأدبية  
أنه : زمن الرواية ...، وتصدر كتاباتهم فى اتجاه تلك الريح !!  
وينصب آخرون ؛ من الفصيل نفسه؛ أشرعتهم زاعمين أنه : زمن  
القصة القصيرة !

وأظن هؤلاء جميعاً قاتلين فى ضمانهم المبدعة أرق صفاتها  
النبيلة؛ بمحاولاتهم تجريد أنفسهم من براءة الشعر !!

إنهم بمحدودية النظرة الضيقة؛ وفى صخب سعيهم الدعوى لتمجيد  
وتأكيد ذواتهم الجديدة؛ إذ ظل الشعر؛ وما زال؛ طوال أكثر من خمسة  
عشر قرناً هو فن العربية الأول؛ يحاولون؛ فيما لا داع له ؛ الفصل  
بقسوة بين الشمس وأشعتها؛ وعزل القمر - بتعسف غير لازم - عن  
ضوئه المشع...!!